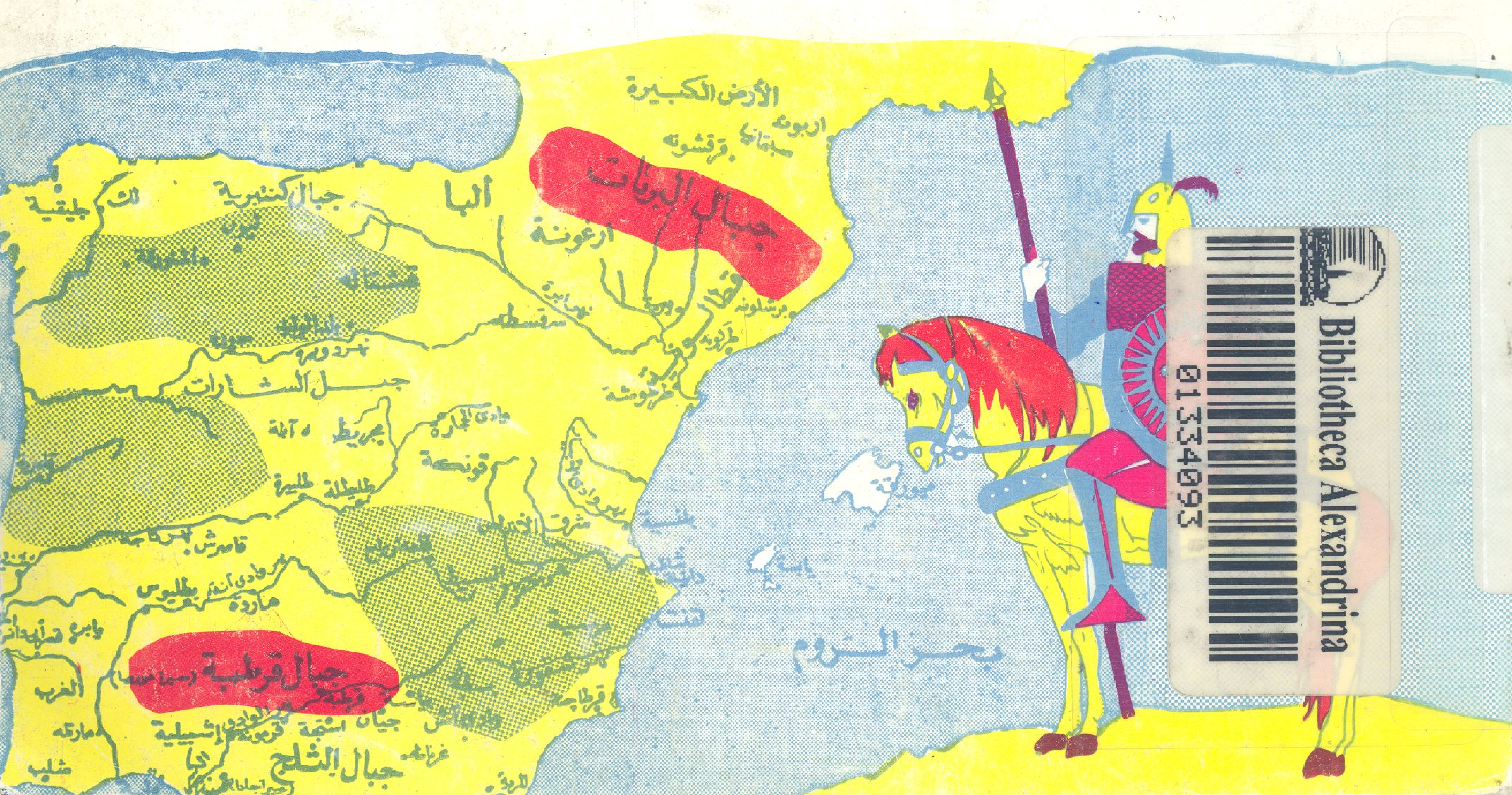
د. رُشْدى فكّار
المفكّر الاسلامى العالمى
عضو المجلس الأعلى للثقافة فى مصر

فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس

إعداد وتقديم
سيد أبو دومة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون ٣٩١٧٤٧٠



هذا الكتاب

هذا المؤلف الذى يحمل عنوان « **د . رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس** » يشكل المجلد الرابع من سلسلة الحوارات المتواصلة مع مفكرنا الإسلامى العالّمى الدكتور رشدى فكّار ، وقد جاء فى إحدى عشر حلقة وملحقات بعد تقديم من المعد له . خصصت سبع حلقات لمسيرة الأندلس منذ الفتح حتى سقوط غرناطة ، مروراً بعصور الولاة ، والإمارة ، والخلافة ، وملوك الطوائف ، وغرناطة الحبيسة ، وأربع حلقات أفردت للتقنين الموضعى ولحصيلة الأندلس فى مختلف أبعادها ، فضلاً عن أسباب تراجعه وعوامل إنهياره معرفّة ببؤر ضياعه من خلال البكّائين والمتباكين عليه ، ومَن سار فى دروب الفتن والدسائس من سماسرة العصبية والتفرقة والتمزيق ... ، كما عرفّت بقلاع مجده عبر قادته الأبطال المجاهدين ، وعلمائه مجتهدين ومبدعين : مفسرين ، ومحدّثين ، وفقهاء ، ولغويين ، وتربويين ، وفلاسفة ، ومتصوفة ، ورياضيين ، وأطباء ، وفلكيين ، ورحّالة ، ومؤرخين ، وجغرافيين ، وأدباء وشعراء وفنانين ... فما أروع الأندلس فى عظمته ، وما اقساه فى إنهياره ... هذا الأندلس الذى ترك آثاراً لا تمحى ليس فى حضارة الإسلام فحسب ، وإنما غذّى حضارة الغرب ، وبخاصة فى إرهاصاتها الأولى ، وهى تدين له بالكثير ...

أعدّ الحوار وقدّمه الكاتب الإسلامى السيد أبو دومة الذى يعرفه القارىء كمحرر من ألمع محررى جريدة الأهرام القاهرية ، وقد أعَدّ كتاباً ظهر من قبل ، عن مفكرنا الكبير بعنوان « **رشدى فكّار ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب** » .

« **د . رشدى فكّار فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس** » ، هذا المؤلّف الهام الذى يتميز بأسلوبه المبسّط ، والمباشر ، معتمداً على نصوص ووثائق تمتد على حقبة تاريخية تجاوزت ثمان مائة عام ، ويقدّم صورة حية « للفردوس المفقود » فى مراحل عظمته ، وفترات انهياره ، بلا شك سوف يجد له مكاناً متفرداً فى المكتبة العربية المعاصرة .



د. رشدي فكار
المفكر الاسلامي العالمي
عضو المجلس الأعلى للثقافة في مصر

في حوار حول الحاضر بالماضي عبر الأندلس

إعداد وتقديم
سيد أبو دومة

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عرفت حضارة الإسلام ، في مسيرتها التي تعبر بها مشارف القرن الحادى والعشرين بعد مرور خمسة عشر قرناً منذ أن شع نور الوحي الإلهي على البَشرية ، مراحل إشراق وفترات إشعاع ، كما عرفت التقلص مكتفية بالدفاع عن معاقلها ، وما ذلك نتيجة لتراجع الإسلام وإنما لتراجع المسلمين . من فترات الإشراق والإشعاع تحسب ، وفى الصدارة الفترة الأندلسية ، ثمانية قرون تقريباً من العطاء وعبر مختلف دروب المعرفة تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتأصيلاً لمبادىء الإسلام ، وتفتحاً فكرياً فى ميادين الفلسفة والعلوم طبيعة أو إنسانية بما فى ذلك الدراسات التاريخية والجغرافية ، فضلاً عن الآداب والفنون ، الأندلس تغذى وغذى حضارة الإسلام ليغذى حضارة الآخرين ، وبخاصة حضارة الغرب فى إرهاصاتها الأولى .

قدَّم الأندلس أو الفردوس المفقود ما قدَّم رغم معاناته فى مختلف مراحله من هبوب رياح الفُرقة والفتن والمكائد والدسائس والمؤامرات ، وتبادل الطعنات من داخل وخارج الدار .

الأندلس تعرَّف عليه المؤرخون وعرَّفوا به معاصرين ولاحقين ، مما شكل منجماً غنياً بالوقائع والأحداث ، وما زلنا حتى يومنا هذا نلاحظ بين الفينة والأخرى إسهاماً يتمثل فى اكتشاف وثيقة أو مخطوط يعنى هذه الفترة أو تلك من تاريخ الأندلس ، وبرزت أعمال جادة حاولت أن تستوعب الأندلس استيعاباً يليق بما قدَّم للبشرية من عطاء ، نشيد بها سواء ما قدَّمه المتخصصون فى الأندلسيات بالمشرق والمغرب ، أو ما أسهم به النزهاء من المستشرقين أسبانيين أو غيرهم ، ماضين أو معاصرين .

ومع هذا كنا نتطلع دائماً لحوار حول هذا الأندلس ، حوار يعنى الحاضر فى الماضى كما يعنى الماضى فى الحاضر ، وكان تطلعنا وطموحنا أن يتم هذا الحوار من خلال عطاء مفكرنا الكبير الذى يحظى بسمعة عالمية وإسلامية موضع التقدير والإعزاز ، وعلى حد سواء ، هذا المفكر الذى غذّى حضارة الغرب بإسهاماته الجادة كما غذّى حضارة الإسلام ، فهو بحق رائد من رواد الحضارتين ، نشأ كما هو معروف فى قرية متواضعة من قرى صعيد مصر ، وتربى تربية دينية فى طفولته لتستمر أزهرية (نسبة إلى الأزهر) فى شبابه ، ليمتطى ركاب حضارة الغرب ، وليصبح فى النهاية من أبرز مفكريها المعاصرين وبخاصة ما يعنى النظريات الوضعية : سانسيمونية وكونتية وماركسية وتطورية ... إلى غير ذلك من إفرازات حضارة الغرب والتى فى جوفها تبلورت علوم الإنسان المعاصرة والرئيسية منها كعلم الاجتماع (السوسيولوچيا) وعلم النفس (السيكولوچيا) والأنتروبولوچيا الاجتماعية .

إنه رشدى فكّار الذى عُرِفَ بسيرته فى أكثر من كتاب صيغ عنه ، فمن تحصيل الحاصل أن نعود إلى هذه السيرة التى خطت معالمها الرئيسية فيما وضعه الكاتب الإسلامى المعروف خميس البكرى وذلك فى مجلدين عن « **رشدى فكّار ومشاكل العصر** » ، « **ورشدى فكّار وقضايا تُراث المسلمين** » ، أو المجلد الذى وضعه السيد أبو دومة عن مفكرنا بعنوان : « **رشدى فكّار ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب** » ، فضلاً عن الدراسات الأخرى التى عالجت فترات من حياته أو مراحل فكرية معينة من إنتاجه .

لهذا نكتفى بالإشارة هنا إلى أحدث ما أنتجه مؤخراً وظهر له فى المكتبة العربية كمؤلفه الذى يحمل عنوان « **عن الحوار الحضارى فى بُعد واحد : الأنتوغرافيا والسوسيوغرافيا ولزوم التعريف فى مدخلهما برحالة الإسلام** » (منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٨) ، وما ظهر له فى المكتبة العالمية ونعنى بذلك **نظريته الحوارية فى الاجتماع العربى**

الإسلامي ، ثلاث مجلدات بالعربية مع استخلاص لكل مجلد بالإنجليزية والفرنسية ، عن دار النشر العالمية، جيتير بباريس ١٩٩٠ .

وكان علينا أن نتصيد الوقت الملائم الذى تسمح به المشاغل المتعددة والالتزامات المتنوعة لهذا المفكر الكبير الذى بات العثور على جلسات متعددة معه يجرى من خلالها الحوار ، قضية تحتاج لمزيد من التحضير والمواءمة التى لا تزعج مفكرنا ولا تؤثر فى حضوره هنا وهناك عبر المحاضرات الجامعية واللقاءات العلمية والمؤتمرات العالمية .

وقد كان ، فمن المعروف أنّ لمريدى الدكتور رشدى فكّار ومحبيه مكانة متميزة ورجاءً مقبولاً يتمشى وما أخذه على عاتقه من رسالة ليبلغها لجيله وما يتلوه جيلاً بعد جيل ، وتقبّل مفكرنا هذا الرجاء ، فكانت الحلقة الأولى عن بداية تعارفه مع الأندلس ، ثم تلتها حلقات عن عصر الولاة وعصر الإمارة والخلافة ، ثم التراجع ودويلات الطوائف رغم الإنقاذ المرابطى والموحدى ، وما كان من مصير غرناطة الحبيسة ، وقد أفرد لهذا الحوار سبع حلقات متتالية تتميز بأسلوب مفكرنا التلقائى ومصداقيته وتسلسل الوقائع والأحداث دونما مغالاة أو إنفعال أو تغافل أو إغفال .

وفى حلقات أربع كان تقنين مفكرنا الهادىء الرصين للفردوس المفقود عبر جولة فى بؤر الضياع بين الخاسرين والبكّائين والمتباكين ، وجولة فى قلاع المجد ، قدّم لنا فيها مسيرة الأبطال المجاهدين منذ بداية الفتح وعبر عصر الولاة والإمارة والخلافة ، وحتى فى فترات التأزم والتراجع والانهيار ، فهذه الفترات الأخيرة مع هذا حفلت بالأبطال المجاهدين مرابطين وموحدين ومرينيين وصامدين ممن جسّدوا الإصرار على إيقاف تنفيذ مسلسل الضياع أو تأخيره لعدة سنين ، وما بقاء غرناطة حبيسة رابضة فوق صخرتها متجاوزة القرنين من الزمان إلا مثالاً لهذا الصمود وهذا الإصرار كرموز تركت بصماتها فى صفحات التاريخ لهؤلاء المجاهدين الأبطال .

كما قدَّم لنا مسيرة أخرى هى مسيرة الاجتهاد والإبداع الأندلسى ، علماء مفسرين ومحدِّثين وفقهاء ولغويين ، سهروا وبغيرة على أصول الإسلام وتنقيتها من كل شائبة ، كما سهروا على تبليغها وتحمل أمانتها من جيل إلى جيل ، وذلك جنباً إلى جنب مع مجتهدين ومبدعين آخرين تربويين وأطباء ورياضيين وفلكيين وفلاسفة ومتصوفة ، وأدباء وشعراء ورحَّالة ومؤرخين وجغرافيين ... وغيرهم ممن أسهموا فى الارتقاء بالإنسان وبخيراته وثرواته ، فضلاً عما عمر به الأندلس من فنانين أشرقوا فى دروب الفن المختلفة ، فكان هذا الإيقاع الحضارى المتكامل لأندلس حمل بحق راية التسامى بالإنسان ، وترك آثاراً لا تمحى لا فى حضارة الإسلام فحسب - كمرحلة من أعرق مراحلها - بل فى حضارات الآخرين وبخاصة حضارة الغرب التى لا يمكن أن تُعزل فى جذورها وإرهاصاتها الأولى عن المد الأندلسى للعقل العربى المسلم المبدع .

وجاء استخلاص الحوار حول الحاضر فى الماضى - ولِمَ لا ؟ - حول الماضى فى الحاضر ، ليؤكد لنا أن الأندلس ، هذا الفردوس المفقود سيظل قابعاً فى ذاكرة الأجيال وفى ذاكرة الحضارات والثقافات نتلمسه عبر عطائه وإشراقه وإشعاعه كمفخرة من مفاخر حضارتنا التليدة ، ونتخذه كعبرة فى الأزمات والنكسات لنتحاشى التزحلق والوقوع فى انزلاق بؤر الضياع ، مرسخين لقلاع المجد بفضل استذكارها ومراجعتها واستعادة رموزها كمعالم نستنير بها فى مستقبل العصور.

هذا .. ونتوجه بالشكر لكل مَن ساهم وسهَّل لنا مهمة إنجاز هذا الحوار الهام مع مفكرنا العالمى الكبير الدكتور رشدى فكَّار ، وبخاصة البحَّاثة المغربى محمد العلمى والى - صاحب المكتبة الجامعية بالرباط - والدكتور جمال عبد الكريم الأستاذ بجامعة القاهرة ، الذى تفضل وراجع هذا الكتاب بعد مراجعة البروفات الأخيرة فى المطبعة ، تحاشياً للأخطاء المطبعية فى التواريخ والأسماء - والكاتبة الخاصة للدكتور رشدى فكَّار ، وكل الإخوة الأعزاء ممن عاونونا فى مصر والمغرب .

سيد أبو دومة

* * *

الحلقة الأولى

بداية التعارف مع الأندلس

وكانت الحلقة الأولى من هذا الحوار عن كيف تعَرَّفَ مفكرنا الكبير على الأندلس منذ طفولته المبكرة ، فأجاب : « جرتنا أقدامنا مع مجموعة من الأطفال يلهون إلى حديقة متميزة فى قلب القاهرة « حديقة الأندلس » ، وكانت من الروعة آنذاك بمكان ومن الجمال وتنسيق الألوان ما يجعلها ترسب فى الذاكرة ، وتترسَّب فى اللاشعور بين تصانيف ما هو محبَّب ومرغوب بالنسبة للطفل ، ومن ثَمَّ كان التردد عليها فى المناسبات والأعياد ... » ثم جاءت مرحلة التعليم وتحولت هذه التسمية لحديقة غنَّاء فى قلب القاهرة لتعطى حقبة متميزة بمضامينها التاريخية ، وكان للتسمية وقع ، ولِمَ لا ؟ إيقاع ، وحينما تعرفنا فى سنوات الدراسة على هذا الأندلس .

كانت التسمية بحق اسم على مسمى فيما قُدِّم لنا فى إطار التمدرس من معلومات ، وإن كانت محدودة ، إلاَّ أنها كانت مثيرة وجذابة . فالأندلس هو امتداد لنا خارج قارتينا الجذور والمحور ، آسيا وإفريقيا ، امتداد مشرق جمع بين قُدرة الإنسان العربى المتطلع الواعى بقناعاته ورسالته التاريخية ، وبين رسالته الروحية الإسلامية الخالدة ، فهو حامل لواء العقيدة ، وحامل مشعل الحضارة والتنوير ، حضارة أثرت البَشرية بما قدَّمت من مُثل عليا ، وما نفذَّت من عمران وإبداع وابتكار فى مختلف دروب المعرفة .. فناً وأدباً وعلماً .

وهكذا رأينا الأندلس ، أندلس القادة المتبصرين والواعين برسالتهم الدينية والحضارية ، وأندلس العلماء والفقهاء ، والفلاسفة ، والمتكلمين ، أندلس الشعراء ، والأدباء ، والكُتَّاب ، ولِمَ لا ؟ الفنانين والموسيقيين ، هذا البناء الحضارى الشامخ جذبنا إليه فى إشراقه وفى معاناته ، لذا حينما استقر بنا

المقام فى باريس ، لم تشغلنا اهتماماتنا بالعلوم الإنسانية وبتخصصنا وما حوله أن نتزاحم فضولياً بين المتزاحمين على محاضرات أساتذة الأندلسيات ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر « لفى بروفانسال » المستشرق المتخصص فى الأندلس ، وليس بغريب أن يهتم « لفى » بأندلسنا ، فقد كان رحيماً وعطوفاً بالنسبة لأجداده .

ففى الوقت الذى كانت تُنصب المحارق فى أيام الآحاد بعد الصلوات لتصيد اليهودى التائه وحرقه فى الميادين العامة فى أوروبا الوسيطة لتأكيد لعنة المسيح عليه السلام ، كان الأندلس يحتضن بين جنباته الرحيمة ، هذا اليهودى الحائر والذى شخَّصه فى كتابه المعروف ابن ميمون الأندلسى ، « **دلائل الحيران** » أو « **الحائرين** » ، كُتِبَ بالعربية والعِبرية واللاتينية . لقد كان « ابن ميمون » كغيره من يهود الأندلس ، لا ينعمون فقط بالراحة والاطمئنان والطمأنينة والأمن والأمان ، وإنما يبحثون وبكل حرية عن هويتهم ، ويفكرون ويكتبون ، بل ويساهمون فى أنشطة الأندلس وفى مختلف دروب المعرفة ، يتولون المناصب ، فضلاً عن ممارستهم للمهن والحِرف الأخرى .

وقد كان من الطبيعى أنَّ أفول الأندلس كان بالنسبة لهم أيضاً أفول عصر تمتعوا به ونعموا ، وبالتالى فضَّل جانب كبير منهم أن يرحل مع الراحلين بعد الأفول ، كما أنَّ البعض الآخر سهر على ترجمة ما وصل إليه من حضارة الأندلس العملاقة إلى اللاتينية إلى جانب لغتهم العبرية ، والشىء بالشىء يُذكر ، ما دمنا بصدد هذه اللمحة عن اليهودية التى أفرزت اهتمام « لفى بروفانسال » بالأندلس ، أن اليهودى التائه ما عرف طريقه إلى القدس بعد أن صُفِّىَ حضوره مع بناء كنيسة القيامة وحُرِّم عليه أن يطأ بقدميه أرض القديسين من قِبَلِ الكنيسة ، عاد تحت راية الإسلام من الأندلس ليزور القدس ، بل وليستقر فيها رويداً رويداً كأسر يهودية محدودة بدأت تتكثف عبر القرون وتتسع لا لتتقاسم الأرض الطيبة مع أهلها كضيوف ، وإنما لترد الجميل فى القرن العشرين بطريقة لا تتمشى بل ولا تتفق مع أبسط المبادىء الإنسانية وروح الوفاء .

ومع هذا يعتبر اهتمام « لفى بروفانسال » بأندلسنا ، كاهتمام مَن حاول من اليهود ، أن يخفف من جرم القطيعة والنكران ، يستحق الإشارة والملاحظة .
ومن هذا الموقع الفكرى المتعاطف مع الأندلس والمكتشف له والمتكشف على ذخائره وعطاءه ، كانت الرغبة التى تنتظر الظروف المواتية لتتحقق - ونعنى بذلك التعرف على الأندلس فى عين المكان - أو بعبارة مباشرة ما تبقى منه كآثار تشهد بأن الإنسان مهما تنكر فى لحظات العنف والانفعال والقطيعة لا يمكن بحال أن يبطل أو يزيل ما علق بذاكرة التاريخ وما تشهد به هذه الآثار ، رحل الأندلسيون من أندلسهم ، ومع هذا ما استطاع مَن أرغمهم على الرحيل أن يمحو آثارهم وإنما عاد ليتغنى بها ، ولكن بطريقته ، مفتخراً بما تم بها من إنجازات لا يمكن أن تُعزل عن تاريخه العام .

ذهبنا إلى هذا الأندلس فى بداية الخمسينات ، وجُلْنا مع الجائلين الأماكن التى حملتها إلينا كمسيمات الكتب التاريخية ، وبحق كان الانطباع الأول والتلقائى : أن الأندلس أكبر بكثير مما قُدِّم عنه عبر قنوات التاريخ والرصد ، بلا شك هذا الأندلس العملاق إن كان يشهد لمن بناه بشهادة العبقرية والإبداع والعطاء ، فإنه وبالضرورة ، يشهد على مَن أضاعه إلى أى حد كان قاصراً فى وعيه ، مجازفاً وشخصانياً فى طموحاته ، لا مبالياً فيما سيخطه التاريخ بالنسبة لجرمه وخطيئته . حيا الله أبطال الأندلس .

هكذا كانت مشاعرنا فى ركن منزوى من أركان قصر الحمراء بغرناطة ، وكان الوقت غروباً ، واستعدنا فى الذاكرة حركة القصر وما كان يغص به ساعة أمجاده من حياة وازدهار ، أيمكن أن يجول فى ذاكرة مَن عاشوا آنذاك من الأجداد فى لحظات النشوة والانبهار أنه سيأتى زمن يجلس فيه حفيداً من أحفادهم غريباً فى داره ، يتساقط الدمع من عينيه على أطلاله ، حقاً ما قاله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [1] . أو كما قال أبو البقاء الرندى فى قصيدته الحزينة فى بداية الأفول :

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

لكل شيء إذا ماتم نقصان ... فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

...... إلى آخر القصيدة .

وتحاملنا لنقف تاركين المكان .. فلسنا فيه أكثر من سائحين ، فلقد أذن بقفل أبوابه من سدنته ، وكنا آخر مَن خرج منه ، وعبر نزولنا من هذه القلعة الشامخة جالت في الذهن أحداث وأحداث ، وتساؤلات وتساؤلات .. كيف حدث هذا ؟ كيف تحوّل صاحب الدار إلى غريب فيه ؟ وكيف تحوّل الغريب إلى صاحب الدار ؟ إنها قضية في أبعادها المعمقة من اختصاص المختصين والمتخصصين ، مؤرخي تاريخ الأندلس والمتصدين لعلميته وفلسفته ، باحثين عن ثوابته التاريخية وقائع ، وأحداث وعن عليّة سقوطه ، أما نحن فنكتفي من « فردوسنا المفقود » بدروس وعبَر نستخلصها ، نعيش في عصر تتكالب فيه الأمم كما تتكالب الأكلة على قصعتها ، كل يريد أن يستحوذ على نصيب الأسد .

وكان قدرنا اليوم كقدرنا الأمس في قلب المواجهة والتحدى ، فقد فرض علينا موقعنا الجغرافي من ناحية ، وتحكمنا كأمة في الممرات البحرية من مضيق جبل طارق مروراً بقناة السويس وبقية الممرات البحرية الأخرى ، فضلاً عن تحكمنا في أهم مصدر من مصادر الطاقة .. وأن أرضنا أرض النبوات ومهد الحضارات ... كل هذا جعل الطامعين لا يكتفون منا بالقليل ، وإنما هل من مزيد ؟ أُخذَ ما أُخذ وها نحن اليوم ندافع وبإصرار عما تبقى ، ومن هذا الموقع يمكن أن يتصدر من جديد « الفردوس المفقود » الأندلس ، ليملى علينا بعض الدروس من مأساته لعل في ذلك ما يكون عظة لكل مجازف ، عظة لنا ولغيرنا ، ولمَ لا ؟ عظة لكل مَن تعمى بصيرته بأنانية ذاتية وشخصنة معتمة ليَضيّع باسم الدفاع عن بقاء ذاته مصير أُمته ، وهو واع أن ذاته في الواقع هي ذات أمته ، وأن لابقاء له بدونها .

ما أروع هؤلاء ؟ ، وما أتعس هؤلاء ؟ ما أروع هؤلاء القادة ممن اختاروا في اللحظات الكبرى المصيرية أن يضحوا أو يستشهدوا لتبقى الأمة ، فبقيت وأبقت عليهم كنبراساً ورمزاً خالداً يستشهد به ويفتخر ، ومن أجله يستعيد

التاريخ ثقته فى ذاته ، وما أتعس هؤلاء الذين أضاعوا بحسن نية - أو بسوءها - مستقبل شعوبهم ، فكانوا من أصحاب الخسارتين ، فما أشبههم بالحرفيين الذين يعبدون الله على حَرف ، فهم يقودون الأمة على حَرف ، حيث يقول الحق :
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِه ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

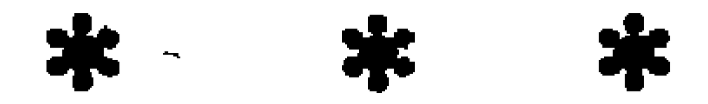
ومرت الأيام ، بل والسنون .. وها نحن اليوم نعود - ومن خلال هذا الحوار - لنكمل ما جال فى ذاكرتنا ونحن نهبط من قصر الحمراء ، وهو جاثم فى أعلى الربوة ، وننظر إليه من آن لآخر فى هبوطنا ، غير دارين أو متلفظين بما هو أنسب وأدق للتعبير عن مشاعرنا نحو هذا القصر . أنتحسر عليه ونتأسى ؟ أم نعتز به ونفخر ؟ نحيى هذا القصر كثابت من الثوابت التى تعطى لنا مزيداً من الثقة بالذات ، وتملى علينا درساً نعيه من ذاكرة التاريخ ، حتى لا يتحولّ ما هو تحت أقدامنا من أرض وتراب كمعاقل ندافع عنها الآن وبإصرار إلى أرض ينظر إليها أحفادنا - لا قدَّر الله - فى مستقبل القرون نظرتنا إلى قصر الحمراء ، فكفانا أطلالاً نتباكى عليها ، ونستبكى .

فقصر الحمراء من الأولى أن يظل شامخاً كعبرة ودرساً يجرنا الحديث عنه إلى طرح متواضع لمأساته ، مأساة الأندلس ، ولكن قبل أن نتعامل مع فصول المأساة جدير بنا أن نبدأ من البداية لنتحاور أولاً مع أندلسنا المشرق ، وقبله مع مولده وتأسيسه ، وهل يمكن أن نتصيد فى حوارنا عناصر تبرز لنا ما فيه من قلاع للمجد ، وما احتواه من بؤر للضياع ، وهل تتزامن فى مسيرتها التاريخية أم أن بؤر الضياع تناثرت من البداية ، وكان على قلاع المجد أن تغطيها وتزيح عليها الرمال من آن لآخر ، أم العكس كانت قلاع المجد ثم تراجعت وتضاءلت وانكمشت لتتحول إلى بؤر للضياع .

---

(١) الحج : ١١

احتمالات ثلاث سوف نتحاور معها بأسلوب هادىء ، ومبسّط ومباشر ، تاركين للمختصين والمتخصصين فى هذه الحقبة الغوص فى ممراتها المظلمة وقنواتها المتعددة ، فمن البداية نكررها ، لسنا بصدد وضع تاريخ للأندلس أو إعادة لصياغة أحداثه ، أو تصحيح أو تصويب أو تخطىء أو إضافة أو اكتشاف ، وإنما نجول فى الأندلس بين قلاع مجده وبؤر ضياعه ، لنتعرف على أى الاحتمالات أقرب إلى فهمنا ، هل بدأ الأندلس ببؤر الضياع تاركاً لقلاع المجد أن تظهر بين الحين والآخر فى فيافيه ووديانه ؟ أم العكس ؟ انطلق من قلاع المجد وانتهى ببؤر الضياع ؟ أم تزامنا وتناغما فى كل فترة من فتراته ، تتساكن قلاع مجده مع بؤر ضياعه ؟ ... وحلقتنا التالية نبدأها من البداية .



الحلقة الثانية

وماذا عن إقلاعه فى عصر الولاة

وتعود بنا الذاكرة إلى عام ٩١ هـ (٧١٠ م) لتقف وقفة متطلعة مع رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، متطلعة إلى المجد تحت راية الله ، لا طمعاً فى قصاص أو ثأر ، وإنما ما أكدته مسيرة الإقلاع ، كانت الغاية - ولو على الأقل فى البداية - أسمى من أن تنطوى فى دروب المنافع والمصالح . وتحرك الركب لا مجازفة وتهوراً ، وإنما واعٍ بما ينتظره متعرف على أرضيته ، حيث نلاحظ - كما حملت لنا المصادر والمراجع التاريخية - أن هناك جماعة ، قامت بما يشبه فى المخططات العسكرية المعاصرة استطلاع مواقع المواجهة والتعرف على إمكاناته .

هذه الجماعة هى جماعة طريف بن مالك المعافيرى ، واحد من رجال موسى ابن نصير ، كلف بالاستكشاف فعبر إلى الجزيرة التى تحمل اسمه ، وبالتالى أعطى إشارة الانطلاق بعد أن تأكد فى عين المكان مما قيل أن « يوليان » أمير سبتة قد عوّضه على موسى بن نصير ثأراً لما أصابه من طرف القوط ، فلم تؤخذ معلوماته مأخذ الجدية والنهائية إلاّ بعد أن أكدتها جماعة طريف بن مالك من المستطلعين .

وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن هؤلاء الرجال ، لم يتصرفوا بطرق تلقائية حباً فى الدماء ونشوة فى العداء والثأر ، وإنما على ضوء خطط مدروسة وبصبر وأناة ووعى ، مما يؤكد جدارة موسى بن نصير وبُعد نظره كقائد للجيوش ، وسوف نرى أنه كان دقيقاً ، ليس فقط فيما يعنى الاستطلاع ، وإنما مدققاً فى خططه ، منضبطاً فى تنفيذها ، ولعل هذا يفسر الخلاف الذى وقع بينه وبين طارق ابن زياد حينما - وهو فى نشوة النصر والاندفاع - خرج على ما ألزمه موسى

ابن نصير بتنفيذه . ولكن عادا فالتقيا مرة أخرى متكاملين رافعين لراية الحق والجهاد . طارق بن زياد غنى عن التعريف ، رجل الصخرة الذى تحمل اسمه حالياً « جبل طارق » تأكيداً لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (١) .

مكث اسم طارق بن زياد ، ومن الغريب أنه حينما تنطق تسمية جبل طارق باللغات الإنجليزية أو الفرنسية على سبيل المثال ، حيث تخفف الطاء وتدغم فى اللام ، يبدو للسامع عن بُعد أنه يستمع إلى جبل « ثأر » ، وانطلق طارق بن زياد بعد عبوره لبحر الزقاق - أى البحر الأبيض المتوسط - زاحفاً نحو ما عُرِفَ بالأندلس عبر قرون وقرون ، لا نقول عبور الغازى المدمر أوالفاتح المستلب ، وإنما عبور القائد الواعى بمسؤولياته ليس فقط بالنسبة لجيشه المنتصر ، وإنما أيضاً بالنسبة لمن أصبح مصيره فى يده من القوط والرومان ، فسمح لهم بسماحة الإسلام أن يقيموا طقوس العبادة وأن يتمتعوا بالحرية الدينية ، واستمر حتى طليطلة رغم ما شَبَّ بينه وبين موسى بن نصير من اختلاف وقتى حول مخطط الفتح وخططه ، ولكن سريعاً ما التقيا وأكملا زحف الرجال نحو الشمال إلى الشرق وأضيفت ولاية الأرجون « أراجون » ، وما حولها إلى خريطة الجيوش الرافعة لراية الحق ، رايةِ الله ، مبشرة بعصر جديد لإنسان هذه الأرض .

وهكذا بدأت الطموحات الكبرى تمر عبر عقول الأبطال من قادة الجيوش وهم يخترقون جبال « البرينى » ، ولِمَ لا ؟ ... حتى القسطنطينية ليعودوا إلى دمشق مقر الخلافة بعد أن تعم راية الإسلام كل ممالك الأرض فى أوروبا . موسى بن نصير وطارق بن زياد يرمزان فى فترة الإقلاع إلى غرس بذور قلاع المجد ، ولكن كان الاستدعاء إلى مقر الخلافة مع إيقاف الزحف .

---

(١) الرعد : ١٧

علامة استفهام كبرى تطرح إن كنا نترك التفاصيل والغوص فى الأعماق للبحث عن الحيثيات الموضوعية ، نترك هذا للمختصين فى جزئيات تاريخ الأندلس ، فإننا نتساءل مع المتسائلين ، وفى إطار هذا الحوار المبسّط عن الاحتمالات المتعددة التى يمكن أن تبرر هذا الوقف للزحف والاستدعاء إلى مقر الخلافة ، فقد تعودنا أنّ المتعطش ، بل والمتسرع فى إيقاف المواجهات الحربية هو المهزوم ، فمن الصعب تقبل منتصراً يقف بانتصاره فى منتصف الطريق ، اللّهم إلا إذا كانت هناك عوامل مبطنة يصعب على المتسائل . وبعد مرور ما يتجاوز اثنى عشر قرناً - أن يعطى فيها رأياً نهائياً وفى إطار حوار يركز على العبرة والدرس ، مما حدث ووقع ، أكثر من تفرغه لتعليل ما هو ثابت وصحيح فى تاريخ تغلغلت فيه الطموحات الشخصية مع إبراز القدرات البطولية .. ولِمَ لا ؟ مع الفتن والدسائس .

وعادا إلى دمشق ، وكانت الخلافة بدورها تودع « الوليد بن عبد الملك » ليخلفه « سليمان بن عبد الملك » ، وليد الذى ائتمر بأمره للزحف على الأندلس. وشهد البطلان فترة عمّت فيها الدسائس وتعددت الفتن ، مما يجعل المتسائل أمام موقف فى حاجة إلى حيثيات موضوعية ، القائد المنهزم أو المتكس من الطبيعى أن يُقاد مسلسلاً ليدفع ثمن هزيمته ، محاكماً أو مسيفاً ، ولكن القائد المنتصر هو هذا القائد الذى تحتفى به الأمم وتخرج المدينة لاستقباله ، تحيى فيه البطولة والوفاء .

لقد انتصر موسى بن نصير ومعه رجله طارق بن زياد ، وكان ثمن انتصار هذا الرجل هو أن تُحمل إليه هدية ما وردت بذهنه ولاطافت بخياله ، حيث قُدِّمت إليه رأس ابنه عبد العزيز ، بعد أن اغتيل فى الأندلس وكان قد تركه خَلَفاً له وواليًا عليها ، واضطلع بالمسؤولية وأكمل مسيرة والده ومع هذا ، هكذا كان مصير الأب والابن ، أن انزوى منطوياً حتى مات فقيراً ، وابن حُمِلت رأسه جزاءً له على ما قدّم لتقدم لأبيه ، ويبقى طارق بن زياد صاحب الصخرة الشامخة ، بقى لا فوق صخرته وإنما مغموراً كاد أن يمحى أثره ، ولكن إن ضاع طارق بن زياد

فى أزقة الدسائس والفتن والمؤمرات كجسد ، إلا أنه بقى طارق بن زياد كرمز يشهد بصخرته الجاسمة فى المضيق على أنه مكث فى الأرض وكان أقوى من الأحداث .

ماذا جرى فى دمشق لهذين البطلين ؟ ولماذا كانت هذه النهاية ؟ وكيف ؟ تساؤلات متعددة تُطرح على مستوى مؤرخى التاريخ وعلمائه وفلاسفته ، ولكنها تشهد دائماً على أن الأحداث الكبرى من الخطأ أن تُرى فى بُعد واحد أو أن يصيغها لنا مؤرخ انطلاقاً من تذوقه أو انتمائه أو ميوله ، وإنما تظل علامات استفهام كبرى ، نستقى على ضوئها الدروس والعبر ، لتؤكد لنا أن ممرات الدسائس وأروقة الفتن والمكائد ليست وليدة اليوم ، وإنما هى اليوم كما كانت أمس ، تجسِّد لنا بؤر الضياع التى تختفى دائماً لتتصيد رموز قلاع المجد حينما توافيها المناسبات ، أو تسمح لها مواسم الارتزاق .

لقد كان موسى فى فترة وجوده فى الأندلس - وعلى نهجه سار ابنه حتى اغتياله ، هذا القائد المسؤول الذي يسعى بأمانة وإخلاص إلى تطبيق شريعة الإسلام ، يؤلف بين الجماعات لتتآلف وتتعايش وتتساكن ، تاركاً لمن خلف ابنه صورة واعية للسَلَف ، وقدوة جديرة بأن تُحتذى رتُحاكَى فى تساميها أثناء ولايتها وتوليها وقيادتها للمسؤولية .

وهكذا كان « السمح بن مالك الخولانى » الذى أخذ على عاتقه مهمة تكملة المسيرة بإصرار الرجال الصادقين ، حتى استشهدوا ، كان من بعده « الكلبى » ليأتى فى مرحلة تالية دور هذا الرجل « عبد الرحمن الغافقى » (١١١ - ١١٤ هـ / ٧٢٩ - ٧٣٢ م) رجل الجهاد ورجل الاستشهاد ، لقد عبَّأ قوى المؤمنين زاحفاً بهم إلى المواجهة الكبرى ، ولكن مرة أخرى تساءل عبر معركة « بلاط الشهداء » ، هذه المعركة الفاصلة التى كان من الأولى أن تذكر كدفع للإقلاع إلى آفاق وساحات بلا حدود ، يُذكر فيها اسم اللّه ، وتتكامل فيها رسالة السماء تحت راية الإسلام الذى أكمل الوحدانية مبشراً بإنقاذ البَشرية .

من الطبيعى أن الغرب ينظر إلى هذه المعركة الفاصلة التى دفع ثمنها أيضاً قائدها « عبد الرحمن الغافقى » باستشهاده ، على أنها وضعت حداً لهذا الكابوس الذى يُخيِّم على صدر أوروبا ، ومنها بدأت تنتعش موجات الاستعادة لما أُخِذَ من أرض رغم إصرار الزاحفين وقناعاتهم . ولكن مرة أخرى ومرات ، أسهمت الدسائس والشهوات ومواكب الكيد والحقد والتشخص والانفتاح ، والرغبة فى الانفراد بالكسب أو السُلطة بمعنى تسلط فجور النفس على تقواها ، لتُسهم فى تحقيق مطالب الخصم وتسهيل مهمته فى استعادة الأرض ، وصدق المتنبى حين قال :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

الإقلاع مجسداً فى فترة عصر الولاة ما بين (٩١ - ٩٢ إلى ١٣٨ هـ) الموافق لـ (٧١١ - ٧٥٥ م) فترة من الزمن لم تصل إلى نصف قرن ، ومع هذا شهدت من الولاة عدداً يدور حول العشرين ، إن كان هذا التعدد يُقبل فى مرحلة لم يستقر الوضع فيها بالأندلس ، ومع هذا تترجم لنا إلى أى حد طُبِعَ الإقلاع بطابع المتغير لا الثابت والمستقر ، وبطابع المتعدد لا المتجانس والمنسجم ، فتعدد الولاة كان يناغمه ويزامنه تعدد فى انتماء العشائر والقبائل لا فى سلالاتها فقط ، ولكن فى مدى تعاونها أو تطاحنها وتنازعها ، فضلاً عن التنوع لدى الآخرين من سكان الأرض ، رومان وقوط وغيرهم ، إلى جانب ما استُحدِثَ وعُرِفَ بالمولّدين ممن دخلوا فى الإسلام أو المستعربين ، حيث إن اللُغة العربية بشهادة الطرف الآخر جذبت إليها شباب النصارى وصادفت قبولاً وتقبلاً أسهم فيما بعد فى إشعاع الأندلس أدباً وشعراً ، فقهاً وفلسفة ، بل وعمراناً وفنوناً ، وفى مختلف الجبهات .

وكان لقرطبة وإشبيلية ومن البداية إلى جانب مدن الأندلس الأخرى بصمات تركت على جبين حضارة الإسلام لا تُنسى ولا تُمحى ، إضافة إلى هذه الفئة التى

سنرى فيما بعد وعبر حوارنا إلى أى حد تمتعت فى أندلسنا ، ليس فقط بأمن وأمان الحياة ، وإنما بحرية الفكر وحق الكتابة والتأليف والترجمة ، ليس فقط بلغة العرب ، وإنما بلغتها ونعنى بذلك اليهود ، يهود الأندلس ممن تكاملوا مع حضاراته وتعاطفوا مع لغتها وفكرها ، وكان منهم مَن تميز بعطائه وإشراق موهبته كمثال « ابن ميمون » الأندلسى .

إنه إقلاع لمد حضارى خارج أرضه عرف كيف يثبت الأقدام ، لا عبر برك من الدماء وتحت سيوف القهر والجبروت ، وإنما من خلال بث روح التسامح والتعايش والتعارف والتآلف ، حيث ظلت المواجهة فى إطارها المحدَّد لها بحدود المعارك ، أما المدن والقرى فكانت ترمز بهدوئها - رغم تنوعها وتعددها فى انتمائها العشائرى والقَبلى والسلالى - إلى التجانس مع دفاعها عن خصوصياتها ، باحثة عن حد أدنى تثبت به ما آلت إليه رغم أن صوت الجهاد كان هو الطاغى على غيره من الأصوات ، لأن جيوش الإسلام كان عليها أن تتواجه فى أكثر من ميدان .

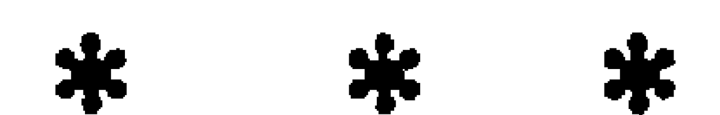
تتواجه أولاً مع خصمها ومَن يريد أن يستحوذ على انتصاراتها ، وتتواجه فيما بينها ، بل وتتواجه مع ذاتها باعتبار أن جانب الطموح والاستحواذ والتصدر والانفراد بالمكتسبات كثيراً ما كان يغلب لدى البعض غير واع بما وقع له فى حرب « البسوس » ، وغير قانع بكل ما وصل إليه من انتصارات ومجد ، كان من الأولى أن يتجاوز به أنانية النفس ، وهذا ليس بالضرورة كان قاسماً مشتركاً بين الجميع ، فلو كان الأمر هكذا - كما يزعم البعض - لأجهض الأندلس فى يوم مولده بل وفى عصر الولاة .

لقد كانت تتعايش فى أعماق هذه الجماعات مشاعر العزة وأصالة الانتماء وسمو الغايات ورفعة المُثل ، مع أنانية الذات ورغبة الانفراد والتميز ، ولكن مع هذا كثيراً ما استطاعت هذه المشاعر أن تحوى هذه الأنانية فى اللحظات الكبرى الحرجة ولا تصل بها إلى حد الانفجار وعمق الضياع فى

الضياع ، لقد جسدت فقط بؤراً لهذا الضياع لا أقل ولا أكثر ، وظل جسد الأندلس يعانى منها مرة تتقيح وأخرى تلتئم ، تتساكن مع قلاع المجد ، تطفو وتخمد ، تتصدر وتتراجع ، وكثيراً ما غزت الأحداث المعاصرة آنذاك هذا الاتجاه أو ذاك بين صفوف الجماعات .

فلا يمكن بحال أن نتجاهل وقائع كبرى معاصرة لهذه الفترة على مستوى قمة القرار فى خلافة الإسلام حيث سقطت خلافة الأمويين وجاءت خلافة العباسيين ، وحدثٌ بهذا الثقل لا يمكن أن تُتجاهل أصداءه بالنسبة لما يعنينا فى عصر الولاة ، فحينما تبيت الرأس محمومة من الطبيعى أن الجسد يهتز وتضعف فيه قدرة الإيقاع والتجانس ، ويصبح أكثر تأهيلاً للتفتت والتشتت والتآكل والاندحار .

وهنا يمكن أن يُرى عبد الرحمن الداخل « كمعيد » لهذا التوازن الذى اختل بين أجهزة الجسد حيث فصل رأسه المحمومة ليؤهله إلى حياة جديدة تطبع بطابع الاستعادة للوعى ، والتى ظلت تسيطر على الجسد عبر سنين ، خصوصاً وأن ما انتهى إليه عصر الولاة من تعميق للفتن وتمزيق لما تبقى من الجسد نتيجة للصراعات والتنوع فى التطاحن أهَّلَ الأندلس فى إقلاعه المهتز ليبحث بالضرورة عن تجانسه وتوازنه فى ظل رأس مدبرة قادرة ومستنيرة تتميز بممارسة المواجهة والصرامة والحزم ، وفى جمله مباشرة : ما يمكن أن تتحلى به القيادة فى اللحظات الحرجة من حياة الأمم . ومعه ننتقل فى حوارنا متواصلين عبر الأندلس إلى الحلقة الثالثة نجسدها فى عصر الإمارة ، وفيها نتجه بفتوة الإقلاع إلى صرامة الاستقرار .



الحلقة الثالثة

ثم .. ماذا عن استقراره فى عصر الإمارة

إنَّ مَن عاصر فترة الإقلاع وعبر دروبها وما عرفته من مَدٍّ وجَزْرٍ ، من دفاع عن المعاقل وتطلع إلى الامتداد والزحف ، سوف يتردد كثيراً حينماً يتطلع إلى ما سيأتى من أحداث حيث إن الإقلاع جمع بين قلاع للمجد وبؤر للضياع ، بين مَن يبحث عن الشهادة والاستشهاد ، ومَن يبحث عن الغنائم والمكاسب والاستبداد ، بين مَن يحمل راية شمولية أُمة ، ومَن يتقوقع فى العشيرة ويتقنع فى القبيلة ، وهكذا اقترب الأندلس فى بداية أبجديته من نصف قرن وهو فى أمس الحاجة لإعادة حساباته واحتواء ما مُزِّق ، وتهدئة مَن تشنج وانفصل ، فضلاً عن أن المحيط العام ما كان أبداً يؤهل الأندلس للانسجام والتجانس ، فهناك سقوط وقيام ، وهناك الباحث عن الثأر والمتطلع إلى البديل .

وكان عبور « عبد الرحمن الداخل » ، هذا الأموى - صقر قريش - كما لُقِّبَ بذلك، المتوفى عام ١٧٢ هـ (الموافق لـ ٧٨٨ م) بعد إمارة استمرت ٣٤ عاماً بدأت إمارته بدخوله قرطبة عام ١٣٨ هـ (الموافق لـ ٧٥٤ - ٧٥٥ م) منتصراً فى المعركة الفاصلة ، معركة المصابرة بجانب الوادى الكبير ، على ما تبقى من الولاة ، وفى نفس الوقت منتصراً فى بداية معركته مع الشتات والفتن والتفرق وتحزب العشائر والقبائل .

وهنا لا يمكن أن نستبعد ما كان يتحلى به من سمات القائد وتأهيل الرائد لتحمل المسؤولية ، أربع وثلاثون عاماً لعبد الرحمن الداخل حفلت بالصراعات المختلفة من الداخل والخارج ، فهو على رأس جسد تتصارع جزئياته ، وعليه أن يُؤمِّن له الحد الأدنى من التجانس والانسجام ضماناً لاستمرارية الإمارة من الداخل ، وعليه أن يحميها مما يُدبَّر لها خارجياً من أبناء عمومته وأعدائه على حد سواء ، وحينما نذكر أبناء العمومة ، نعنى الأقربين شركاء الملة والدين

والمصير المشترك فى ديار الإسلام ، فالخلافة العباسية لم تتوقف فى بداية حكمه من توظيف كل ما لديها من وسائل للإيقاع به مستغلة طبيعة التنوع فى الانتماءات بين العشائر والقبائل ، وبالتالى التنوع فى الولاء .

فإن كان هناك مَن يتقبل المنتصر وصاحب السُلطة متعاوناً ، متكاملاً ، متضامناً ، فهناك مَن يتقبله إذعاناً وامتثالاً لسطوته فى انتظار غد أفضل ، مترقباً لتداول الأيام ، متلمساً لأى فرصة ضعف أو خلل ليستعيد من جديد ما أفتقد ، وإن كنا بدأنا بالحديث عن ذَوى القُربَى ، « وظلم ذوى القُربَى أشد .... » مع تسليمنا ضمنياً بما بين الدولة العباسية والأموية من تصفية لحسابات مترسبة .

غير أن الذى يلفت النظر ويدعو للتساؤل فى حوار حول الحاضر فى الماضى ما ذُكِرَ لدى البعض من تكامل ضمنى فى العداء لهذا الذى صارع فى بلاط الشهداء وما زال يطمع فى الاسترداد لما زحف عليه من أرض باسم الإسلام ، وهنا يرد فى الذاكرة هذا التعبير الذى يحاول البعض أن يبرر به المواقف الغير القابلة لأى تبرير وبدون حيثيات موضوعية ، ونعنى بذلك : « لنتحالف مع الشيطان فى سبيل هزيمة الخصم وإيقاع الشر به ولو كان شقيقاً » .. إن كنا لا نتقبل هذه الفرضيات بقلب رضى لأننا نبرأ بأى خليفة مسلم أن يصل فى ثأره إلى حد التنكر لصلة الرحم ، فضلاً عن العقيدة والإيمان ، لذا كان طبيعياً أن نجد هذا العباسى الذى قيل إنه تحالف مع الشيطان ولو كان ممثلاً فى عدو الإسلام ، نجد لدى البعض مَن يميل إلى أن نعت عبد الرحمن بهذه التسمية التى تضاف دائماً إلى ذاكرة التاريخ : « صقر قريش » ، كانت عباسية من خليفة عباسى ، على أية حال واجه عبد الرحمن الداخل فى كل الجبهات ورغم كل الأعاصير والرياح المتعددة فى مخارجها . واستقر هذه الفترة من السنين الطوال يعيد صياغة الإمارة ليس فقط على مستوى فئاتها البَشرية ، وإنما على مستوى بيئتها العمرانية والحَضَرية .

فهو الذى وفى أواخر أيامه يُذكر له - من بين ما يُذكر - تأسيسه لجامع قرطبة ، فضلاً عن قنوات الماء وتشييد بعض المعالم العمرانية بجانب قرطبة ، ويُذكر له الكثير والكثير ، فقد كان أميراً شاعراً بين الحين والحين ، يجالس الشعراء فى بلاطه أمثال أبو المخشى بن حنظلة التميمى الذى بكى فى أبيات مثيرة بصره الذى أطفأ نوره أمير أموى عقاباً له لميله إلى أخيه ، ووجدت المذاهب الفقهية أرضاً خصبة فى هذه الفترة .

ولقد كان أهل الأندلس أول الأمر « أوزاعيين » - نسبة للإمام الأوزاعى - ثم مالكيين بعد أن حمل المذهب إليهم شفطون بن عبد الله ، أو الغازى ابن قيس والذى - حسب ابن القوطية - قد أدخل الموطأ إلى الأندلس فى عهد عبد الرحمن أو بفضل نفر من الفقهاء ، وقد تعددت الآراء حول هذا الموضوع والاجتهادات ، ومن ثَمَّ اختار هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) للوظائف الدينية فقهاءَ مالكيين ، فانتشر المذهب وكان له أثراً كبيراً فى التطور الفكرى والثقافى فى الأندلس .

ولقد عرفت بداية حكمه القلاقل والفتن ، سواء من داخل أسرته الحاكمة مع إخوته أو ما عُرِفَ بالحزب اليمنى . ولقد استطاع أن يتجاوز بحزمه هذه الفتن والقلاقل ، فضلاً عن نشره اللُّغة العربية فى مناحى مختلفة بما فى ذلك معاقل النصارى .

ويحاول البعض أن يتلمس الأعذار للفتن التى قام بها النصارى فى قرطبة وواقعة الخندق فى طليطلة وغيرهما على أنها انعكاسات لما اتصف به هذا المذهب المالكى من صرامة فى الالتزام ومقاومة البدعة ، ومهما يكن فإن ما حدث من تطور فكرى وثقافى خلال هذه الفترة التى حكم فيها هشام بن عبد الرحمن أو الحكم بن هشام من بعده المعروف بالربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م) لا يمكن أن يقارن بالفترة التى تلت بعد ذلك فى عصر عبد الرحمن الثانى أو الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) رغم ما شهده عصر هشام بن عبد الرحمن من تعبئة للفتوحات مثل حركات الطوائف التى اخترقت جبال الرينية .

أما عبد الرحمن الثانى - أو الأوسط - فقد كان أميراً بدوره محباً للشعر وإن كان قد وُصفَ بأنه لايتمتع بشخصية قوية ، فأشرك معه فى أمور الإمارة الفقيه يحيى بن يحيى ، وحتى طروب - وهى أحب نساءه إليه - وزرياب المغنى ، ويُذكر له أنه أسس مدينة « تورسيا » ، وأحدث دار السكة فى قرطبة ، وصك النقود باسمه ، وعُرِفت أيامه بأيام العروس ، كما أنه شيَّد الأساطيل البحرية لحماية الثغور من القراصنة . وقد كان زرياب يتمتع بشخصية متميزة تركت بصماتها على بلاط عبد الرحمن الذى اتجه به إلى ما كان عليه الحال فى المشرق من ترفه ورفاهية .

فقد استهوى زرياب أهل قرطبة بفنه وبما قدَّمه من نمط فى الملبس والسلوك ، بل حتى فى الولائم والمناسبات ، وبات مقلَّداً محاكياً ونموذجاً يُحتذى به فى المدينة ، وفُتِحَت قنوات الإبداع الأدبى بل والعلمى - فضلاً عن الفنى - فى قرطبة والأندلس لتنافس دمشق وبغداد .

وهكذا برزت أسماء شعراء أمثال يحيى بن الحكم بن الغزال ، وقد نعته ابن حيان بأنه حكيم الأندلس عارفها وشاعرها ، فضلاً عن قيامه بعمل السفارة للأمير عبد الرحمن سواء فى القسطنطنية أو لدى مَن كانوا يعرفون بالمجوس الفنكين السمالين ، وما رُوِىَ عن رحلته هذه كأحداث ووقائع وصف معمق لطباع « الفانكين » وتقاليدهم وعاداتهم . كذلك يُذكر من الشعراء فى بلاط عبد الرحمن الأوسط « تمام بن علقمة » صاحب الأرجوزة الطويلة التى نظمها حول افتتاح المسلمين للأندلس ، كذلك حسانة التميمية بنت الشاعر أبى الحسين ... وغيرها وغيرهم الكثير ، فضلاً عن مَن عُرِفَ من الفقهاء واشتُهِروا فى ذلك الوقت وجلهم مالكين أمثال « ابن المجاشـون » وأصبغ بن الفرج ، وعبد الملك بن حبيب .

وفى ذلك الحين كان عنصر المستعربين على وشك أن يتلاشى ويختفى فى العنصر العربى ، ولم يبق لنا منه إلا نماذج محدودة مثال « الأسقف بنجنسيس » ، ومع هذا لم تخل هذه الفترة من الصراعات الدينية المقنّعة والتيارات المدمرة التى تعمل فى الظلام ، خصوصاً عبر حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) حيث شهد عصره تيارات متعددة تجسد الخروج عليه وعدم الإذعان لسلطته سواء من رعاياه من النصارى أو حتى من المسلمين العرب والمولّدين أمثال بنى قسى سادة أرغوت ، وعبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وعمر بن حفصون .

وهذا الأخير تولى قيادة المستعربين فى جنوب الأندلس ، ورغم أن هذا الأمير « محمد بن عبد الرحمن » قد لجأ لشيخ قبائل العرب روؤسائهم كى يساندوه فى مواجهة الخارجين على سلطانه ، فما كان منهم إلا أن استغلوا ضعفه ومكنوا أنفسهم على حسابه فى نواحيهم ، وهكذا بزغت نزاعات بين هذه الطوائف من عرب الأندلس وعصر الإمارة القرطبية تذكرنا بما حدث فى بداية فتح الأندلس وعصر الولاة ، بل كاد هذا النزاع والتطاحن أن يقضى على إمارة قرطبة فيما بعد .

وهكذا أهلت هذه الفترة لإرهاصات عصر الطوائف أو الدويلات الصغيرة سواء مَن تولاها من المولّدين أو البربر أو العرب ، ولا يمكن تجاهل أيضاً الدور السلبى الذى كان يقوم به وزير هذا الأمير محمد - من سوء تعامل مع الرعية مما زاد فى اتساع حلقة العصيان .

وهذا ما يؤكد أهمية دورالحاشية فى تدعيم قيادة الأمة أو إضعافها ، ولم تقف الفتن والثورات عند حد ما كان يغلى فى داخل الإمارة فى مختلف نواحيها ، وإنما أضيف إليه هموم خارجية من المتطلعين لاقتناص الفرص وإعادة الكرّة بالمواجهة مع المسلمين ، فضلاً عن هجمات القراصنة الشماليين الفانكيين ممن عُرفوا آنذاك بالمجوس ، وكثيراً ما كانت لا تقف قرصنتهم عند حد المناطق الشمالية بل حتى الجنوب ، « الجزيرة الخضراء » التى أُحرِقَ مسجدها ، بل وحتى المغرب .

وكان هؤلاء القراصنة يواجهون بمقاومة صارمة من حصون السواحل ، فيردون على أعقابهم خاسرين ، أو مكررين المحاولة عندما تتاح لهم الفرص من جديد ، وهذا بدوره يذكرنا بما كان يحدث فى بعض المناسبات من إرسال السفراء لإيقاف هذه الهجمات ، وطرح التفاهم وتبادل الهدايا بدلاً من إراقة الدم والتخريب والتدمير .. كمجرد مثال : سفارة يحيى الغزال نحو الشمال .

هذا الجو الخانق والعامر بالفتن والمشبع بالهموم لم يمنع الأمير محمد بن عبد الرحمن من أن يعطى جانباً من اهتمامته للبناء والتشييد على مستوى الحصون والعمران ، بل وتهييىء الجيوش فيما يُعرف بالطوائف لاستكمال رسالة الإسلام فى صده إلى بقية الشعوب ، واقتدى به فى ذلك أيضاً ابنه المنذر ساعده الأيمن ، ولم يكتف بتعبئة هذه الجيوش ، بل كثيراً ما كان يتولى قيادتها ، ويُذكر أيضاً لهذه الفترة انتشار الفلسفة (ابن مسرة) ، كما يُذكر أيضاً ظهور عقليات متميزة كعباس بن فرناس العالم ، الفلكى ، الرياضى ، ولِمَ لا ؟ المخترع ، ومولد « ابن عبد ربه » صاحب العقد الفريد وشاعر البلاط الذى عمر حتى عصر الخلافة ، وتميزت أيضاً هذه الفترة بنوع من التفتح على الآخرين من أهل الذمة مما أثار بالضرورة جانباً من الساهرين على الالتزام بصرامة العقيدة وتحفظهم على استخدام النصارى فى بلاطة الإمارة وتولى المناصب ، وإن كان هذا ليس بغريب على الأمويين فى المشرق كما فى الأندلس ، وكانت تربط هذا الامير علاقات حسن الجوار ، ولِمَ لا ؟ الإخوة فى الدين مع المغرب (بين رستم وبنى مدرار) ، ومع أن عصر محمد بن عبد الرحمن شغل حيزاً لايُستهان به زمنياً ، إذا ما قيس بغيره من الأمراء ، خصوصاً مَن تولى بعده كابنه المنذر الذى لم يعمر طويلاً .

فقد حكم ما بين (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م) عامان من الفتن والمواجهات ، ولم يكن غريباً أن يموت هذا الأمير وهو يراقب الحصار الذى كان يقوم به ضد الخارجين على المشروعية والسُلطة من الثوار ومروجى الفتن ، وما أكثرهم آنذاك ، وعلى رأسهم ابن حفصون الذى وصل فى خروجه إلى تهديد العاصمة « قرطبة » ... وغيره وغيره الكثير ممن أعمتهم شخصنة وشهوة السلطة عن رسالتهم الأساسية وهى الالتحام تحت راية الإسلام .

وليس غريباً على هذا - ابن حفصون - الذى بعد هزيمته على يد الأمير عبد الله ابن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) عاد لينشق ويخرج من جديد حين علم بوفاة الأمير ، هذا الأمير الذى بالتقوى ولم تشغله الفتن والحروب من أن يهتم بالشعر والشعراء ، فقد كان هو شاعراً محباً لما هو جميل فيه ، كما اهتم بالفكر والعمران ، فهو البانى لمدينة « بجانة » ، وفى عصره لم يمارس الشعر فقط ، بل كان الإبداع فيه حيث أنشىء الزجل والموشحة مع « مقدم ابن معافى القبرى » الضرير (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) كما هو معروف .

ومن ثمَّ كان عصر الإمارة انتهى بنهايته ، ولكنه ترك لنا من العمران ومن الفنون والإبداع الفكرى ما يجعلنا الآن وبعد هذه القرون نحتفظ بذكرى ما جدد وأنشأ ، بقدر ما نستخلص العبر والدروس مما كان من خسران ، ونتمنى أن لايستمر طويلاً بنا عبر الدهر ، من مواكبة الفتن والمؤامرات والانشقاق على المشروعية والتعصب وكل ما هو مذموم ومنهى عنه بنص الشريعة بمعنى نص الإسلام .

وبالتالى فليس بغريب أنَّ هذا المنهى عنه حينما يُباشَر ويُطبَّق يجسد انتكاس الأمة التى تنكرت للمبادىء التى من أجلها ، ولها ، وبها قامت وأسست ، لم تنته الإمارة وإن كنا قد دخلنا فى مرحلة أخرى من مراحل الأندلس ، حلّت فيها الخلافة بدلاً من الإمارة ، وعرفت بدورها كما سنرى قلاعاً من المجد ممثلة فى إقلاعها مع عبد الرحمن الناصر كما سنرى ، عرفت أيضاً تعميق بؤر الضياع واستمرار مواكب الفتن المقنَّعة والتى تحبو لتطفو وتواكب الأندلس فى كل مسيرته ورحلته ، وهذا ما سوف نلاحظه فى الحلقات التالية ، وننتقل أولاً إلى الخلافة .

* * *

الحلقة الرابعة
.. والتحول إلى الخلافة

كيف تم التحول إلى الخلافة ؟ مع هذا الأميرعبد الرحمن الثالث الناصر الفتى ، والذى تصدر ليتولى مقاليد الحكم دون مَن هو أولى به منه ، فهناك أبناء الأمير عبد الله ، وما أكثرهم ، ولكن الحفيد الذى كان موضع رعاية له بل ومأثوراً من بين الآخرين ، وكأنه تنبأ بفراسته العربية الأصيلة ، ما لهذا الأمير من سماة تؤهله للحكم ، وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر ، وكما كان متميزاً واستثنائياً فى مآل الحكم إليه ، كذلك كان متميزاً باستمراره ، بل يُعتبر من أطول الملوك حكماً ، خمسين عاماً من المسؤولية ، بدأت فى (٣٠٠ هـ /٩١٢ م) ، وتحولت إلى خلافة عام ٩٢٩ م أى بعد سبعة عشر عاماً ميلادية .

هذا التحول وتلقيبه بأمير المؤمنين وناصر لدين الله ، يرى صاحب « الحلل الموشية » التى كثيراً ما تُنسب إلى « ابن سيماك العاملى » أن مرد التسمية وهذا الاختيار كان استجابة لسكان الأندلس ، فهم الذين طلبوا من الناصر أن يكون خليفة لهم ، وربما وجود خلافة على مقربة من الأندلس فى المغرب وخلافة فى المشرق ، جعلا هذا المطلب مطلباً طبيعياً يتمشى وواقع العصر آنذاك لقائد برهن خلال سبعة عشر عاماً على جدارته بالحكم وأن يكون خليفة للمسلمين فى هذه البقع .

لقد بدأ فى جو مشحون بمختلف المعيقات ، ما بين ثائرين مسيطرين على مناطق يمارسون فيها نفوذهم ، وظروف اقتصادية واجتماعية متأزمة ، ولكنه كان من الوعى الذى اقترب به من معاوية مؤسس الدولة الأموية الأولى فى المشرق وسياسة الشعرة التى لا تنقطع ، فقد كان عبد الرحمن الناصر بدوره يتوعد ويمنى ويحذر بين الشد والجذب ، بين المد والجزر ، واستطاع أن يؤمِّن لقرطبة سيادة

سُلطتها على مختلف المناطق ويُخضِع الخارجين لنفوذه إلا ما شَذَّ منهم مكلفاً له مشقات متعددة .

رنعني به ابن حفصون الذى كان موضعًا مثيراً للقلاقل فى العديد من العهود ، بل اتخذ كقاعدة له فى التعامل مع السُلطة الخروج عليها ، ولم يكن هذا بغريب على مولّد مهتز فى قناعاته الإيمانية ومرتد فى أعماقه ، فارتداده عن الإسلام محاولاً بذلك التقرب إلى النصارى لم يجديه فى شيء ، فالآكل على كل الموائد هو المحروم بذاته ، فلا مائدة له ولا انتماء إلى وفاته مقبوراً سنة (٣١٢ هـ / ٩٤١ م) تاركاً بعد وفاته أبناءً ثلاثاً ، استطاع الناصر كما استطاع مع غيرهم استئصال السُلطة منهم معيداً إلى الأندلس وحدته الأموية محاولاً الاتجاه به نحو قلاع المجد متجاوزاً لبؤر الضياع ، ليس فقط على المستوى الداخلى ، وإنما أيضاً فى علاقاته الخارجية .

فقد كان بحق مروِّضاً لمختلف النزعات والانتماءات فى إطار إيقاعى متجانس ما أمكن ، متدخلاً بمرونة واعية ليسوى الخصومات بين العديد من الصفات كالقشتاليين والليونيين والبريين ، حيث استطاع أن يستغل ما بينهم من صراعات ليصل إلى إضعافهم جميعاً ، ممكناً لسلطانه ، بما فى ذلك طبيعة المواجهة مع الشيعة ومطامحهم ، حيث نفذ عبر قنوات فقهية إلى معاقلهم بما فى ذلك مصر ، كمثال الفقيه المالكى المعروف بابن القرطبى وغيره . ممن أرسلهم لتفنيد المزاعم الباطنية بما فى ذلك دعاوى المهدى ، والإمام المنتظر ، باعتبار أن الإسلام يتميز بوضوحه وصراحته إيمانياً وعقائدياً ، حقوقاً وواجبات دون تغميض أو التباس – « فلا عصمة إلا لنبى » – ونبى الإسلام وخاتم الأنبياء هو محمد عليه السلام . قائد على هذا المستوى من الصرامة والتأهيل والممارسة والوعى ، لا بد وأن يؤمِّن هذه الطموحات المشروعة بدرع قوى ، يمثله جيش قادر على الدفاع والمواجهة ، برياً وبحرياً على حد سواء ، خصوصاً وأن المواجهة مع الفاطميين الشيعة اكتست بنوع من التداخل وكسب المواقع بين القبائل ، فطموحات الشيعة الفاطميين لم تتجه بهم فقط إلى المشرق ، بل كثيراً ما حاولوا أن يتجهوا بها إلى الأندلس ، مراقبين لما يجرى به من أحداث ، مثيرين للقلاقل .

وكذلك الناصر بدوره تبنى معهم ما هو شبيه مع الفارق وهو أن أرضية القلوب فى المغرب بالنسبة لتقبل التشيع الفاطمى ، توضع عليها علامات استفهام كبرى ، بينما فيما يعنى الناصر ، تكامل القلوب كان تلقائياً ، وهنا ينطبق المثل السائد بالنسبة لعديد من العشائر التى أعلنت ظاهرياً تقبلها للشيعة وكان لسان حالها يردد : « إن كانت سيوفنا معك فقلوبنا عليك » ، والعكس صحيح بالنسبة للناصر : إن كانت سيوفنا عليك ، فقلوبنا معك ، فضلاً على أن استقرارية السُلطة للفاطميين قضية فيها نظر ، فكانت الثورات تشتعل هنا وهناك فى تونس والجزائر وغيرهما من المناطق التى كان يسيطر عليها الفاطميين ، ومع هذا لا يمكن أن يُنكر ما شيِّد فى « قاهرة المعز » وعلى سبيل المثال لا الحصر : الأزهر .

فإن كان الناصر قد شيَّد ووحَّد وأمَّن استقرار السُلطة ، وفعل الكثير مما يُحسب له ، فبدوره كما حسبنا على الفاطميين المغالاة فى التبطين والمناداة بتقاليد لا تتمشى ووضوح وبساطة الإسلام ، خصوصاً لدى « الغُلاة » من فرق الشيعة من أصحاب الدروب المظلمة والعمل المستتر ، فيمكننا أيضاً أن نحسب على الناصر لا له ، رغم عصره المشرق ، هذه المغالاة أيْضاً بدورها فى المواجهة مع مَن يلتقى معه فى الدين إلى حد القطيعة وقلب الأحلاف وتحويل الأعداء إلى حلفاء والإخاء إلى عداء ، فكيف يمكن لناصر لدين الله وأمير المؤمنين أن يتحالف على حساب أبناء دينه ، دفاعاً عن سُلطته وتأمينها مع الشيطان ، ولو كان ممثلاً فى بيزنطة أو غيرها .

فإن كنا نتقبل معه توطيد علاقته مع الإخشيدين فى مصر ، ولكن نضع علامة استفهام كبرى باسم الحاضر فى الماضى ، والماضى فى الحاضر حينما يدفع الانفعال إلى حد خلط الأوراق وتعتيم المواقف ، ولو كان يؤدى هذا إلى التحالف مع الشيطان ، تعبير نجده اليوم حين يتردد بين أبناء الأسرة الواحدة ولا نعتقد أن أجدادنا تقبلوه بدورهم حين الوعى بحقيقة أبعاده ، بروح الرضا والانبهار ، فكثيراً ما تنهار الأمم حينما تفتح نوافذها بحثاً عن التهوية وتخفيفاً لثقل المعاناة ، فتحمل إليها هذه النوافذ سموم الاختناق والاندحار .

إن كنا نتقبل من هؤلاء أيضاً - كما نتقبل من المعاصرين - مرونة التعامل مع الآخر بتفهم وفهم وتفاهم بما فى ذلك تبادل السفارات والزيارات ، ولِمَ لا ؟ الهدايا ، ولكن شريطة أن تبقى المقاييس واضحة ، ولا تتجاوز حدود المجاملة وحسن الجوار ، أما حينما ترتقى إلى مستوى التحالف ، وربما التآمر المدمر والمقنّع ، فهذا أمر بغيض جَرّ وما زال يجر علينا الوبال ، لقد كان الناصر قائداً معطاءً فيما تبقى من إنجازات سواء فى ميدان الزراعة وتشجيعها ، والتجارة والصناعة ، بل والفنون والأدب ، وحتى العلوم .

فبحق إنه قائد متميز لعصر متميز ارتقى فيه بقرطبة العاصمة ليباهى بها بغداد ، تشييداً وعمراناً ، بما فى ذلك مساجدها ، وما جدَّد فيها على مستوى البناء ، كمثال « مدينة الزهراء » التى شغلت حيزاً من اهتماماته ، بل ومن ماله ، مما أهَّلَ بعض الأصوات لتتصدى (سعيد البلوطى نأخذه كمثال) حين نقده لهذا البذخ وهذه المغالاة . ولقد كان طبيعياً أن يناغم هذا التطور العمرانى ، تطوراً فى إشراق الفكر وعطائه ، فازدهر هذا العصر بعقول متميِّزة ، مبدعين كشعراء ونُحاة ومؤرخين ، ورياضيين وفقهاء ، وفلاسفة ... إلى غير ذلك من دروب المعرفة والثقافة .

فهذا ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ / ٨٦٠ - ٩٤٠ م) الذى له المؤلَّف المعروف بـ « العقد الفريد » ، وهو منجم فكرى ، لا يمكن إنكار طابعه المتميِّز متأثراً فيه بالمشرق ، فى شكل موسوعى جمع فأوعى ، فى مختلف مناحى المعرفة الممارسة آنذاك ، وهذا ابن هانىء المتوفى فى (٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م) ، وبدوره غنى عن كل تعريف ... وغيره وغيره من الشعراء ، يفخر الأندلس بهم كوجوه مشرقة خلَّدت ذكراه عبر العصور ، ولنا إلى ذلك عودة فى حلقة أخرى حين التعريف بقلاع المجد ، كذلك عرف الأندلس شعراء كتبوا فى النحو والتاريخ ، كما عرف نحاتاً ومؤرخين قرضوا الشعر ، نذكر « الزبيدى » ، ومؤرخين من طبقة الرازى .

وهناك مَن مارسوا الرياضيات والطب واجتهدوا فيه وإن كان دور الفقهاء والمحدِّثين ظل كما كان متصدراً ، نخص كمثال إلى جانب البلوطي المشار إليه سلفاً (وهو يُذكر لدى البعض على أنه يجسد الإرهاصات الأولى للمذهب الظاهرى ممهداً الطريق لابن حزم) محمد بن واضع ، وابن أيمن ، وقاسم بن أصبغ وغيرهم الكثير ، مما يؤكد لنا الحضور الفكرى المتنوع والذى فتح الباب إلى جانب الفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والرياضيين والأطباء لأمثال « ابن مسرة » المتوفى سنة (٣١٨ هـ / ٩٣١ م) وهو شخصية تطرح العديد من التساؤلات وتشكل موضعاً للمناقشة ، ولِمَ لا ؟ التحليل والنقد فى عصره كما فى عصرنا .

تتلمذ على مفكرين فى الأندلس والمشرق ، وتعامل مع التيَّارات الفكرية فى مختلف دروب العقلنة ، بل اتجه به المستشرق « أنخيل جونثالث بالنثيا » فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » إلى أنه أذاع بين مسلمى أسبانيا آراء امباذقليس ، ويرى البعض أنه ليس « امباذ قليس » الحقيقى ، وإنما « امباذ قليس » مزيف ، وكانت أفكاره خليطاً من الغنوصية التى قالت بها الأفلاطونية الحديثة . وانتشرت أفكاره آنذاك حتى بعد وفاته وأثارت ردود فعل مختلفة ، ينقل البعض أنها وصلت إلى حد محاربتها من فوق منابر المساجد والدعوة إلى الابتعاد عنها ، ومع هذا بقى ابن مسرة موضعاً للتساؤل وإسهاماً يطرح أكثر من استفهام سواء فى نشأته أو انتمائه الفكرى وغايته .

ولايمكن عزل ابن مسرة عن البيئة التى ترعرع فى أحضانها ، فقد كانت بيئة تشجيع وانفتاح واستيعاب للمعارف والفنون ، فهذا الناصر نفسه بمكتبته العامرة بكتب من العراق والشام وأوروبا ومصر ، دليلاً متميزاً وواضحاً يؤكد المستوى المتصدر الذى بلغته حضارة الأندلس فى عصره ، حيث تعايش الالتزام ممثلاً فى الأصوليين فقهاء ، ومحدِّثين ، مع الأدباء والمبدعين فى الفنون والمجتهدين فى فكر الإنسان وعلومه ، بما فى ذلك يهود الأندلس وقد كانوا يجالسون الخليفة نفسه .

وقد سمحت هذه الروح المرنة وهذا التسامح السخى ببداية الدراسات التلمودية فى أسبانيا، وإقلاع المساهمة اليهودية على حسب طريقتها وغايتها فى حضارة الأندلس ، ونقل روائعها فى مراحل تالية إلى اللاتينية والعبرية ، وهذه قضية إن كانت تُسجِّل لحضارة الإسلام بمداد من فخر ، لما كانت تتحلى به من تسامح وإنسانية ، فهى تسجل أيضاً بدورها مدى إسهام هذه الحضارة الأندلسية فى إرهاصات النهضة الأوروبية الحديثة عبر قنواتها اللاتينية .

لقد كانت وقفتنا فى هذه الحلقة التى خصصناها للناصر وما حوله ، متجانسة مع ما غطاه عصره كماً وكيفاً من عطاء وإشراق وتأسيس واستقرار ، إلى حد أنه وُصِفَ على أنه يجسد عصراً من العصور الذهبية فى حضارة الإسلام ، واستمر موكب الخلافة ، فلن يتوقف الزمن ولكنه قد يتحوَّل إلى زمن سابق لزمانه ، أو إلى زمن متراجع عن زمانه ، فماذا عن زمن الخلافة بعد هذا الناصر ؟ هذا ما سنتناول عرضه والتعرض له فى الحلقة التالية .

* * *

الحلقة الخامسة

نهاية الخلافة من خلال الفتن والمؤمرات

الخلافة بين المد والجزر ، تحاول أن تنتصر مع المنتصر (٣٥٠ -٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) فى كل الجبهات متواجهة مع الأخطار التى حاقت بها من مختلف الجنبات ، فالشيعة الفاطميين من ناحية ، والنورمانديين بقراصنتهم براً وبحراً من ناحية أخرى ، فضلاً عن التقنصات المدمرة والمقنّعة التى تنتظر الساعة الملائمة لكى تنقض وتستعيد مواقعها ممثلة فى أسبانيا المسيحية المترقبة لاستغلال أى ضعف أو انفجار ، أو أى فتنة لكى تنقض ، هجمات تلو هجمات وفى كل مرة كان المنتصر منتصراً .

ولم يوقفه هذا الخطر الجاسم والمستمر على حدوده من اهتمامه بخلافته فى مختلف المستويات ، أنشأ المدارس للفقراء وعمّر المكاتب فى داخل القصر بمختلف كنوز الفكر ، دون أن يتوقف عند فن معين ، مما جعل مكتبة قصره تحتاج إلى فهارس ذكر مَن أرّخوا لهذه الفترة . أنها وصلت إلى أربعة وأربعين كراسة ، كان يتتبع ثمرات الفكر فى كل مكان كى يستعيد كنوزها لتكون إلى جانبه فى قصره ، يستلهم منها قارئاً وليس فقط حافظاً وحارساً لها .

وقد شجّع من ناحية أخرى التيّارات الفكرية من مدرسة مسلمة المجريطى نسبة إلى مدريد على حد قول المستشرق « أ . ج بالنثيا » هو الذى أدخل « رسائل إخوان الصفا » إلى الأندلس . كما أن فى فترته كان هذا الطبيب الجراح أبو القاسم الزهرواى (٣٢٤ - ٤٠٣ هـ / ٩٣٦ - ١٠١٣ م) الذى يُعتبر حسب مَن اهتموا من الباحثين فى هذه الفترة من أعظم أطباء ذلك العصر ، بل كانت له أصداء عند اللاتينين إذ عرف باسم « أبو لكاسيس » ، وقد كان بارعاً فى الجراحة ، فضلاً عن تأليفه لموسوعة ترجمت إلى اللاتينية

وتحمل عنوان « التعريف لمن عجز عن التأليف » ، ولنا عودة فى حوارنا إليه مع قلاع المجد من المفكرين فى حلقات تالية.

ونذكر أيضاً سعيد بن عبد ربه ، وابن جلجل فى دراسة النبات ، ويُذكر لهذا الخليفة المنتصر أن مجلسه كان يجمع بين مختلف التيّارات فقهاء ، وفلاسفة ، بل نلاحظ بين الجالسين « عبد الله بن أبى ذيلم ، يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثى » ، وابن القوطية الذى كان لغوياً ومؤرخاً ، ومن الفقهاء الظاهرين نذكر منذر بن سعد البلوطى ، الذى كان يميل بعد دراسته فى المشرق إلى مذهب داود ابن خلف الظاهرى ، بل نلاحظ أيضاً فى عصر المنتصر رد اعتبار ضمنى لمدرسة ابن مسرة حيث استعادت أنفاسها لتنتشر ، ومن بين مَن جسدوها محمد بن مفرج المعافرى ، وعمت حرية الفكر وإشراقه ليعطى متنفساً حتى لغير المسلمين من سكان الأندلس مسيحيين ويهود ، وقد استعادوا عبر هذه التهوية مخرجاً لتعود الدارسات التلمودية لهذا اليهودى الحائر الذى وضع له وخطّط ، كما سنرى ابن ميمون الأندلسى الدليل الذى يحمل عنوان : « دلالة الحائرين » أو « دليل الحيران » ، وكان من بين المؤسسين للمدرسة التلمودية بقرطبة أبو يوسف حسداى بن إسحاق بن عزرا بن شربوط (٣٣٣ - ٣٥٩ هـ / ٩٤٥ - ٩٧٠ م) الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر مما قدَّم من العون لموسى بن حانوك ومدرسته .

مع المنتصر إذن ، لم تنتصر الخلافة فقط فى صد أعدائها المترقبين وعلى مختلف الحدود ، وإنما انتصر الفكر والعلم فى هذا العصر ، الذى لم يضع له نهاية إلا الشلل الذى أفقد المنتصر قُدراته وحولّه إلى قعيد موصياً لطفل بخلافة حافلة بالمواجهات ، بل وغنية بالمتطلعين للوثوب عليها ، ليس فقط من خارج أرضها ، وإنما من داخل أحشائها ، فها هو الوزير جعفر بن عثمان المصحفى بعد وفاة المنتصر (٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) يتصدر ، ولكن لفترة محدودة فى تولى أمور الخلافة لخليفة لم يتجاوز الأعوام العشرة من عمره ، ولكنه استمر أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً يغطى فترة حافلة بالمؤامرات وبالمد والجَزر ، وبالمتطلعين إلى

السُلطة والحكم ، بل والمنقضين على هذه السُلطة ومن البداية مستغلين الانشقاق والاختلاف فى مَن يتولى السُلطة فعلياً : الجند أم الحاجب والحاشية ، ثم ما كان فى عصر هذا الخليفة الطفل هشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م) من وثوب المغيرة بن عبد الرحمن الناصر المفضل من طبقة الجند لتولى الخلافة لأن جعفر المصحفى لم يقر ذلك ، وعهد إلى ابن أبى عامر بقتله ، فقتله خنقاً ، ولكنه لم يعمر طويلاً حتى تم التآمر عليه ، وأصبح بذلك مركز القوة فى الخلافة ، مستعيناً برجال اصطفاهم من زناتة إلى جانب الصقالبة والموُلدين ، واستعاد فى ذاته الرغبة ليتصدى ليس فقط للخصم فى الداخل ، وإنما ينازل الخصوم فى الخارج مستولياً على برشلونة وغيرها ، مشيداً لـ « الزاهرة » فى شرق قرطبة ، وفيها خزائن الأموال ، بل لم يقف بطموحه عند هذا الحد فسمح لنفسه أن يلقب بـ « كالحاجب المنصور » بعد أن نكب المصحفى وانتهى مجسداً للسلطة قلباً وقالباً فى صدر الخلافة ، ذاهباً إلى حد أن تكون المراسلات باسمه ، بل ويُدعَى له من فوق المنابر كحاجب منصور.

فى هذا الوقت كان الخليفة الرمزى فى الواقع هشام بن الحكم سجيناً لملذاته فى قصره ، وحبيساً لنصائح أُمه « صبح » التى بدأت بدورها تتابع الأحداث مشاركة ، جامعة حولها مَن يؤمِّن لها الحد من هذا « المنصور » صاحب الطموحات بلا حدرد ، فتآمرت عليه مستغلة ما له من عداوات لمحاولة اغتياله رغم ماكان يربطه بها من توادد قبل ذلك ، مما حدا به أن يعلن الطاعة للخليفة ، وتوفى ليترك أمر الحجابة من بعده لأبنائه ، وانتهت الفترة بالخلع والقتل ، خُلِعَ هشام وقُتِلَ مَن قُتِل من الحجاب بفضل مَن كانوا يكنون الولاء للأمويين .

ومع خلع هشام بدأت إرهاصات الخلع للخلافة ، إذ دخلت فى مرحلة من الاهتزاز بدأت بتولى الخلافة من قِبَلِ محمد بن هشام بن عبد الجبار الذى تلقب منذ ذلك الحين بالمهدى (٣٩٩ هـ /١٠٠٨ م) لتعرف خلال ثلاثة وعشرين عاماً

مسلسلاً من تداول الخلافة ، وقد تجاوزوا فى عددهم ما عرفته الخلافة فى فترة سابقة تقارب المائة عام ، توالى الخلفاء ، هذا يُنصب وهذا يُخلع ، ولكن الحياة الفكرية لم تتوقف ، وإنما انعكست عليها الأحداث والصراعات ، فهذا المنصور الذى كان يُجسِّد القوة فى الخلافة إبَّان هشام بن الحكم ، بقدر ما كان فى أعماقه يميل إلى الفلسفة ، لكنه خشى من ردود فعل الفقهاء فتم الإحراق لكتب الفلسفة والفلك ، لعله بذلك يؤمِّن لنفسه الرضا والمساندة ، هذا بالإضافة إلى أن الشعر كان عزيزاً على الأندلس بدوره ، لم يتوقف موكبه خصوصاً الشعر الغنائى ، بل وُضِعَت له جوائز ، وكمجرد مثال نذكر « صاعد البغدادى » الذى كان إلى جانب شعره لغوياً ومؤرخاً ، وكذلك « الرمادى » ...

الخلافة تتأرجح ، ولكن الحياة فى قرطبة وفى بقية ديار الأندلس لم تتأرجح وإن كانت تعانى من ردود فعل هذه الخلافات والصراعات بين جند صقالبة ، وأندلسيين ، وعشائر وقبائل أخرى نزحت من المغرب ، ولقد سمح هذا الجو الضبابى للمتسللين من النصارى أن يتدافعوا لمناصرة هذا على ذاك ، مكتسبين فى الواقع للأرض على حساب الشقاق والفُرقة ، فكانت المقايضات بين الحصون ومكر المساندة ودهاء الكيد ، وغاصت الخلافة فى احتضارها ، وبدأت التطلعات لاقتناص المواقع لتخلع ضمنياً قبل أن تعلن صراحة نهايتها ، فهؤلاء بنو حمود بمالقة يستولون على قرطبة وقبل سقوط الخلافة ، وبنى عباد على إشبيلية .

جسد الخلافة يتمزق قبل أن تخرج أنفاسها الأخيرة ، لقد انتهت الخلافة عملياً قبل أن يعلن الوزير أبو الحزم بن جهور صراحة نهايتها لعدم وجود مَن يستحقها ، وكما هو عهدنا فى العديد من فترات التاريخ النقدية لأمتنا ، لم يحتضر الفكر باحتضار السلطة ، ويكفينا كمثال أن هذه الفترة هى بذاتها التى أفرزت لنا فيما بين (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) ابن حزم ، هذا المُعَمَّر الذى عاصر قرطبة الفتنة وبداية الانهيار ، فترة تاريخية حرجة عامرة بالدسائس والصراع السياسى .

وقد انعكست الأحداث على ابن حزم في مواقفه الفكرية وتصوراته ، وسنعود إلى ذلك في حلقات تالية معرفين بقادة الفكر أمثال « الزهراوى » الطبيب ، و « ابن حزم الظاهرى » ، وغيرهما . ولهذا لا يمكن إغفال الجانب الفكرى حين مرورنا عبر فترة الانهيار للخلافة مشيرين إلى ابن حزم وأمثاله ، فهو الذى أثرى أصول الفقه بين التقليد والاجتهاد بما فى ذلك أصول الأحكام ، والقياس الفقهى إلى القياس الأرسطى ، كما أثرى النقاش بين الدين والفلسفة ونقده لأشكال علم الكلام .

وهذا إن دَلَّ على شيء ، فإنما يدل على ما للعقل العربى المسلم من قُدرة كامنة تتحرك حتى فى أجواء الضباب والعتمة ، مؤثرة ومتأثرة ، تتعامل مع المعاناة وتترجمها دون أن تنكسر بانكسار السُلطة أو تأفل بأفولها ، ولعل ما قاله صاحب « كتاب أعمال الأعلام فى مَن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » الملقب بذى الوزارتين « لسان الدين بن الخطيب السلمانى » - (ص ١٣٩) أبلغ دليل على أن هذا الجسد العربى المسلم وهو ينزف ويئن بالجراح قادر على العطاء ، يقول لسان الدين ابن الخطيب :

« ... ومشى البريد فى الأسواق والأرباد ، بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بنى أمية ، ولا يكنفهم أحد ، وكان القائم بإخراجهم ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم ابا الحزم بن جهور .... وانتهى أمر بنى مروان لهذا الحد ومحا الرسم الجماعة ، وتقسم البلاد والأقطار رؤساء الطوائف ، قد استحاز كلاً منه استبداده بنفسه ورضى بذلك مَن بقواعدهم من المسلمين على وفور الفضلاء وتعدد العلماء وانفساح الأقطار وتزاحم الأعشار ، والأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .... » .

وهكذا اتسع وباء الطوائف وانتشر ليعم ما تبقى من الأندلس ، وسوف نُفرد الحلقة التالية لهذه الدويلات الطائفية حتى نصل إلى غرناطة الحبيسة وغروب شمسنا الأندلسية .

فماذا عن الطوائف وما آل إليه الأمر معهم من ضياع الفردوس الذى أصبح يوصف بالمفقود ؟

* * *

الحلقة السادسة

دويلات الطوائف فى عصر الفرق
منذ بداية التمزيق والتطاحن مروراً بالإنقاذ المرابطى والموحدى .. حتى الاحتضار حول غرناطة الحبيسة

وبدأت رحلة الضياع مع « عصر الفرق » كما أسماه « ابن الكردبوس » ووصفه لابن الشباط الذى يحمل هذا العنوان عن تاريخ الأندلس (مدريد ١٩٧١ - ص ٧٨) ، وعبرنا القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) لنشاهد قياماً وسقوطاً هنا وهناك وفى كل مكان ، دويلات تظهر لتختفى ، وأخرى تتسع لتختنق ، وتمتد لتتقلص ، منها ما كانت تحت إمارة مَن تدامجوا وعُرفوا كأندلسيين ، ومنها ما كانت تحت إمارة قبائل نازحة من المغرب صنهاجيين وأدارسة وغيرهم ، ومنها ما كانت تحت إمرة ما عُرِفَ بكبار الصقالبة ....

وهكذا عمرت الساحة الأندلسية بهؤلاء وهؤلاء ، منذ نظام الجماعة مع أبى الحزم بن جهور فور سقوط الخلافة بقرطبة ، وبنى عباد بإشبيلية ، وقد استولوا بعد ذلك على العديد من الدويلات مثل مدينة نبلة من بنى يحيى ، وباجة وشلب من بنى مرين ، ولبة وجزيرة شلطيش من بنى البكرى ، كما آلت إليهم شنتمرية الغرب من بنى هارون ، وقرمونة من بنى برزال ، ومرور من بنى دمر ، واركش من بنى خزرون ، ورندة من بنى يفرن ، فى الوقت الذى نشاهد بنى الأفطس فى بطليوس ، وبنى مناد فى غرناطة ، وخيران العامرى ومَن تلاه فى مملكة المرية ومملكة مرسية ، ومجاهد العامرى ومَن تلاه فى مملكة دانية والجزائر ، والفتيان مظفر ومبارك ومَن تلاهما فى مملكة بلنسية حتى سقوطها فى

يد بنى ذنون ، وهذيل بن عبد الملك بن رزين ومَن تلاه فى إمارة سنتمرية الشرق ، وعبد اللّه بن قاسم ومَن تلاه فى إمارة البونت ، والمنذر بن يحيى التجيبى ومَن تلاه حتى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وبداية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بمملكة سرقوسطة ....

وهبَّت من الجنوب رياح المرابطين لإنقاذ الأندلس مبشرة بإيقاف مرور سحب التمزيق وضباب الفَرقة وعتمة التطاحن ، محاولة إعطاء الفرصة لمن أضلته أنانيته وأفقه الضيق أعمى بصيرته عن رؤية العدو الرابض على حدوده ، والجاسم فوق أكوام من الحقد ومرارة الهزيمة ، فى انتظار قفزة التآمر وتصفية الحسابات فى ساحة الأندلس .

فاشتعلت شرارة المواجهة فى سماء طليطلة ، وكان النفير للمرابطين ، وتحرك أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بخطواته العملاقة التى لم تكتف بتوحيد راية الإسلام فى سماء المغرب الممتد من شواطئه غرباً وشمالاً حتى تونس شرقاً والسودان جنوباً ، وإنما زحفت لإنقاذ الأندلس . هذا الحميرى الصنهاجى المولود فى عام ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) وإن كنا نجهل الكثير عن مراحل طفولته وسنواته حتى عام ٤٤٨ هـ ، فإننا نعرف أن الأمير أبو بكر اللمتونى ندبه ليكون قائداً لجيش المرابطين وهو فى الثامنة والأربعين من عمره ، ويستحق منا وقفة تقدير لنتابع خطواته زاحفاً لاستعادة أنفاس الأندلس .

هذا الوَرِعُ فى إيمانه ، البسيط فى حياته ، المتواضع فى سلوكه ، المتقشف فى لباسه ، لقد كان يرتدى الصوف طوال حياته ، آكلاً الشعير وألبان الإبل ، أعطى لنا صوراً لا تنمحى على مر العصور لما قدَّمه من بسالة وإخلاص وتفانى فى أداء الواجب ، إنه بطل واقعة الزلاقة الأمير الذى أصبح أميراً للمسلمين منذ سنة ٤٦٦ هـ ، بل وموحِّداً لراية الإسلام فى كل مكان بعد عرفان الخلافة العباسية وتقليدها الولاية له ، وسوف نكتفى من صفحاته الناصعة بسيرته الأندلسية فى هذا العرض المخصص لمحاولات الإنقاذ من الضياع وإيقاف مواكب التفكك والانهيار.

وأقلع أجيج الإنقاذ وارتفاع صيحاته عقب استيلاء ألفرنسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ومَملكة بنى ذى النون سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، بل هناك مَن يتجه من المؤرخين إلى أن وفود المستغيثين ببلاط مَراكش بدأت تتوالى منذ سنة ٤٧٤ هـ ، طالبين النجدة ، ويؤيد ابن خلدون هذا الاتجاه ولكن يرده من خلال المعتمد بن عباد الذى التمس منه إنجاز وعده بنجدة الأندلس . فأجابه ابن تاشفين بأنه إذا فتح الله عليه سبتة ، فإنه سوف يتصل بهم ، وقد كان لما قام به ألفونسو فى أراضى إشبيلية واختراقها بقواته حتى وصل إلى طريف وخاض الماء بفرسه قائلاً : « هذا آخر الأندلس قد وطأته » ، واستولى على طليطلة وعلت صيحات الاستغاثة من الأندلس الجريح ، فزحف جيش المرابطين على سبتة واستولى عليها فى سنة ٤٧٧ هـ ، ومنها إلى الشمال إلى الأندلس حسب أقوال ابن أبى زرع (فى روض القرطاس ص ٩٢ -٩٣) .

وعليه .. فسواء كان سقوط طليطلة هو المحدد للإنذار بإقلاع مواكب الضياع ، أو ما تنبأ به المعتمد بن عباد قبل ذلك بأعوام وتوجسه من نوايا ألفونسو وإرهاقه له بطلب الجزية ، واجتياحه لمملكته وتخريبه لمدنها ومروجها ، واكتشافه لفداحة خطأه حينما خضع لملك قشتالة ومحالفته له ، وما فى ذلك من خديعة آلت فى النهاية إلى تمكين عدوه من أرضه .... فقد توالت الوفود على بلاط ابن تاشفين ترجوه الغوث والإنجاد وقد استجاب ، وكان داود بن عائشة فى طلائع الفرسان المرابطين إلى العبور كما عبر طارق بن زياد من قبل ، وتوالت موجات العبور فى سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيو ١٠٨٦ م) .

كان عبور البطل رافعاً يديه بالدعاء قائلاً : « اللّهم إن كنتَ تعلم أنَّ فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين فسهِّل علينا جواز البحر ، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه » ، فعبرت السفن تحت ريح طيبة وبحر هادىء (كما ورد فى روض القرطاس السالف الذكر ص ٩٣) ، وكان اللقاء فى موقعة الزلاقة وتم النصر ليستعيد الإسلام رفع رايته على ما تبقى فى ديار الأندلس ، ولكن إلى حين . حيث ظلت المواجهات بين كَرّ وفَرّ ، جيوش المرابطين تسعى لمد سيطرتها

على ما تبقى من الأندلس بينما يتحصن النصارى ويستغيث بعضهم ببعض وبخاصة بملك قشتالة لإنقاذ حصونهم ، ثم ما كان من انسحاب يوسف بن تاشفين من محاصرته الحصون وعودته إلى المغرب ليعود مرة ثالثة إلى الأندلس مع النية فى إستكمال الاستيلاء عليه ، خصوصاً بعد أن برزت التحالفات المضمرة بين بعض ملوك الطوائف وملك قشتالة ، وما كان من فتاوى الفقهاء فى هذا الشأن ، وسار ابن تاشفين إلى طليطلة ليرتد عنها متجهاً إلى غرناطة ليحاصرها ثم يجتاحها كما يجتاح المرابطون مالقة ، ثم يتجه ابن تاشفين إلى إشبيلية ليفتتحها متخذاً من فتاوى الفقهاء ضد المعتمد وعلاقته بملك قشتالة ، مبرراً لذلك .

واستمرت جيوش المرابطين تزحف فى بقاع الأندلس مستولية على قواعدها من رندة وجيان وقرطبة وابدة وبياسة وقرمونة ، وكم كان محزناً أن يصل حد التحالف مع العدو القشتالى إلى مستوى الاستغاثة به من قِبَلِ المعتمد قبل سقوط إشبيلية فى يد المرابطين وتوابعها التى كان يديرها ولديه ، ولقد لقى المعتمد جزاء مواقفه من المحن فى المعتقل ما لقى ، وقد ترك لنا من الأشعار ما يصف هذه الفترة الرهيبة من حياته حتى وفاته . ولقد حاول البعض أن يُلقى بعمق المحنة كنتيجة لقسوة أمير المسلمين ، ومع هذا فلا يمكن أن يساوى بين مَن يرفع راية الاستعادة ويحققها ، وبين مَن يحتمى فى أرضية التحالفات المقنّعة مع الأعداء إنقاذاً لمجد زائف ، وقبل أن يرحل ابن تاشفين أكمل ما لديه من طموحات بجيوشه المرابطية فى استكمال راية التوحيد - ولو نسبياً - لأرض الأندلس قبل أن تتحول إلى فردوس مفقود .

وهكذا نرى أن تداخل ملوك الطوائف عبر علاقاتهم المقنّعة مع ملوك النصارى لعب دوراً تأهيلياً لمعاودة هؤلاء الملوك أكثره لاغتصاب الأرض من يد المسلمين ، رغم ما كان بين الملوك النصارى من صراعات داخلية وتنافس على السُلطة وميراثها ، وتطلع النصارى إلى سرقسطة محاصرين لها رغم استغاثة أميرها بالمرابطين ، ولكن فى النهاية سلّمت المدينة وتحوّلت إلى نصرانية ، وفتحت شهية المتربصين بالإسلام فى الأندلس ، فاستولى ألفونسو المحارب على قرمونة وقلعة

أيوب رغم اهتمام علىّ بن يوسف بن تاشفين بهذه الأحداث وتسيير جيوشه المرابطية لمواجهة الأراجونيين ، وانتهت هذه المواجهة بهزيمة المسلمين فى موقعة « كتندة » - أو « قتندة » - وتوالى سقوط القلاع وضياعها من أيادى المسلمين ، واشتعلت شرارة الثأر فى نفوس بعض نصارى الأندلس وبدأوا يتصلون بألفونسو المحارب ويحرضونه على غزو الأندلس ، ولقد تأهب المرابطون لرد النصارى ولاحقوا جيوش ألفونسو نحو الشمال ونشبت بينهم المعارك ، واستمرت المناوشات شمالاً وجنوباً ، فى الوقت الذى تزايد فيه خطر العدو وتطلعاته ، وكانت المواجهة بين الجيوش المرابطية بقيادة ابن غانية فى معركة حاسمة تحت أسوار افراغة انتهت بالهزيمة الساحقة للنصارى وبوفاة ألفونسو المحارب ، ومع هذا لم تتوقف القنوات المقنَّعة المشخصنة لأهواء السُلطة وهوايتها من أن تقود البعض كمثال عماد الدولة بن هود فى سرقسطة إلى احتمائه بملك قشتالة فى مقابل نزوله له بقاعدة روطة .

ولم تقف طموحات المرابطين أو تتأثر بهذه القنوات الهروبية المتنكرة للذات ، فخرج تاشفين بن علىّ لغزو قشتالة فى الوقت الذى يغزو فيه القشتاليون أراضى قرطبة ، ودام الكَرُّ والفَرُّ ، والتقى تاشفين وقواته بالنصارى قرب بطليوس ، وهُزِمَ القشتاليون ليعاودوا الكَرَّة فى موقعة البقر . ولم تتوقف المواجهات ، فهذا المرابطى يتدافع ، وذاك القشتالى يتقدم ويتأخر ، ومايترتب على ذلك من تغيير فى المواقع ، بل وقاعدة الحكم التى أصبحت فى قرطبة للمرابطين بدل غرناطة .

وعاش الأندلس يعانى من تفكك وتشتت قواه الداخلية ، وتصيد الخصم لفترات ضعفه ليستعيد مواقع ثم يتخلى عنها ، تحت ضغط راية المواجهة والتكامل الذى كان يرمز إليه التداخل المرابطى فى الأندلس ، ولكن الأندلس بالنسبة للمرابطين وما يجرى فيه جانب من كيان أشمل وهو كيان الدولة المرابطية ، وما كان يحدث فيها بين الفينة والأخرى من صراعات داخلية أضعفت هذا الكيان العملاق وأهلته للتآكل والتأهيل للافتراس والنهاية ، وقد كانت مسيرة ابن تومرت وخطواته ، وبثه لدعوته ، وتبشيره بنظرية المهدى وإعلانه لإمامته

وأنه هو هذا المهدى ، ومبايعة أصحابه له بهذه الصفة كمهدى وإمام معصوم ، مما يزكى ما اتجه إليه المؤرخون من أن ابن تومرت لم يكن مجرد داعية ، وإنما صاحب مشروع يعمل له بتؤدة ووعى ، وكان الصراع بين المرابطين والإرهاصات الأولى للموحدين تحت انبعاثات ابن تومرت .

وتوالت هزائم المرابطين ، فقوى شأن المهدى ابن تومرت وتضاعف التشيع له ، وزحف الموحدون إلى مراكش ، وتميَّز فى القيادة محمد البشير وعبد المؤمن ، واستعد ابن يوسف المرابطى للدفاع ، والتقى الجمعان تحت أسوار مراكش ، وكانت هزيمة المرابطين وحصار الموحدين لمراكش ، ولكن استعاد المرابطون قواهم وتواجهوا فى بقعة البحيرة ، فهُزِمَ الموحدون وقُتِلَ قائدهم البشير ، وانسحب عبد المؤمن ، ومرض المهدى بن تومرت ، وتوفى ، واختلف المؤرخون فى تقنينه بين متحفظ عليه ومدافع عنه (ابن خلدون) ، وتنفس المرابطون الصعداء ولكن إلى حين . فكانت المرحلة الثانية من الصراع بين المرابطين والموحدين وانعكسات هذا الصراع على الأندلس بين مبق على عهده للمرابطين ، وبين متطلع للموحدين فى الأندلس ، واستعاد عبد المؤمن قُدرة المبادرة .

وتوالت هزائم المرابطين وارتدادهم إلى العديد من المواقع ، ووفاة أمير المسلمين علىّ بن يوسف بن تاشفين بعد أن وصلت فى عهده الدولة المرابطية إلى ذروتها لتبدأ فى التراجع والانشقاق لحساب الموحدين ، ثم لتنتهى بمصرع ابن تاشفين وفتك الموحدين بالمرابطين وبأحلافهم ، وتوالى الزحف الموحدى فى اتجاهات متعددة ، ثم عبور عبد المؤمن إلى الأندلس لكى يتفاعل مع أحداثها ويخفف من وطأة التحالفات المقنَّعة التى تمت بين ابن غانية وقشتالة ، واستنجاد بعض ملوك الطوائف بالموحدين للتخلص من المرابطين أو مَن كان تحت ولائهم ورايتهم ، ولقد لجأ البعض منهم وهو فى لحظات احتضار إلى الاستعانة بالمرتزقة النصارى ، ومع هذا استمر موكب الزحف مع عبد المؤمن ليجتاح إشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية ، وبسط نفوذه تدريجياً فى الأندلس ، وتعامله حربياً مع النصارى بين الكرِّ والفرِّ ، كما كان الشأن فى عصر المرابطين .

واسترد الموحدون غرناطة محصنين لها ، ونقلوا قاعدة الحكم إلى قرطبة بعد إصلاحها ، وحمل عبد المؤمن راية الجهاد فى الأندلس جاعلاً من رباط الفتح معقلاً لتمركز الجيوش الموحدية ، ولكن سرعان ما مرض عبد المؤمن وتوفى بعد عقد البيعة لابنه يوسف ، وكانت الدولة الموحدية الكبرى التى تميَّزت بحق بدقة نظام جيوشها ، ونظم الحكم والإدارة ، والاحتفاء بالعلم وتصدر العلماء ، والتزام عبد المؤمن الموحدى قبل وفاته بالأصول ، بل والتشدد فى معاملة النصارى واليهود إلى حد القسوة .

ونعود إلى ما يعنينا تاركين التفاصيل التاريخية الخاصة بالحكم المرابطى والموحدى لمن يهمه الأمر من الباحثين على مستوى التخصص ، مركزين على الأندلس بين تدافعه وتراجعه فى عصر الموحدين كما كان الشأن فى عصر المرابطين ، وتنامى قوة الخصم القشتالى وإصراره على الثأر والمواجهة ، وما ترتب على ذلك من رفع لراية الجهاد والذود عن الأندلس ، المرة تلو الأخرى ، وإعداد الحملات من رباط الفتح لتتجه إلى الأندلس . وعبور الخليفة ابن يعقوب يوسف ومسيرته إلى إشبيلية ، ثم خروجه بقواته إلى بطليوس ، وتحالف ملك قشتالة وليون ضد الموحدين ، وتواجها الجيشان ، وجُرِحَ الخليفة وقيل إنه مرض وتوفى ، وكتمت هذه الوفاة حتى مبايعة الأمير يوسف بن يعقوب ، وبعد الوصول إلى إشبيلية أعلنت هذه الوفاة وتوقف الغزو وأعلن الرحيل إلى رباط الفتح ، وعادت إلى الخصم طموحاته وتجدد غزواته للبقاع الأندلسية ، لتعلن من الجانب الإسلامى صيحة الجهاد ، ومسيرة الخليفة أبى يوسف يعقوب إلى قرطبة ليعود بقواته من جديد إلى إشبيلية محاولاً غزو ما حولها دون جدوى .

هذه الآونة شهدت إشراقة فى المشرق تعيد الثقة فى استعادة ما سُلِب ، إنها اشراقة صلاح الدين ، وتوالت الأحداث وتكثفت المواجهات دفاعاً عن راية الإسلام بين المد والجزر ، وكان الخليفة المنصور وخروجه إلى الغزو ومسيرته إلى طلبيرة ثم إلى طليطلة ، وما كان من تحالف قشتالة وأراجون ، وبعد هدنة بين المنصور وملك قشتالة عاد إلى المغرب وأخذ البيعة لولده الناصر ، ووفاته بعد

اعتناقه للمذهب الظاهرى وانتشاره فى عهده وطموحاته التى كانت بلا حدود ، ولقد ذكر لنا ابن جبير من بين ما ذكر فى رحلته : « أن صدى الدعوة الموحدية وصلت إلى مصر » .. بلا شك كان المنصور منصوراً متميّزاً فى العديد من المواقف والمواجهات ، وكمثال : موقعة الارك وكيف أن المنصور قاد جيوشه فى مواجهة القشتاليين ليسجل رغم مقتل قائد الجيش أبى يحيى انتصاراً فريداً باقتحام جيوشه الموحدية لحصن الارك وارتداد ملك قشتالة نحو طليطلة بعد تسليم الحصن للمسلمين .

وتذكرنا هذه الموقعة الهامة بموقعة الزلاقة ، وتشهد كل موقعة على مقدرة قائدها المسلم وجدارته ، وانتهى عصر المنصور لتتوالى بعده فترات للدولة الموحدية غطتها سُحب الفتن والمواجهات وتحفز العديد من الولاة للانفراد بولاياتهم ، وعرف عصر محمد الناصر - كما هو الشأن فى ما سبقه وما سيليه من عصور الحكام الموحدين - الصراعات فى العديد من نواحى دولته ، مما جعل الموحدين يركزون انشغالاتهم بحوادث إفريقية وينشغلون بها عن الأندلس التى عرفت فترة مهادنة منذ موقعة الارك ، سريعاً ما انتهت بإغارة ألفونسو الثامن على بعض القلاع الأندلسية ، وإغارة ملك أرجون على أراضى بلانسيا .

ولقد اهتم الناصر الموحدى بهذه الأحداث واعتزم العبور للجهاد واستنفار القبائل ، فعبر متجهاً إلى إشبيلية وخرج بجيوشه إلى قرطبة ، وحصاره لبعض القلاع مما دفع النصارى إلى استجلاب المتطوعين النصارى الصليبين من جميع الأنحاء ، واجتمعت جيوش قشتالة وأرجون ، وخرجت الجيوش النصرانية من طليطلة بعد أن خرج الناصر بجيوشه من إشبيلية ، وقد كانت المواجهة فى حصن العقاب وتعبأت الجيوش الموحدية للقتال ، وكانت المعركة التى عرفت بمعركة « لاس نافاس دى تولوسيا » أو العقاب سنة ١٢١٢ م ، وتفككت مسيرة الجيش الموحدى ، ومع هذا قاوم الحرس الخليفى ، وثبت الناصر وصمد رغم مصرع الآلاف من حرسه الأسود ، ولكنه فى النهاية اضطر إلى الفرار ، وكانت المطاردات المروعة للموحدين .

إنها لنكبة اهتزت لها أرجاء الأندلس فزعاً ، وتضعضعت الدولة الموحدية ، وتابع النصارى جنى ثمار انتصارهم مستولين على الحصون الإسلامية الواحدة تلو الأخرى ، ولم يخفف من هول هذا الزحف إلاَّ ما كان من انتشار الوباء ، وعاد الناصر المهزوم إلى قصره بعد أن أخذ البيعة لولده أبى يعقوب يوسف ، ومات بعد أن ترك من البصمات ما عُرِفَ به من استبداده بالأمر ، وخلو عهده من الأعمال الإنشائية ، وتأهيله لدولته الموحدية لتقع تحت ضباب الانحلال والتفكك فى الأندلس ، واستمرارملوك النصارى فى تصيد الحصون والمواقع ، بل فتحت شهية هؤلاء الملوك للعبور فى كل اتجاه ، وسقطت بلنسية ، وبدأت نسائم الضعف تهب فى كل مكان على بقايا الطوائف ، كل يحاول أن ينجو بما تبقى له من عقد لتحالفات وتنازلات للقشتاليين .

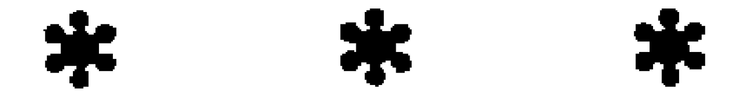
ثم سقطت إشبيلية بدورها بعد أن عمتها الفتن وقتل أهل اشبيلية لزعيمهم ابن الجد ، وما قيل من معاونة ابن الأحمر للنصارى ، واستيلاء فرناندو على قلعة جابر ، كما استولى على غيرها من القلاع ، وكثيراً ما كان يتم هذا بتسليم ابن الأحمر لها ، ورغم صريخ أمراء إشبيلية إلى المغرب وإصرار ملك قشتالة على التسليم الشامل لإشبيلية وإخلاء المسلمين للمدينة ، ورغم عبور القائد شقاف وزملائه ، كان المصير المأساوى لهم ، ودخل فرناندو الثالث إشبيلية مستغلاً ضباب النزاعات والصراعات والفتن فى صفوف المسلمين ، وتحوّل الجامع الأعظم إلى كنيسة ، وأصبحت إشبيلية عاصمة لقشتالة ، ودانت لهم المناطق المجاورة بالطاعة والخضوع ، وبدأ العد النازل للأندلس المسلمة مع العد النازل لنهاية الموحدين ، بعد تفكك دولتهم وسقوطها . وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها فى نحو ثلاثين عاماً فقط (٦٢٧ - ٦٥٥ هـ) عبر وابل مروع من الأحداث والمحن ، فالأندلس الذى كان يشغل قبل قرن نصف الجزيرة الأسبانية انتهى إلى رقعة متواضعة من مملكة غرناطة

أما أبو يوسف المرينى فقد دخل إلى مراكش وبويع ، وانتهت الدولة الموحدية وسيطر بنى مرين على المغرب الأقصى بعد أن طاردوا بقايا الموحدين هنا وهناك ،

ولا يمكن أن تُعزل واقعة العقاب وآثارها عن تراجع الدولة الموحدية لتؤول فى النهاية إلى الانهيار ثم الاندحار .

وبقيت غرناطة الحبيسة وما حولها لتواجه وتتواجه مع بنى نصر أو بنى الأحمر عبر القرن الثالث عشر والرابع عشر لتحتضر وتنتهى مع نهاية القرنْ الخامس عشر .

لسوف نركز على غرناطة الحبيسة بعد انهيار صرح الأندلس وفى عصر بنى الأحمر ، باعتبار أنها كانت جزءاً لا يتجزأ من مسيرة الأندلس ، سواء فى عصوره الكبرى أو فى عصر دويلات الطوائف ، عصر الفُرقة والتمزيق والتطاحن رغم الإنقاذ المرابطى والموحدى المؤقت ، فماذا عن غرناطة الحبيسة ؟ بعد أُفول شمس الأندلس العملاق ، لنعيش فى فترة غروبه مع غرناطة الرابضة فوق صخرتها وما حولها ، وهذا هو موضوع الحلقة التالية فى الفصل التالى .



الحلقة السابعة

وماذا عن غرناطة الحبيسة

دون أن نستعيد تاريخ الأندلس من خلال غرناطة الرابضة والمحصنة بقلاعها فهى عايشت أحداث الأندلس منذ بداية الفتح ، قرية هامشية من كور « البيرة » لتصبح فى فترة تالية ولاية ، لتتحول إلى مملكة ، وتواجه ما يتجاوز قرنين ونصف من الزمان ، دفع وتقلص ، مد وجزر ، عرفت ما عرفته بقية دويلات الطوائف ، عرفت المرابطين ثم الموحدين ، وقاومت الإصرار الصليبى بجهاد إسلامى عرف الانتصار كما عرف الانتكاس .

استجمعت غرناطة فى عصر الصمود ما تبقى من الأندلس (١٢٣٧ - ١٢٣٨ - ١٤٩٢) عبر مواكب الفتن والصراعات ، كان الصراع على السلطة بين ابن الأحمر ومنافسيه ابن هود وابن مردنيش وآخرين ، تمكن فى النهاية ابن الأحمر وهو محمد بن يوسف النصرى سليل بنى نصر من السلطة (٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) . وقد كان بنونصر سادة لحصن أرجونة من أعمال ولاية جيان . ويرجع البعض نسب بنى نصر إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وهو من كبار الصحابة . ولقد عاون ابن الأحمر على بسط حكمه ، أصهاره بنو اشقيولة . كما أنه دعا لأحد الأمراء المسلمين الظاهريين وهو الأمير أبو زكريا الحفصى صاحب إفريقيا (تونس) متلقياً منه العون . كما قيل إنه دعى للخليفة المنتصر العباسى محتذياً بذلك حذو ابن هود من قبل . ومن المعروف أن مملكة غرناطة كانت تقع بين جبال نڤادا ، وقد سماها العرب بجبال الثلج من ساحل البحر المرية ، إلى جبل طارق . وعرفت غرناطة التقلص والتحجيم بعد سقوط بلنسية فى يد ملك أراغون ، وسقوط مدينة شاطبة فى يد الأرجونيين أيضاً ، واستيلاء القشتاليين على حصن أرغونة - أو أرجونة - ، وحصار النصارى لمدينة جيان ..

ومع هذا استمرت المواجهة مع النصارى لتتخللها هدن ومعاهدات وإعطاء جزية أو معاونة ضد أعداء . ومن المحزن أن يذكر لنا بعض المؤرخين أن ملك قشتالة دخل إشبيلية بمساعدة ابن الأحمر . ولقد صار بنو اشقيلولة فى مالقة ووادى آش بعد أن عقد ابن الأحمر ولاية العهد لولده . ولم يف لأصهاره بنى اشقيسولة بوعوده . ولقد أبرم معاهدة مع المرينيين وأعطاهم منصب مشايخة الغزاة . وكم كان مؤسفاً أيضاً أن ابن الأحمر فى سبيل فك الحصار المضروب عليه فى مالقة ووادى آش من طرف أصهاره بنى اشقيلولة أن يستعين بالنصارى لفك الحصار عنه متخلياً لهم عن بعض المدن والقلاع والحصون . وهكذا نرى أن الذى أضاع الأندلس فى النهاية وأسقطها فى يد الصليبيين ، ليست قوة الخصم بقدر التمزق الذى كان يعانى منه الجسد الأندلسى من الداخل . وصدق المتنبى حين قال :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

ويُذكر فى هذه الفترة هذا الأثر الذى ظل حتى يومنا شاهداً على التقدم العمرانى فى غرناطة ، ونعنى بذلك بناء قصر الحمراء على أنقاض قلعة بنى زيرى وما حولها .

مملكة غرناطة فى عصر ابن الأحمر ، والتى كما أشرنا صمدت ما ينيف على قرنين ونصف من الزمان . وكان صمودها ملفتاً للنظر كما أشار إلى ذلك المستشرق الأسبانى الشهير « دياس كاخيجاس » فى مؤلفه المنشور بمدريد عام ١٩٤٨ وأورده محمد عبد الله عنان فى نهاية الأندلس العصر الرابع (ص ٤٠ - ٤١) : « إن قيام مملكة غرناطة فى ظل بنى نصر يبدو لغزاً حقيقياً ، وذلك أنها ولدت فى ظروف غير ملائمة ، بل ضعيفة ذابلة ... » مبدياً دهشته من أن مملكة غرناطة بالرغم من تكوينها من هضاب وبسائط يغلب عليها القفر أكثر مما يغلب عليها الخصب ، وامتداد رقعتها ما بين جيان شمالاً إلى الجزيرة جنوبياً ، وبالرغم من أن الجند النصارى كانوا فى أحيان كثيرة يخترقونها حتى مرج غرناطة ، فإن

هذه العوامل كلها ، إضافة إلى الظروف الجغرافية والاقتصادية السيئة لم توقف تقدمها وازدهارها وبقائها مدى قرنين ونصف رغم أطماع النصارى ، حتى إن كل ذلك لغريب ، إنه لينبو عن الإيضاح » .

عبرت مملكة غرناطة إذن التاريخ مرة محكومة بقيادات متفتحة متطلعة إلى الجهاد والإقلاع ، وأخرى بقيادات انطوائية قانعة بسقط المتاع ، تاركة للفتن والأهواء الساحة لتسيطر على الأحداث .

وهكذا عرفت غرناطة عهوداً وعهوداً من محمد الثانى المكنى بالفقيه (٦٧٢ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) ، ولقد سار على نهج أبيه فى مصانعة الأقوياء ومداراة الأعداء . متصلاً بالقشتاليين طالباً منهم العون ومساندته وعدم مساندة بنى اشقيلولة ، متنازلاً لهم كما تنازل أب له من قبل ، عن عدد من الحصون وكأنها ملك له وضياع وليست بحصون المسلمين وأرض الإسلام . وكان طبيعياً أن يستولى القشتاليون على مدينة طريف ولا يلتزمون بعهودهم له ، ومع هذا يذكر له نظم الجيش والدواوين والاهتمام بالعلم والعلماء والأدباء .

ومن بعده عهد محمد الثالث المخلوع (٧٠١ - ٧٠٨ هـ /١٣٠٢ - ١٣٠٩ م) وهو ابن محمد الثانى السالف الذكر ، ولقد شهدت هذه الفترة تداخلات ومضاربات كل يغنى على ليلاه ، ففى الوقت الذى عقدت معاهدة مع القشتاليين ، لم تُرْضِ المرينيين فى المغرب ، فقاموا بتحريض ملك أرجون ضد ملك غرناطة ، ولقد عجلت الفتن والحروب على عصره ليتولى ابن اخيه الحكم بعده ، وهو نصر ابن محمد المكنى بأبى الجيوش ، واستمرت فى عصره أيضاً الاضطرابات . بل عرفت هذه الفترة أيضاً التحالف بين مملكة قشتالة وأرجون ضد غرناطة وعودة الاتفاق مع بنى مرين ليأتى عهد إسماعيل الأول ، خامس ملوك بنى الأحمر ليجتهد فى الدفاع عن مملكته ويحقق بعض الانتصارات على القشتاليين ، ومع هذا قُتِلَ من طرف ابن عمه صاحب الجزيرة بسبب جارية ليتولى العهد من بعده ابنه أبو عبد الله محمد ، وليستمر تحرش القشتاليين بالمسلمين رغم قدوم الإمدادات من المغرب ، وكانت موقعة سلادو وهزيمة المسلمين وسقوط العديد من

الحصون فى يد النصارى رغم محاولة سلاطين المغرب إنقاذ ما يمكن انقاذه بعد سقوط طريف والجزيرة الخضراء ، وقُتلَ يوسف الأول الذى تولى العهد فى غرناطة ليأتى عهد « محمد الغنى بالله » ، ليتولى السلطة فى هذه المملكة التى بلغ سكانها ما يقرب من نصف مليون . غرناطة عروس الحواضر الأندلسية التى كانت كما أشرنا فى مطلعها مجرّد ضاحية من ضواحى مدينة البيرة حين الفتح الإسلامى . لتصبح وبخاصة فى هذه الفترة ، فترة ولاية محد الغنى بالله الذى استوزر لسان الدين بن الخطيب ، وتواجه مع الفتن محاولاً احتوائها ، وكذا الثورات المتكررة فى غرناطة ، مستبعَداً عنها ليعود إلى عرشه فيها مناوراً مع ممالك النصارى - قشتالة وأراجون - بين مهادنة وهدنة ، وحروب وسلام ، ومواثيق وخرق للمواثيق ، وغزو لأراضى النصارى من المسلمين ، والعكس ، لم تسترح غرناطة وتستعيد أنفاسها من فتنة إلى أخرى ، ومن معركة تجر وراءها المعارك . إنها غرناطة المتميزة بصمودها كما هى متميزة بجروحها ، إنها ترمز إلى تاريخ أمة الإسلام ، صامدة رغم الاستنزاف والجروح مع الفارق فى النهاية ، انتهت غرناطة واستمرت أمة الإسلام صامدة تتواجه فى كل الجبهات ، غرناطة التى استطاع أن يجعل منها زاوى بن زيرى البربرى عاصمة لولايته قبل أن تتحول إلى مملكة متسعة مشرقة متحدية متواجهة ، مر عليها المرابطون ومَن بعدهم الموحدون لتعرف فى ولاية هذا الغنى بالله - القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ / ١٣٥٥ - ١٣٩١م) - قدرات ابن الخطيب ومحاولته احتواء الأحداث ، ومع عبقرية ابن خلدون وسفاراته الناجحة باسمها لدى « بدرو » ملك قشتالة سنة ١٣٦٣ م ، ولم تتوقف السفارات عند حد غرناطة والمغرب ، بل شملت حتى الاتصال بمصر فى المشرق ، والتى كانت تعانى بدورها من غزوات النصارى ، ولم يقف الغنى بالله عند حد الجانب السياسى ، بل اهتم بالجوانب الاقتصادية والحياة العلمية والأدبية . ويُذكر لعهده حضور العقليتين المتميزتين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب . هذا الذى دُبِرت له فى النهاية مكيدة انتهت بقتله فى فاس .

عرفت غرناطة بعد الغنى بالله الفقر فى ملوكها وضعفهم وتآمرهم فيما بينهم ، ولجوئهم إلى النصارى كل على حساب الآخر ، أسماء يرويها لنا التاريخ من حكام غرناطة . لن نقف عندها طويلاً ، توالت على الحكم بعد (٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م) فى جو من الصراعات والأخذ والرد مع مغرب المرينيين من ناحية ، ومع النزعة الصليبية الممثلة فى القشتاليين والأرجوانيين من ناحية أخرى ، المتحفزة لتصيد الفرص لتزحف نحو غرناطة مستولية على أطرافها طرفاً بعد الآخر ، لتزحف إلى أحشائها فى النهاية . وإن كنا نسجل حدثاً هاماً فى نفس الفترة ، وهو سقوط القسطنطينية فى يد العثمانين ، وما كان له من ردود فعل وأصداء بالنسبة للمواجهة فى الأندلس ، حيث روع هذا الحدث أوروبا النصرانية وزكى فيها النزعة الصليبية ، وكان على غرناطة أن تتحمل ثقل هذه الأصداء باعتبارها رمزاً لما تبقى من الإسلام فى الأندلس .

ولقد لعبت الأحداث فى بعض الأحيان لصالح هذه القلعة الحبيسة سواء فى شكل فتن بين ملوك النصارى قشتاليين وأراجوانيين ونڤاريين ، أو فى شكل إمدادات تأتى من مغرب المرينيين أساساً ، وما حولهما ، أو فى شكل قادة واعين بخطورة المواجهة ، مستعيدين للأنفاس فى عصر الاختناق ، ولكن هاهى الأحداث وفى هذه المرة لا تلعب لحساب غرناطة وإنما على حسابها ، فتضيف إلى رد فعل سقوط القسطنطينية والثأر النصرانى وتحفزه للقصاص سقوط جبل طارق ، وقطع إمدادات المغرب ، واتفاق القشتاليين والأراجونيين بالمصاهرة فى الوقت الذى عم الشقاق والطلاق فى الأسرة الإسلامية ، تآلب الشقيق على الشقيق ، وتقاتل أبناء الأب الواحد .

وهنا نحس بما تبقى من أنفاس لغرناطة الشهيدة المحتضرة فى عهد أبى الحسن ، لقد حاول أن يحارب ولكنه انساق فى موكب التراجع والانهيار متزوجاً بالنصرانية (هذا الزواج المختلط الذى أسهم فى انحلال المجتمع الأندلسى) ، ليعم الخلاف فى داخل أسرته بين مَن يخلفه فى ولاية العهد .

سجن أبو الحسن ابنه أبا عبد الله الفتى من زوجته المسلمة ، حاول بنو السراج أقوى أسر غرناطة ، وكأن لهم شأن فى هذه الفترة أن يتدخلوا بين الأب وابنه ، وتمكن من الفرار فى الوقت الذى نرى النصارى يسيرون إلى مالقة ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة في الموقعة المعروفة بـ « الشرقية » على يد الأمير أبو عبد الله الزغل ، وخرج أبو عبد الله محمد الفتى يحذو حذو عمه الباسل الزغل للغزو أيضاً ، ولكنه هُزِمَ عند الحصن « اللسانة Lucena » فأسر ، واقتيد إلى قرطبة ، فعمت الاضطرابات غرناطة التى كان قد تولاها أبو عبد الله الفتى مستغلاً ضعف والده ، ولكن بعد أسره اجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبى الحسن ليجلس على العرش مرة ثانية ، ولكنه تنازل عنه لإعيائه وفقد بصره ، لأخيه أبى عبد الله الزغل الذى كان يحكم على مالقة ، وتم افتداء الأمير الأسير ، ووقعت معاهدات طابعها سرى بين ملك قشتالة ، وفى سبيل ذلك زحف النصارى على رنده واستولوا عليها ، وشبَّت الحروب والفتن فى غرناطة بعد عودة الأمير الأسير بسبب الصراع بينه وبين عمه « الزغل » ثم ترك الابن غرناطة ذاهباً إلى المنطقة الشرقية للدفاع عنها ، ومع هذا توالى سقوط الحصون فى يد النصارى فى الوقت الذى عادت فيه المواجهات بين الأمير وعمه « الزغل » مستعملين الأنفاط ، وكأن الأسلحة التقليدية لا تكفى ، فمد فرناندو النصرانى يده لأبى عبد الله الفتى ضد عمه وسقطت مالقة فى يد النصارى ، وارتد الزغل إلى وادى آش ، وانقسمت مملكة غرناطة مع ارتقاء أبى عبد الله محمد على عرشها فى غيبة عمه الزغل رغم محبة أهل غرناطة لهذا الأخير ، وربما أيدوا الابن على عمه اتقاءً للعدو النصرانى الذى كان يميل إلى الابن ، لا العم ، وتم هذا فى مملكة ممزقة ، خطط ملك قشتالة للقضاء عليها رغم الاستغاثة بملوك الإسلام وبسالة الدفاع عنها ، وشدة الحصار ، ونكث فرناندو بوعوده واستغاث ما تبقى فى هذه الأرض الباسلة بالمقاومين من رجالها بمصر ، فى الوقت الذى كان الشرق بدوره يعانى من نفس الصراعات ، وكان على المشاكل التى تحل وتصفى فى ميدان القتال أن تزحف على الأوراق ليفرض المنتصر ما يريد فرضه تأكيداً للاستسلام .

زحف فرناندو على مدينة « بسطة » رغم بسالة المسلمين فى الدفاع عنها ، واستسلمت فى النهاية كما استسلمت « المرية » ، وتدارك اليأس الزغل فركع لفرناندو ودخل النصارى لوادى آش ، وتنازل الزغل عن حقوقه مفضلاً الاسترخاء فى المغرب .

وكان الصراع الأخير حول غرناطة المحتضرة وهى فى سكرات الموت تأبى أن تلفظ أنفاسها على يد عدوها ، فكانت المعارك بين المسلمين والنصارى ، ومراوغة « فرناندو » وخداعه ، فى الوقت الذى يتأهب لافتتاح غرناطة بالزحف عليها ، محاصراً لها ، أمامها منشئاً مدينة « شنتفى » ، واستبسل ما تبقى من جسد غرناطة ممثلاً فى « موسى بن أبى غسان » ، فارسها الذى آثار حماسة المؤمنين وقاد الفرسان ، واشتد الحصار وانقطعت الإمدادات رغم تصميم الفارس موسى بن أبى غسان على الدفاع ، وأكمل فرناندو زحفه على المدينة وحبست غرناطة وهى فى سكرات موتها خروج أنفاسها فى سرير الاحتضار وأبت إخراجها إلا فى ساحة الاقتتال ، ولكن كيف فى مواجهة غير متعادلة ؟ بدأت رياح الموت تهب رغم اعتراض موسى على هبوب هذه الرياح ، رياح التسليم والاستسلام ، ولكن بدأ التحضير لمراسيم الموت ممثلة فى شروط التسليم وضماناته ، وكيف تحترم الضمانات بين المنتصر والمنهزم ، وعجل بالدفن ، وحملت مملكة غرناطة الحبيسة إلى قبرها بعد أن دخل القشتاليون إلى الدار رافعين الصليب فوق الحمراء ، وبدأت مواكب المتباكين والبكّائين من داخل وخارج الدار .

وهذا ما سوف نطرحه فى الصفحات التالية والتى سوف نفردها لاستخلاص العِبَر بعد أن عبرنا الأندلس فى عرض مركّز ، خلال فصول سبع فى حلقات سبع ، المحور الأول من هذا المؤلف ، على أن نتناول فى المحور الثانى وهو فى أربع حلقات : بؤر الضياع وقلاع المجد .

*   *   *

الحلقة الثامنة

فى بؤر الضياع بين الخاسرين

وضاع الأندلس بعد أن لفظت غرناطة أنفاسها لتكمل رحلة فى ممرات الضياع أسهم فيها الخاسرون كل بنصيب ، ومن البداية غافلين ومتغافلين ، لاهين ومتلاهين ، متآمرين على أنفسهم قبل أن يتآمروا على غيرهم ، لقد ضاع الإسلام فى القلوب حينما كان التخلى عن مُثله العيا ومبادئه الخالدة ، فضاع الأندلس بضياعه ، إذ قبل أن يفتقد الأندلس كفردوس يتمثل به المتمثلون فى مراثيهم ، افتقد الأندلس من داخل ذاته ، حيث فُرِّغ من محتواه الذى من أجله عبر رافعاً راية الإسلام ، مبشراً برسالة لإنقاذ البَشرية ، وها نحن نرى كيف أن هذا الأندلسى بعد أن افتقد مضامينه الأساسية التى تلزمه بعمق الإيمان وقناعه واقتناعه بما من أجله خُلِقَ ملتزماً بمنهج محدد ، يرتكز على الوعى بالذات المؤمنة المتضامنة المتآلفة ، المزكية لنفسها بالتقوى ، بدلاً من استسلامها لغرائزها وفجورها ، المتحلية بالصبر والحق والمتواتصية بهما ، أين نحن من كل هذا ؟

بلا شك ولنبدأ مع الخاسرين من البداية ، لم يعبر الفاتحون إلى الجزيرة عبوراً خالياً من الشذوذ والاستثناء ، فإن كانت الغالبية عبرت بإيمانها وقناعتها ، مستبسلة وطالبة للاستشهاد ، فهناك مَن عبر - ولكل قاعدة استثناء - محمولاً بعصبيته ، محملاً بشهواته وأطماعه وأهوائه ، لم تكن تُرى حينما يشتد غبار التلاحم بغية الانتصار وتعلو صيحات التكبير لتغطى على كل الصيحات ، ولكن سريعاً ما يتحرك أصحاب هذه الشهوات منقبين عن الغنائم مشبعين لأطماعهم متغافلين وغافلين ، ومنهم اللاهين والمتلاهين ، وقطيع من المتعصبين النافرين ، وقد استيقظت فيهم رواسب كامنة لم تذب عبر الرحلة الطويلة فوق

رمال صحراء الشمال الإفريقى ، ولم تنقيها مياه وديانه وسهوله ، أو تخفف من حدتها روعة مناظره الخلابة فى بداية الفتح ، فالتغافل واللهو والتعصب والعصبية ظواهر تبرز لتختفى وتتكيف مع الأحداث ، تتسم وتضيق حسب مايؤهل لها من ممرات .

وهكذا ومن البداية طالعتنا هذه النماذج المختلفة مواكبة للفتوحات ، تتجسد فى تغافل عن مسيرة الأحداث وتلاهى بسواقط الأشياء ، وإيقاد للنعرة والتعصب حسب المواسم والمناسبات .

كان تغافل الغافلين والمتغافلين فى تأمينهم لمسيرة الفتح منذ البداية وعدم الحذر فى المواقف والعلاقات واللجوء إلى قرارات لم تؤمن عواقبها فيُحتاط فى اتخاذها ، هذه الغفلة التى هى فى غنى عن التعريف ، وهذا التغافل المجارى للغفلة والمبرر لها امعاتيا عايشا الأندلس منذ البداية وواكبا فى مختلف مراحله وشتّى عصوره ولاة ، وإمارات ، وخلافة ، وطوائف .. حتى مراحل الاحتضار .

نُفصّل القول ما أمكن فيما أشرنا إليه بإيجاز ، كان على الفاتح أن يتابع الفلول الهاربة فوق الجبال أمام دفعات فتوحاته حتى لا تعود لتتجمع باحثة عن الثأر ، واضعة لها كحد أدنى أقداماً ولو فى شكل بقع قد لا تُرى إلا بعين الحذِر والمحتاط ، فقد نجح « بلاى » فى تأسيس مملكة « إشتبريش » الصغيرة ، ومن ثَمَّ كانت إيذاناً بمولد الإمارات المسيحية فى شمال الأندلس ، فضلاً عن أن العرب تركوا أراضى مقفرة تفصل بين زليقة وأرض الإسلام ، وما كان من استغلال ألفونسو لهذا الوضع واستيلائه على هذه الأرض المقفرة ، وهكذا لم تصل الفتوحات إلى غايتها بتأمينها لإطارها الخارجي ، فضلاً عن أن الفتوحات كثيراً ما كانت تخضع لحساسيات وشخصنة للمواقف ، وإلا كيف نبرر استدعاء موسى ابن نصير وطارق بن زياد فى بداية الفتح من قِبَلِ الخليفة فى دمشق وما حدث لهما بعد ذلك ؟

هذا إلى جانب مايتمثل من غفلة وتغافل عبر العلاقات مع الخصم سواء فى ذلك المصاهرات أو التوادد الغير المحسوب ، كزواج عبد العزيز بن موسى من قوطية أرملة لذريق ، وما أُرخ بشأن سيطرتها على زوجها وحثها على أمور خاصة بتسيير الدولة تجسد انفراده ، وتحقق طموحات قد تضر اكثر مما تنفع مستغلة فى ذلك ما تعرَّض له والده من محن ، وتصرفات أخرى أثْرت عليه فى اتخذها ورأى بعض المؤرخين أنها كانت من أسباب قتله سنة ٩٨ هـ ، وهذه مصاهرة أخرى لمونوسة البربرى وهو قائد من قادة الفتح الإسلامى ، لدوق نصرانى ، عقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمَّنه بها من الغارات ، كذلك راجع مونوسة أمر عبد الرحمن الغافقى ، ومع هذا أرغمه هذا الغافقى على السير فى الغزو ، فأبلغ حماه الدوق سراً بذلك ناصحاً له بالاستعداد ، وكُشفَ أمره واجتُثت رأسه ، فضلاً عن مزج حاشية مَن بيدهم الأمر بعناصر دخيلة يُشَكُ فى ولائها ، بل حتى اللغة الأسبانية عرفت طريقها فى عصر الإمارة إلى مَن عملوا فى مختلف أمورها دون حسابات مضبوطة ، وكيف أن التسرب أسهم فيما بعد فى تكثيف رياح التفكك والتفتت التى نراها تهب فى سماء الغفلة والتغافل ، لتحمل إلينا نذير الارتداد المجسَّد فى عمر بن حفصون واعتناقه للنصرانية وماصاحبه من أحداث محزنة ، وماتم من التبرؤ منه ، وتميل بعض المصادر إلى أنه مات على المسيحية ، ويشيرون إلى نبش قبره وكيف أن وضعه يرجح هذه الفرضية .

ولا يعنينا بالضرورة هذا الحفصون بقدر ما يعنينا ما يمثله هذا التيار المهتز من مواقف أملتها الرغبة فى السيطرة والنفوذ ، والتعلق بالسُلطة وشخصنتها ، وكيف أن هذا قد وصل فى نهاية عصر الخلافة إلى حد تبنى الزيف بتنصيب خليفة وهمى ، نُصِّبَ باسم هشام الأموى وذلك بعد وفاته بأعوام كما أشار إلى ذلك ابن حزم فى « نقط العروس » (ص ٨٣) ، وفى هذا المضمار نذكر أيضاً هذا ألفونسو السادس الذى ارتمى فى قصور طليطلة لاجئاً ، وبعد أن تعرَّف عليها وفتحت له الأبواب ، عرف بدوره كيف يحتلها بعد ذلك . وهذا البطل يوسف بن تاشفين بعد أن حاصر طليطلة لم يساعده أحد من ملوك الطوائف

مما حدى به إلى الرجوع عن استعادتها ، بل إن بعض هؤلاء لم يتورع عن التحالف مع الخصم ضد ابن تاشفين كالحالة المحزنة نسردها بامتعاض . وهى الخاصة بالأمير عبد الله بن باديس بن حبوس المتحالف مع ألفونسو السادس ، وبدوره المعتمد بن عباد . ولِمَ لا ؟ يستغيث بهذا الفونسو السادس ضد جيش المرابطين حين حصاره لإشبيلية ، المعتمد بن عباد صاحب العلاقات المقنَّعة مع القشتاليين والتى آلت إلى ماآلت اليه ، ومن ثَمَّ فلم تكن القيادات وبخاصة فى عصرِ دول الطوائف بمنئى عن الخصم وطموحاته ، فكانت أمامه الأبواب مفتوحة ومعه تتم التحالفات البغيضة ، وأسرار هؤلاء الطوائف منشورة فى عرض الطريق ....

لقد وصلت غفلة الغافلين ، وتغافل المتغافلين إلى مستوى أهَّلَ فى النهاية لابتلاع الجميع وعبر جرعات متوالية ، كل تؤهله غفلته إلى نفس المصير ، حتى الأبطال - رغم أنهم حاولوا احتواء الغفلة - يعترفون بنزاهة جديرة بالإشارة والتقدير بأن كان عليهم ألا يتغافلوا ، نلاحظ هذا بإعزاز على لسان يعقوب المنصور الموحدى ، بطل معركة الأرك ، الذى (كما ورد فى « روض القرطاس » لابن أبى زرع الفاسى ص ٢٣ .) أنه ما ندم فى خلافته إلا على ثلاث ، والذى يعنينا من الثلاث هذه الخاصة بإطلاق أسارى الأرك حيث يتنبأ المنصور الموحدى « أنهم لا بد له أن يطالبوا بثأرهم » . حتى ملك قشتالة حينما دخل إلى إشبيلية كان ذلك حسب بعض المصادر (الاستقصاء للناصرى) بمساعدة بنى الأحمر ، ولنا معهم - وغرناطة - لا نقول وقفة وإنما إشارة متميزة ، فغرناطة التى استوزت ابن نَغْرِلَة اليهودى فى الوقت الذى كان هذا اليهودى فى ساحات أوروبا المسيحية الوسيطة ، يُحرَق فى أيام الآحاد حين الخروج من الكنائس أو فى بعضها ، تأكيداً لاستمرارية لعنة المسيح عليهم ، ها هو فى أندلسنا المتفتح ، السمح ، لا يُسهم فقط فى الحياة الفكرية والحياة اليومية بصفة عامة ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع فيما بعد ، وإنما يشارك فى السُلطة ، هذه السُلطة فى غرناطة التى تبنت التغافل واستمرت تلوك الغفلة حتى لفظت أنفاسها ، فقد كانت وهى فى لحظات الاحتضار بين الأمير وعمه الزغل ، وكلاهما أبو عبد الله ،

يصل الحد بالملك المهزوم ، واللامبالاة إلى هذا الموقف البغيض من تهنئة خصمه فى الدين لاستيلائه على مالقة ، بهنىء فرناندو وإيزابيلا باستيلائهما ، لكى يهنىء بعد ذلك ، ولِمَ لا ؟ إن صحت التهنئة – من منطوق ساخر – بأخذهما المملكة منه وتسليمه بإذلال ومذلة لمفاتيحها .

غفلة وتغافل ، نرى أصداءها لدى المعاصرين لهما ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لسان الدين بن الخطيب وما كتبه فى « أعمال الأعلام فى مَن بويع قبل الاحتلام » حيث يُبرز لنا إلى أى حد سيطرت الغفلة وعَمَّ التغافل ولم ينل المُلك من الرعاية ما يؤمِّنه .

غفلة وتغافل ، هكذا أسهمت عبر مسيرة الأندلس فى تشجيع وتدعيم مسيرة اللاهين والمتلاهين ، هذا غافل يلوك غفلته ، وذاك لاهى يتسلى بمجونه ، ولِمَ لا ؟ يتفاخر بخلاعته وانحلاله ، تناغم اللَّهو مع مواكب الغفلة مزكياً لها ، متلاحماً مع مسايريه من المتلاهين ، فهم بدورهم إمعات لهم ، كما أن المتغافلين إمعات للغفلة ، يسيرون فى الركْبِ الذى نلاحظ اتساعه مع ضيق الانضباط وقصور الحزم فى قيادات الأندلس ، مَن يطالع وبخاصة الأدب نثراً وشعراً فى الأندلس ، لا يمكنه أن يخفى اندهاشه بقدر ما لا يمكنه أن يحجب انبهاره وإعجابه ، فبقدر ما يعجب وينبهر بقدرة الإبداع والإشراق ، بقدر ما يندهش أمام هذه الحرية والتحرر من كل القيود حينما تعبر عن مجونها ولو عبر صوَّر تُبرز لنا جوانب من الانحلال والتفسخ ، أسماء تذكر رجالاً ونساءً ، ولا ندرى أنكتفى بتسجيل ما قدَّموه من إبداع أم نشير أيضاً إلى ماجاء فى هذا الإبداع من تصوير لمناحى المجون والمغالاة فيه ، ونكتفى بسرد نماذج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فهذه « ضروب » الجارية فى عصر عبد الرحمن الأوسط ، الذى تعلق بها .

وقدَّم لنا صاحب « نفح الطيب » المقرى (الجزء الأول ص ٣٢٦ وما يليها) ما قدَّم من وصف إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن هذا الأوسط الذى ما تورع فى شهر رمضان من أن يترك لغرائزه وشهواته ما يجعله يستدعى

الفقهاء سائلاً لهم عن كيفية التوبة والكفّارة ، وعن مجالسة هذا الأمير المغنى الشهير زرياب ، حملت لنا المصادر الأندلسية ما حملت إلى حد أن الأندلس دخل فى منافسة مع المشرق فى إطار الترف والاسترخاء ، حتى إن زرياب كثيراً ما كان يُحاكَى ويُقلَّد كنموذج سلوكى ، ولن نطيل كثيراً مع هذا الأمير ، فما أكثر الأمراء الذين انشغلوا بملاهيهم أكثر من انشغالهم بحكمهم ، وتجاوزت جلسات الضرب والمنادمة جلسات تسيير الحكم والاهتمام بشؤون الرعية ، ملهاة تنفتح على ملهاة ، وتفاخر فى هذا المضمار ، إلى حد أن إبراهيم بن الحجاج بعد أن تغلب على إشبيلية ووصل إلى مسامعه ما وصل عن جارية بغدادية اسمها قمر ، فأرسل فى طلبها الأموال لشرائها ، أموال كان من الأولى أن تؤمِّن حياة رعيته وتخفف من حدة معاناة الضعيف منهم . ويطالعنا الحاجب عبد الرحمن بن المنصور كمثال آخر ممن تسلطت عليهم شهواتهم ، وقادتهم غرائزهم إلى حد الفسق الصريح ، بل ذُكر عن هذا الحاجب أنه حتى فى غزواته كان يصطحب معه قرناء السوء والمنادمة .

مدن تُحاصَر ، وصراعات مريرة مع الخصم المترقب ، وبلاطات تزهر بالمجون واللامبالاة ، تلهو إلى حد المغالاة والإفراط ، فهذا المعتضد بن عباد والى المعتمد ، يغالى فى لهوه وافتتانه بالدنيا حتى فى سكرات الموت ، مستدعياً لا نقول فقيهًا يرتل له القرآن ، وإنما مغنياً يشدو إلى جانبه وهو على فراش الموت (كما أورد ذلك ابن الأبار فى « الحلية السيراء » ، جـ ٢ ، ص ١٣١ ومايليها) .

وأمثلة كثيرة يمكن للمتتبع والقارئ لتراث الأندلس أن يسترسل فى ذكرها ويتوسع ، وبخاصة حينما تتراجع قدرة الانضباط وتبرز عوامل التأزم ، ولِمَ لا ؟ التفكك والتفتت ، عصر الطوائف الأولى ونهاية الخلافة ، وعبر دول الطوائف مرة أخرى رغم احتواء المرابطين ومن بعدهم الموحدين ، فها هى نهاية الخلافة تقدِّم لنا نموذجاً من خلال « صبح » أم الخليفة الطفل هشام بن الحكم المؤيد ، وكيف كان سلوكها فى فترة محرجة كانت فى أمس الحاجة للصرامة لمواجهة

الأعداء ، والفتن والصراع على حدٍ سواء ، ولِمَ لا ؟ هذه ولادة بعد طروب مع الفارق ، فطروب كانت طروب بما تحمله الكلمة من معانى ، بينما ولادة كانت بحق ولادة فى إبداعها شعراً بقى حتى يومنا هذا يتردد إعجاباً وانبهاراً بهذه الشاعرة ، بنت المستكفى ، الخليفة الأموى محمد بن عبيد اللّه ، وكان لها ما كان من مساجلات شعرية مع عشاقها أو مريديها إن أردنا لها المداراة بما هو أميل إلى الوقار فى سلوكها بالرغم مما يصرح به شعرها من أمور غير مستساغة كابنة خليفة للمسلمين ، وإن كان والدها بدوره ليس ببعيد عن هذا المضمار وذلك حتى قولها كمثال :

أُمكِّنُ عاشقى من صحن خدى وأُعطى قبلتى مَن يشتهيها

(كما جاء فى « تاريخ الفكر الأندلسى » لـ « أ . ج . بالنثيا » ص ٨١ ، نقل حسين مؤنس) .

ولم يقف اللّهو والتلاهى باللأهين والمتلاهين عند هذا المستوى من التعبير الذى امتزج فيه الإبداع بالمجون ، والإشراق بالإخفاق ، وإنما - وهذا ملفت للنظر - كان هناك مَن لا يكتفى بممارسة مجونه ولهوه ، وإنما يلزم بسلوكه المنحرف الآخرين من أصحاب السلوك السوى حتى القضاة والفقهاء ، فهذا عامل الموحدين على غرناطة أبى سعيد بن عبد المؤمن ، يلزم ابن جبير - وهو غنى عن التعريف لما أسهم به من حضور فى أدب الرحلات - بعد أن استدعاه أن يكتب له كتاباً وهو على شراب ، فمد إليه يده بكأس ، فأظهر ابن جبير الامتعاض قائلاً : « يا سيدى ، ما شربتها قط ، فقال له : واللّه لتشربن منها سبعة » ، فلما رأى العزيمة شرب سبع كؤوس ، فملأ له أبى سعيد بن عبد المؤمن الكأس من دنانير سبع مرات ، وصَبَّ ذلك فى حجره . وما كان من ابن جبير إلا أداء فريضة الحج بعد ذلك تكفيراً لشربه .

هذا ، ولم يقف مجون اللاهين والمتلاهين بهم عند هذا الحد ، بل كان هناك مَن يمارس الشذوذ من منادمة الغلمان ، بل وحتى فى جلسات الحكم ، كما حدث لابن أبى بكر بن عمار وزير المعتمد ومغازلته الغلمان فى حضرة المعتمد . ولعل

ما جاء في (المغرب في حلى المغرب ، لابن سعيد ، محققه شوقي ضيف جـ ١ ، ص ٧٦) أبلغ دليل على ما وصلت إليه بعض مدن الأندلس من ممارسات لا يمكن إغفالها فى هذا الموضوع ، خيث الشذوذ فى قرطبة وصل إلى حد ممارسة المخنثين علانية لانحرافهم ، كهذا الذى اشتهر بالهيدورة ، حيث كان يُضرب به المثال ، وكان هناك ضرب ابن زيدون الذى كان يُتمثل به فى التعريض ، فيقولون : هو من ضرب ابن زيدون ، حيث غطت شهرة العهارة فيه حيزاً ملفتاً للنظر .

وهكذا تكاملت وتناغمت مواكب الضائعين أو مَن أسهموا فى ضياع الأندلس أو الفردوس المفقود ، هذا بغفلته أو تغافله ، وذاك بلهوه أو تلاهيه ، فى الوقت الذى كان فيه الخصم المواجه يترقب ويتحفز منقباً عن مناحى الضعف ومعارج القصور لينفذ منها ويباغت هذه الفئات البَشرية التى لم يبق لها من الإسلام إلا الشكليات والمظاهر ، بل والتسميات والمسميات ، ومع هذا لا يُنكر أن من بين هاته الفئات مَن حافظ على دينه واحتفظ بمُثله وقيمه الخالدة ، ولكن تكالبت « الذئاب على خراف » ترعى فى فيافى فتنها وتلوك دسائسها وترتع فى حماسات جاهلية تجاوزها الإسلام بتسامحه وسماحته .

لقد استيقظت الغرائز ، ويقظت الشهوات يزكّى بعضها بعضاً ، وقد كان طبيعياً لهذا الذى ترك غرائزه وشهواته تقوده بلا تقنين ولا معيارية أن ينعكس على ذاته مبرزاً لما فيها من نعرات وترسيبات طفت مرة أخرى بعد أن احتواها الإسلام فى مراحله المشرقة وظهرت لتفجر وتنفجر ، وتدمر وتدمر ، فهى كامنة كترسيب فى الأعماق من الخطأ أن نرى مسيرة الأحداث بمعزل عنها ، ومن البداية ، تعايشت منذ بداية الفتوحات ، مرة تخمد وأخرى تشتعل حسب الظروف والمناسبات وما تمليه الوقائع والأحداث .

وهكذا رأينا كيف كان مصير موسى بن نصير الفاتح وطارق بن زياد ، وإلى أى حد لعبت الدسائس والمؤامرات أدواراً عتمت مسيرة ومصير الأبطال ، بل وشارك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز فى نفس المصير التآمرى ، وما هذه إلا أمثلة

نسوقها ومن بداية الفتح ، فلقد عبرت الصراعات إلى الأندلس مع عبور الفاتحين ولاحقت مختلف مراحل الأندلس وفتراته ، تتنوع ، وتتعدد وتختلف فى رموزها بل وعناوينها ومسمياتها ، ولكن تظل فى جوهرها تُعبِّر عن تعصب وعصبية وحماسات جاهلية قَبلية وعشائرية تصدى لها الإسلام بمُثله السمحة وتسامحه ليتجاوزها ، طارحاً كبديل التعارف والتآلف توطئة للتضامن والالتحام ، تخف نيران العصبية وتهدأ حينما تعلو راية الإسلام ويعمر الإيمان فى القلوب ، فيندفع المسلم مع أخيه المسلم إخاءً فى الله وتفانياً فى إعلاء كلمته ، بنيان يشد بعضه بعضاً ، ولكن النفس البَشرية ليست بالضرورة - وفى كل مراحلها - تتمتع بالتقوى ليفلح مَن يُزكِّيها ، فكثيراً ما يطغى الفجور وتسيطر الغرائز وتنتفخ الذات وتتشخص بدلاً مَن أن تتسامى وتتفانى وتقتنع بما أعطاها الله مطمئنة راضية مرضية .

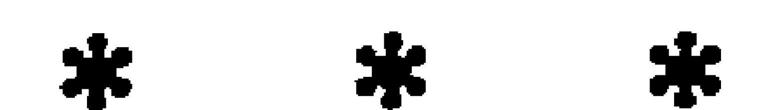
وعبر الأندلس مع ولاته ضروب الفتن حتى إنه فى فترة لا تتجاوز نصف قرن أحصينا من الولاة ما يتجاوز العشرين ، ولم تكن فترة الإمارة بدورها بعيدة عن مواكب الفتن والصراعات ، وقد زكيت نتيجة لتنوع السكان وعدم تجانسهم وتباين انتماءاتهم القَبلية والعشائرية ، ولم تقف موجات الصراع عند فئات دون أخرى ، فعرفت طريقها إلى المولَّدين من أهل الأندلس ، كما عرفت طريقها حتى إلى ساحة الحياة الفكرية بين الفقهاء والعلماء والكتَّاب ، صراعات هنا وهناك ، ودسائس تلقى بفائض من الضحايا وضحايا لضحاياهم ، قاتل ومقتول شُغِلوا بمكائدهم أكثر من انشغالهم بالعدو المتربص والمترقب ليثب من جديد وينقض ، وقد أتاحت له نيران الفتن والمؤامرات والدسائس والكيد والتعصب ممرات يعبر منها ليُزكىً هذا ضد ذاك ، يمد يد التحالف للشقيق مؤلباً له على شقيقه ، يفرِّق حتى يسود ، ويُشعل النيران حتى تنطفىء ، يوقظها بسموم مكائده والقوم فى غفلتهم غافلون ، وبملهاتهم لاهون ، كل يغنى على ليلاه ، وكأننا بالأندلس وقد تحولّ إلى ساحة متعددة المرامى والأطراف ، كل يقذف بما لديه ضارب أو مضروب ، وذهب وانقضى عهد الإمارة وحلّت الخلافة لتهب فى نهايتها مع

رياح سقوطها ، وتتزايد وتزداد رياح الفتن الهوجاء ، تتعالى صيحات الاستغاثة حتى بالخصوم والأعداء ، وتأتى دول الطوائف بمزيد من فتنها وصراعاتها رغم الاحتواء المرابطى لإيقاف مسلسل الخسران والضياع ، ومن بعده الموحدى ، وفى كل فتنة يتقلص جسد الأندلس الجريح ، وتُختزل مسافاته ، ويضيق مجاله ، يتراجع الأندلس رغم استغاثاته وأنَّاته مفتقداً لقواعده التليدة ، فها نحن وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر لهذا الأندلس الجريح كيف أنه وفى نحو ثلاثين عاماً (٦٢٧ - ٦٥٥ هـ) وعبر وابل من الأحداث ، وقد كان يشغل ما يقرب من نصف شبه الجزيرة الإيبيرية انتهى به الأمر إلى رقعة متواضعة تقلص فيها وانكمش ، مدافعاً عما تبقى له مجسداً فى مملكة غرناطة الحبيسة .

أنهت الفتن والمؤمرات ، وقد تزيت برداء العصبية ، متقيئة لحماسات الجاهلية ، على هذا الفردوس الذى غاص ومن البداية فى لجج التمزق ، فردوس أراده البعض متشخصناً متفتتاً يبتلع من المتربص جرعة بعد أخرى ، تلحف بوباء هذه الصراعات بعد أن حملها معه من المشرق مغلّفة فى أعماقه لتنتشر كفعل ورد فعل ، وتتسرب كترسيبات كامنة تنتظر الأزمات لتطفو ، والمناسبات المواتية لتتفجر كجزئيات ، كل ينفرد برقعته ، منصباً لذاته منه وإليه ، وكم كان معبراً عن ذلك ابن حزم القرطبى فى « نقط العروس فى تواريخ الخلفاء » (برواية الحميدى ، تحقيق شوقى ضيف ١٩٥١ ص ٨٣) حينما خطت يداه « أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ، ويُخطب لهم بها فى زمن واحد : وهم خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم ، ومحمد بن قاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بن على بن حمود بمالقة ، وادريس بن يحيى بن على بن حمود بُباشَتَر » .

شتات وتطاحن ، كل يدافع عن موقعه أقدامه ولا يرى أبعد من ذلك ، وغاب الشمول الإسلامى بمعيارية الأخوة فى الله ، لتجاوز كل الحساسيات ، ولِمَ لا ؟ فجور النفس وتطلعاتها الطامعة فى متاع الدنيا وزينتها ، ولم يقف مسلسل التطاحن والصراع ، والتعصب والعصبية ، والشقاق والفُرقة عند حد

الفئات ، وإنما تكثّف وتقعّر حتى وصل إلى حد التصارع بين الشقيق وشقيقه ، بين الابن وأبيه ، وهكذا تقاتل الأبناء والآباء والأخوة والأعمام ، وأشعلت نيران الشقاق فى البيت الواحد ، ونسوق كمثال ننهى به عرضنا عن مآسى الصراع والتعصب ، ولِمَ لا ؟ وقد أنهى الأندلس ومعه غابت شمسه وانطفأ نوره الإسلامى ، ونعنى بذلك ما حدث فى اللحظات الأخيرة لاحتضار غرناطة الحبيسة ، وقد أوردنا ذلك تفصيلاً فيما سَلَف ، ونعود لنُذكّر بما وقع بين ابن عبد الله محمد وبين عمه الزغل ، تحتضر غرناطة وحكّامها بدلاً من الاستبسال والاستشهاد فوق أرضها ، كان كل يسعى ليكيد ويدس للآخر ، الابن وعمه ، ويُسدل الستار بعد رحيل غرناطة من أرض الإسلام ورحيل حكّامها الخاسرين ليلتحقوا بمن سبقهم فى بؤر الضياع بعد أن سقط الغافلون والمتغافلون ، وازدحمت باللاهين والمتلاهين ، وعمرت بالدساسين والانتهازيين والمتآمرين ، وتحوّل الأندلس العملاق من خلالهم إلى نعوش تتدافع فى مواكب الخسران ، ومن خلفها وحولها حملة القماقم من البكّائين والمتباكين ، ممهدين من خلال هذا الموكب الجنائزى لمسيرة عبرت حتى يومنا هذا القرون . وسوف نكتفى فى الحلقة التالية التى سوف نخصصها لاستكمال جولتنا فى بؤرالضياع ، وفى هذه المرة بين هؤلاء البكّائين والمتباكين ، من خلال نماذج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر .



الحلقة التاسعة

فى بؤر الضياع بين البكّائين والمتباكين

وضاع الأندلس وتحوّل ما تبقى منه إلى رُفات يندبها البكّاؤون ، ولِمَ لا ؟ المتباكون ، كل يبكى على ليلاه أو يتباكى عليها ، فهذا ارتبط بالأرض التى روتها دماء عشائره وقبائله ، يفرز عليها الأنّات فى صمت وإصرار ، وذاك يتباكى على ما أضاعه بيده وافتقده بخيانته أو بجهله أو تجاهله ، وتوالت مواكب البكّائين والمتباكين على حد سواء ، صاحبت مسيرة الأندلس عبر ما يزيد عن أربعة قرون قبل ضياعه لتستمر قروناً وقروناً حتى يومنا هذا ، شاعر أو أديب يرثى حاله بحاله ، أو يبكى على ماضيه فى حاضره ، أو على حاضره فى ماضيه ، وعلينا دون أن نغوص ونتحرى الجزئيات فى التوثيق والمتابعة - فهذا عمل نتركه للمتخصصين والمختصين فى هذا المضمار - أن نضرب أمثالاً برزت هنا وهناك من هؤلاء تطالعنا منذ سقوط الخلافة ومعاصرة لها ، من الهوزانى وابن العسال ، مروراً بابن خفاجة وابن الأبار ، ووقوفا عند أبو لبقاء الرندى لما تركه من أنّات فى الأعماق يرددها الحاضر كما رددها الماضى ، ووصولاً إلى لسان الدين بن الخطيب والقيسى وابن عاصم حتى ابن الأزرق . لنرى أمثلة أخرى نشير إليها عرضاً ، ونلتقى فى النهاية مع مَن عاشوا عمق المأساة من المورسكيين وأصداءهم فى كل مكان فى ديار الإسلام ، وبخاصة البقاع التى ألقى إليها بما تبقى من آثار المأساة ، واختلط الباكى بالمتباكى ، وتلك الأيام ندوالها بين الناس .

نُفصّل القول مكررين ما أشرنا إليه سَلَفاً من أننا لن نغوص فى رصدنا للبكّائين والمتباكين « لتنحر كالأعماق » فى كل الأبعاد والأزمنة ، وإنما سنكتفى بالذكر عابرين للتذكير بما ورد على ألسنة هذه النماذج باكية أو متباكية عبرة لمن يعتبر .

فهذا الهوزانى أبو حفص عمر بن الحسن ، صديق المعتضد بن عباد وضحيته فى نفس الوقت (المتوفى ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) ، يحث ابن عباد عقب أحداث هجوم النصارى على بريشتر فى قصيدة جاء فى مطلعها :

أعباد جل الرزء والقوم هجع   على حالة من مثلها يتوقع

(« الذخيرة » لابن بسام ، جـ ٣ ، ق ٢ المجلد الاول ص ٨١ وما يليها)

ويطالعنا ابن العسال (المتوفى فى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) ، هذا الفقيه أبو عبد الله ، يحث أهل الأندلس على الجهاد بعد سقوط طليطلة ورحيله عنها إلى غرناطة بأبيات جاء فيها :

يا أهـــل أندلس حثوا مطيكم   فما المقـــام بهـــا إلاَّ مـــن الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

(« أزهار الرياض فى أخبار عياض » للمقرى جـ ١ ، ص ٤٦) .

ولم تقدم لنا فقط هذه المصادر المعروفة انعكسات البكّائين وزفراتهم ، بل هناك مرثيات ضائعة نُقلت إلى اللُّغة القشتالية وأثبتها بعض المستشرقين كما هو الحال فى المرثية التى نُسبت إلى ابن علقمة محمد بن الخلف الحسن إسماعيل الصدفى (المتوفى فى ٥٠٩ هـ / ١١١٦ م) ، وقد أثبتها له دوزى المستشرق الهولندى المعروف على أنه صاحبها ، ومطلعها بالعربية كما نقلت : « بلنسية ... بلنسية ... مصائب تحدق بك ، أنتِ تحتضرين ، وإذا قُدِّر لكِ النجاة فسيراه عجيباً مَن يعيش ويراكِ » .

(ترجمة طاهر مكى « دراسات أندلسية » ص ٢٧٨ ومايليها) .

وها هو ابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم الأندلسى (المتوفى ٥٣٣ هـ / ١٢٠١ م) ، متأسياً بدوره على بلنسية حينما أحرقها النصارى عند خروجهم منها (عام ٤٩٥ هـ) فى أبيات استعاض من أبى تمام صدر لبيت منها حين قال :

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها   وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها « لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار »

وعجز هذا الشطر الأخير من البيت : « خف الهوى وتولتَ الأوطار » عند أبى تمام .

(« ديوان ابن خفاجة » تحقيق غازى ، الطبعة الثانية ص ٣٥٤)

ومع بلنسية نستمع إلى أنّات ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعى البلنسى (المتوفى ٦٥٨ هـ / . ١٢٦ م) - وقد حرقت كتبه فى حصارها وقادته قدماه إلى تونس استنجاداً حيث كانت القصيدة المعرورفة ، وهى كثيراً ما تسمعها الآذان فى مواقع الاستنجاد والإغاثة إذ يقول فى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلس إنّ الطريق إلى منجاتها درسا

وقد ورد « إنّ السبيل » (يراجع ديوان ابن الأبار ص ٣٩٥ وما يليها) .

وهكذا بلنسية كانت مدعاة لاستنفار ذهنية الأدباء والشعراء وهى تعانى كما كانت تعانى بقاع متعددة من الأندلس ، تستقطع وتبتر الواحدة تلو الأخرى ، وهذا ما حدى باسم معروف وشهير ، يرد على الألسنة حينما تهب الفجائع وتحل النكبت يستعاد مقولته الشهيرة فى قصيدته :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

إنه أبو البقاء الرندى ، وورد عند ابن الخطيب علــى أنه « يزيد بن موسى بن أبى القاسم بن على » ، ويكنيه المقرى فى أزهار الرياض بأبى البقاء (المتوفى فى ٦٨٤ هـ / - ١٢٨٥ م) ، والمناسبة التى قيلت فيها هذه القصيدة الشهيرة هى كما أوردته المصادر ما اقتطعه فرناندو الثالث وحاكمه الأول من أرض الأندلس المسلمة ، وإن كنا نكتفى بهذه الإشارة إلى هذا البكاء لنعود إليه فى الملحقات تفصيلاً ، فذلك لنستعيد شهيراً آخراً غرناطياً يلتقى معه فى الرثاء ، ولِمَ لا ؟ فى شهرة ما ورد فى موشحته الرثائية :

جادك الغيث إذ الغيث همى   يا زمـــان الوصـــل بالأندلس

لـــم يكـــن وصلك إلاّ حلماً   فى الكرى أو خلسة المختلس

هذا لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى اللوشى (المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، والذى يُعتبر بحق من العقول المتميزة والمتواترة فيما قيل عنها ، فهو صاحب الإحاطة وبحق أحاط بعصره ، وكان بذلك صورة معبّرة للمعاناة المزدوجة منه إلى عصره ومن عصره إليه ، واستمرت مسيرة البكّائين لتعبر الأيام والسنين ولا تتوقف ، فهذا محمد ابن عبد الكريم القيسى الأندلسى البسطى وقد شوهد عام ٨٣٥ هـ - كما ورد فى مصادر مختلفة - يرثى بدوره عصره الذى عاش فيه هذا الأندلسى الممزق وهو يتراجع ، يتأسى على شهداء « كائنة لورقة » فى القرن التاسع الهجرى كما تأسى غيره من قبل على ما استشهد فى معارك المواجهة والدفاع عن المعاقل ، وهى تهتز إذ يقول القيسى :

لمصاب أندلس تصوب الأدمع   ولما جـرى فيها تذوب الأضلـع

فلها مـع الأعـدا ء حال تفزع   نقضى بحسرة مَن يرى أو يسمع

(« البسطى آخر شعراء الأندلس » تقديم ابن شريفة ص ١٧٢) .

وهذا ابن الخطيب الثانى كم كان يُنعت ونعنى به ابن عاصم الغرناطى أبو يحيى ، قاضى الجماعة بغرناطة ، عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، حيث شوهد بدوره - كما ورد بعض المصادر - عام (٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م) على قيد الحياة ، إنه يندب احتضار الأندلس فى نزعاته الأخيرة من خلال كتابه « جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى » ، حيث ورد على لسانه فى هذا الكتاب - كما ذكر المقرى فى « أزهار رياض » (جـ ١ ص . ٥ وما يليها) - قوله : « ومَن استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة ، علِمَ أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا فى المسلمين ثأراً ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخربوا من الجزيرة منازلاً وديارا ، ولم يستولوا عليها بلاداً

جماعة وأمصاراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف » .

وغرناطى آخر قاضٍ للجماعة أفرز أنّاته الجريحة حين نزول الأعداء بمرج غرناطة ونعنى به ابن الأزرق ، محمد بن على بن محمد الأصبحى (المتوفى ٨٩٦ هـ / ١٤٩١ م) ، فى قصيدة له يرى أنه لم يعد من رجاء إلاّ فى الله حيث يقول :

وكن راجعاً لله فى كل حالة   فليس لنا إلاّ إلى الله مرجع

(« نفح الطيب » جـ ٢ ، ص ٧٠٣ وما يليها) .

ودون أن نسترسل تفصيلاً فى ذكر مَن بكى على أندلسه الضائع ، التزاماً منا بما حددناه من إطار لنماذج على سبيل المثال لا الحصر ، وإلا سوف يدفعنا الحصر إلى البحث عن مَن أفرزوا أنّاتهم فى أعماقهم وهم يلاحظون المأساة دون أن يخطونها فى أبيات أو جُمل ، فقد خطتها القلوب الحزينة فى أعماقها ، والتقى فى ذلك مَن شاهد بداية التراجع مع مَن شاهد نهايته واندحار الأندلس من داخل أو خارج الدار ، من ابن رشيق إلى ابن فرقد ، وغيرهم الكثير ، لو توخينا الإحصاء والتقصى لانعكاسات هذه المأساة التى لم تقف أصداءها عند حد ومجال مَن عاشها فى أرضه ، وإنما شعّت وأشعت بهمومها لتغطى بلاد الإسلام جمعاء بدءاً بالمغرب المسلم المضيف ، وكيف بدوره رأينا من بين صفوفه مَن لا يكتفى بتقبل واستقبال هؤلاء الخاسرين الضائعين ، وإنما يشاطرهم الهموم والأحزان ، يكمل ببكائه بكاءهم ، ويغذى بدموعه نهر دموعهم .

لم تقف مشاعر المعاناة عند حد المورسكيين كمحور بعد الضياع ، وإنما التقى فى محيطها كل مسلم يشعر بكارثة الاندحار والضياع ، ومع هذا ، وفى هذا الجو الجديد بكل خشوع وانحناء أمام كل مَن غذى أرضه بدمائه الطاهرة ، نرى قلة ممن لم يكتفوا بالتنكر لها ، وإنما تنكروا لضمائرهم وإيمانهم ، يتباكون على الذى أضاعوه بأنفسهم . إننا لا نصنفهم فى ملء البكّائين النزهاء فى

عواطفهم المخلصين فى أناتهم ، وإنما هم زمرة من الضائعين المضيعين من الانتهازيين الوصوليين الذين يلبسون لكل موسم رداءه ، لبسوا رداء الخيانة ليلبسوا بعد ذلك رداء التسول والاستجداء ، وسنكتفى من هذه الزمرة بمثال ، هذا الملك الضائع آخر ملوك غرناطة ووزيره ، لنشير إليه قبل أن نكمل جولتنا فى بؤر الضياع بين ما تبقى من أمثلة للبكّائين المورسكيين قلب المأساة ومَن تداعى معهم عبر المشاعر الإيمانية والإخاء فى الله ، بدءاً من المغرب الأقصى وبقية بلاد الإسلام فى الماضى والحاضر على حد سواء ، حتى المتداعى مع الأندلس الذى تساكن فيه .

ونعود إلى آخر ملوك الأندلس المتباكى كبكاء الأطفال على مُلك لم يرعاه رعاية الرجال ، إنه محمد بن أبى عبد الله بن على بن الحسن بن سعد بن على بن يوسف بن محمد الغنى باللّه النصرى ، وقد أطنبنا فى نسبه متتبعين له ، هذا النسب الذى لم يرع حُرمته ولم ينتصر له وهو النصرى مستشهداً فى سبيله ، وإنما هالكاً فى منفاه حيث وافاه الأجل (عام ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م) فى فاس بعد معاناة وحرمان مورثاً لأعقابه ما تبقى من أسرته ، بدلاً من المجد والرفعة والجاه ، ذل التسول والمعاناة (كما شاهد ذلك صاحب نفح الطيب) - لقد التجأ ووزيره العربى العقيلى لأبى عبد الله الشيخ زعيم بنى وطاس بعد أن سلّم غرناطة الصامدة تسليم الخانعين مكتفياً بترديد شعارات تغطية الهزائم والنكبات ، وما أشبه اليوم بالبارحة ، فذكرت المصادر الكلمات الأخيرة التى كان يلوكها لسانه المتوسل المستسلم : « اللّه أكبر ، لا إله إلاّ اللّه ، محمد رسول اللّه ، ولا راد لقضاء اللّه ، تاللّه لقد كُتِبَ علىّ أن أكون شقياً وأن يذهب المُلك على يدىّ » فما كان من جوق المرتزقة الخاسرين الملتفين حوله من رجاله إلا أن كرروا : « اللّه أكبر ، ولا راد لقضاء اللّه » .

صيحة التكبير ليس مكانها فى بؤر الاستسلام والضياع ، ولكن هى صيحة ساحة المواجهة والتعبئة والاستشهاد ، لم يكتف هذا الملك الضائع بمخادعة

عشيرته وأهله ورعاياه ، وإنما تطاول ليخادع الله .. ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [1] .

وهذا وزيره العربى العقيلى بدوره ، وهو محمد بن عبد الله ، يشير لنا المقرى (فى « أزهار الرياض » جـ ١ ، ص ٧٢ ومايليها) ، كيف تباكى على أندلس أضاعه بيده أمام الملك الوطاسى بالمغرب فى عرض ارتزاقى أسماه « الروض العاطر للأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » ، حيث جاء على لسانه من بين ما جاء عبر عبارات التسول والاستجداء قوله :

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن　　　جار الزمان عليه جور منتقم

ولنا عودة فى ملحقات هذا الحوار لهذا الوزير المستجدى وملكه الضائع ، نوردها لما فيها من عبرة لمن يعتبر .

وقفنا قليلاً مع هذا الأنموذج لمن أطلقنا عليهم المتباكين ، ونسترسل فى تجوالنا الآن عبر بؤر الضياع بين البكّائين وذلك لنعرف ما أمكن وفى إطار هذه الإشارة المركزة ، بأمثلة ممن عانوا عمق المأساة ولم يتباكوا عليها ، وإنما ذرفوا الدموع الزكية تحت أنقاض أندلس النكبة مصممين وصامدين ، وليس لهم من وسيلة إلا قناعة الإيمان والإصرار على الهوية والانتماء ، وإن كانت جماعات منهم تحت ثقل وضغوط الغزاة وأمام موسوعة اليأس والطريق المقفول أن يقفزوا من تحت الأنقاض هاربين بدورهم لاجئين إلى أرض للهجرة والإيواء .

وهكذا اختلط ، فى المورسكيين ، الباكى فى عقر الدار مع المتباكى من خارج الديار ، باحثاً عن منقذ لما تبقى له فى الحياة كلاجىء فى بلاد الإسلام ، إما فى أقرب البقاع له ، أو جائلاً فى بقية البلاد المسلمة والأصقاع . وقد كان طبيعياً أن يكون لهذه المأساة أصداء فى مختلف الأرجاء الإسلامية بدءاً بأقربها كالتى أسهمت فى فترات مختلفة فى عملية الإنقاذ ، أو إيقاف التنفيذ لضياع الأندلس ،

---

(١) النساء : ١٤٢

كما هو الحال – على سبيل المثال – مع مغرب المرابطين والموحدين ، فلم يكتف المغرب المسلم بالمشاركة فى المواجهة وتدعيم مواكب الصمود والإصرار ، وإنما حتى بعد وقوع الكارثة شارك باستضافته ومشاعره الإيمانية فى تحمل آثار النكبة والمعاناة ، والحث على الجهاد لاسترداد ما افتقد ، فهذا البهلولى وهو أبو عبد الله بن محمد بن يحيى وقد كان على قيد الحياة (عام ٩١٠ هـ) ، يحث الوطاسى على استرداد ليس فقط الشواطىء المغربية وإنما الأندلسية (كما نقل لنا فى الاستقصا ، للناصرى ، الجزء الرابع ص ١١٢ ومايليها) حيث يقول فى مطلعها :

قـــم للجهـاد رعاك الله منتهجا نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا

من بعد أندلس ما زلت محتدما لو كان يمكننـــى فـى الليل أحتزمُ

وذاك الشاعر الذقون أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي (المتوفى ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م) وهو معاصر بدوره لهذه الأحداث يقدّم لنا فى قصيدة طويلة تحمل تسمية « الموعظة الغراء » افتتحها بقوله نثراً : « إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء لأخذ الحمراء ، قرعت باب الندبة لما تقدم من الصحبة» ليضيف بعد ذلك شعراً :

فالموت عندى خير من حياة فتى قد اكتسى بعد عز ثوب إذلال

(« أزهار الرياض » ، للمقرى جـ ١ ، ص ١٠٤ وما يليها) .

ومثال آخر لمغربى مكناسى هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان (المتوفى حوالى ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م) ، يتأسى بعد أن ساهم كسفير فى فك أسرى مسلمين لدى ملك أسبانيا كارلوس الثانى فى كتاب يحمل هذا الاسم « الإكسير فى إفكاك الأسير » (تحقيق محمد الفاسى ص ١٢٧ وما يليها) حين مشاهدته لمكتبة الاسكوريال وما فيها من مخطوطات عربية قائلاً : « فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحزان بفؤادى ، ونادت بالثارات فلم يأخذ أحد بثأرها ، ياليتى لم أرها .... » .

وبدوره مفتى فاس ، وهو أبو محمد بن عبد الواحد البوعنانى ، المعاصر للمولى إسماعيل (١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م) يخاطبه حين فتح العرائش فى قصيدة جاء فيها :

أيا مولاى قم وانهض وشمِّر لأندلس فأنت لها الأمير

(« تاريخ سبتة » ، محمد بن تويت ، ص ١٩٦ وما يليها)

ولعل الموركسيين وقد تجسد فيهم وبهم المشهد الأخير قبل إسدال الستار على الفردوس المفقود ، بضياع ما تبقى من الأرض ، ودفن مَن تبقى تحت الأنقاض من الرجال وما أكثرهم ، بل ظل منهم مَن يجاهد محاولاً دون يأس أو قنوط لاستعادة كجيوب للمقاومة فى مناطق حول غرناطة لتنمحى رتستسلم عبر فترة تجاوزت الثمانين عاماً من الاحتضار لهؤلاء الرجال بعد الضياع ومطاردة مَن لُفظوا خارج الديار حتى لجوئهم إلى ديار الإسلام ، يمثلون بحق قلب المأساة ، فقد كانت الأحداث من القسوة عليهم إلى حد المحو والإلغاء أو فقدان المرجعية والانتماء .

وهكذا ظهرت لنا منهم فئة بكّائية مجهولة الهوية ، فيها الشعراء والمؤرخين وأصحاب الرسائل الموجهة إلى السلاطين : هذا شاعر مجهول نظم مؤرخة فى عام (٣٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ، عام النكبة ، يبكى فيها ضياع غرناطة وغيرها من البقاع الأندلسية .

ومؤلف مجهول يخط كتاباً بعنوان : « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ، بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً ، وجاء فى نهاية ما خطّه من الأخبار (طبعة العرائش ١٩٤٠) قوله : « عَمَّ الكفر جميع القرى والبلدان ، وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، وعلى هذا فليبكى الباكون ، وينتحب المنتحبون ، فإنَّا للَّه وإنا إليه راجعون » .

ومجهول موركسكى بدوره يتوجّه إلى السلطان بايازيد الثانى العثمانى برسالة نثراً وشعراً حوالى عام (١٥٠٥ م) ، يشرح فيها واقع المعاناة ، وقد مالت بعض

المصادر فيما يعنى هذا المجهول (مثال عنان فى « نهاية الأندلس » ص ٣٤٦) إلى أن يكون أندلسياً متنصراً يستغيث من المطاردة والعقوبات ، وأعزت مناسبة توجيهها إلى ما حدث عقب ثورة البشراة وما تلاها من قمع فى سنة (١٥٠٥ م) . بل ليست هى الرسالة الوحيدة التى وجهت إلى السلاطين فى هذا المضمار ، فهناك رسالات واستغاثات وصيحات لمجهولين يئنون تحت أنقاض الأندلس ، أو لاهثين فى ممرات الخسارة والضياع ، فضلاً عن المعلومين بأسمائهم من المورسكيين المهاجرين ، الفارين بدينهم إلى ما تبقى من ديار الإسلام ، كمثال : محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى المتوفى (١٠٥٢ هـ / ١٦٥٢ م) ، وقد آوى إلى تونس بعد الرحيل ، وألّف كتاباً بعنوان « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، يشرح فيه واقع المعاناة التى عاشها المورسكيون ، وتطبيقهم الخفى للشعائر الإسلامية رغم قساوة أعداء الدين وممارستهم للقهر والتسلط .

ومثال آخر لمورسكى مهاجر ، وهو أفوقاى أحمد بن قاسم الحجرى ، وقد ذُكِرَ أنه كان على قيد الحياة عام (١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م) وكان رحيله إلى المغرب بعد مأساة الخروج من الأندلس ، ونجد أصداءً لهذه المأساة فى مؤلَّف له بعنوان « ناصر الدين على القوم الكافرين » ، وهو مختصر لرحلته « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » ، وهذا المهاجر إلى حد ما كان أفضل حالاً من بقية المهاجرين والمعانين حيث تولى السفارة متجولاً فى مختلف المناطق باسم السلطان السعدى ، وأثبت فى رحلته العديد من الأمور التى كانت معاصرة له آنذاك ، مما يجعل آثار المورسكيين المهاجرين وما كتبوه وما صوّروه ، بل وما قدّموه عن مأساة الأندلس جدير بكل اهتمام ودراسة ، خصصت لها العديد من المؤسسات : أسبانية وعربية على حد سواء ، مكانة متميزة فى ميدان البحث والتنقيب ، فهذا على سبيل المثال معهد فرناندو الكاثوليكى بسرقسطة ينشر لنا أخيراً (عام ١٩٨٨) دراسة طويلة قام بها (Pans) عن المورسكى إبراهيم التجبيلى ، وهو من مواليد طليطلة ، طرد مع المورسكيين وكان عمره ثلاثين عاماً من

أسبانيا (عام ١٦٠٩ م) ، ورحل إلى تونس وله مخطوطتان ، إحداهما توجد فى أكاديمية التاريخ ، والأخرى فى المكتبة الوطنية فى مدريد ، يروى هذا المورسكى شهادته كطريد ، والظروف التى أحاطت بمأساته قبل رحيله بعد أن يأست المحاولات المتعددة من تحويله عن دينه وإلزامه بالمسيحية ، فلم تُحترم المواثيق الخاصة بصيانة حقوق المسلمين بعد سقوط غرناطة ، فتنكر فيليب الثالث لما وقَّعَ عليه ، كما تنكر فيليب الثانى من قبل فى نقضه للمواثيق ، وما كان من تقييد لحريات المورسكيين واضطهاد لهم ، بل لم يكتف بمطاردة وطرد البَشر ، بل طوردت اللُّغة العربية وطردت بمنعها وبشكل نهائى وإلزامى ، من التدوال ، بل إلزام المورسكيين بزى النصارى ، وأن تكشف النساء عن وجوههن ، حتى الأفراح فرضت أن تكون بالطريقة المسيحية ومنع استعمال الأسماء والألقاب العربية ، حتى الحمَّامات العامة طولب بهدمها ، وكم كان غريباً أن يصل التطاول فى قهر الحريات إلى الشكليات فى حد ذاتها ، إذ مُنِعت المورسكيات من تزيين أيديهن بالحناء !!

وهكذا عاش أبطال المحنة المورسكية قبل مأساة الطرد (عام ١٦٠٩ م) وما زالت هذه المأساة للمورسكيين تحظى باهتمام الباحثين - كما أشرنا - من العرب والأسبانيين سواءً بسواء ، تُنشر المخطوطات وتُعقد المؤتمرات للتعريف بما استجد حول هذه الفترة الرهيبة بعد ضياع الفردوس المفقود ، فنشير - ودائماً على سبيل المثال لا الحصر- إلى ما جاء فى بحث نُشِرَ حديثاً تحت عنوان « تطبيق المورسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية (١٤٩٢ - ١٦٠٩ م) ، وهو خلاصة لأعمال المؤتمر العالمى للدراسات المورسكية وما أُلقِىَ فيه عام ١٩٨٧ من بحوث حول ثورة المجاهد المورسكى سليم المنصور ، ومقاومة المورسكيين لمحاكم التفتيش ، والتطبيق الخفى للشعائر ، (ورحلة المورسكى الحجرى وقد أشرنا إليه سلفاً) .

وكم يبدو غريباً بل وملفتاً للنظر وداعياً للتأمل ، موقف الإسلام من الآخرين أمام موقف الآخرين من الإسلام ، وخير مَن يُجسِّد لنا هذه الغرابة ويُعمِّق لنا

طبيعة التأمل حول هذا المسلم الذى يغوص فى أعماق التخفى والتقنع ليمارس ما تبقى له من رموز تؤكد له هويته وإصراره على ذاته فى فترات تحجيمه وتقليصه أمام طغيان المنتصر والسائد والمسيطر ، وهذا المسلم من أجداده الذى كان وهو فى قمة إشراقه ومجده لا يقف عند حد السماح للآخر بزوالة شعائره والاعتزاز بخصوصياته ، وإنما بسلوكه المتفتح السمح ، المعطاء ، يجعل هذا الآخر إن لم يك مندمجاً ومتكاملاً معه ، فعلى الأقل ساعياً إلى ربط مصيره بمصيره ، متأسياً على تراجعه فى الأندلس ، وكأنه يتأسى على ذاته ، وكمجرد مثال يُعطى فى هذا المضمار هذا الإشبيلى إبراهيم بن سهل (المتوفى ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) .

وقد كان على الديانة اليهودية أولاً ، وعاش مع المسلمين وتأسلم وتعايش معهم ، وكان شاعراً من شعراء إشبيلية ووشاحاً ، فضّل الهجرة منها أثناء احتلالها من طرف الأسبان سنة (٦٤٥ هـ) راحلاً إلى سبتة ، والذى يعنينا ما جاء فى قصيدته عن إشبيلية حينما حاصرها الأسبان ، وفيها يحث أمراء العرب على إنقاذها ، جاء فى مطلعها :

يامعشر العرب الذين توارثوا بشيم الحمية كابراً عن كابر

إلى أن قال :

أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد فى قديم الأعصر

يهودى تأسلم بمشاعره ، بل وتلاحمه ، يدق ناقوس تراجع الأندلس وارتداده كما دقّه شعراء وأدباء العرب ، وأعطينا العديد من الأمثلة لهؤلاء الباكين على أفول شمس الأندلس عبر مختلف مراحل التقلص والانكماش منذ سقوط الخلافة ، وعبر ما يزيد عن أربعة قرون ، حتى ضياع الرمز الأخير للصمود فى الأندلس ، غرناطة الحبيسة ، ربعمائة عام من البكاء انتهى لدى البعض فى النهاية إلى التباكى ، ولم يلتئم جرح الأندلس كفردوس مفقود ، فجاءت خمسة قرون بعد ذلك حتى يومنا هذا ، وما زلنا ننشد هذا الفردوس المفقود شعراء وأُدباء على مر

العصور فى مشرق أمة الإسلام ومغربها ، كل يعبر عن مشاعره الفيّاضة نحو هذا الأندلس العريق ، هذا الأندلس الماضى فى الحاضر والحاضر فى الماضى ، كما بكاه منذ قرون الهوزانى وابن العسال حتى ابن عاصم وابن الأزرق ، مروراً بابن الأبار وابن الخطيب وغيرهم من المعاصرين له ، ها هو اليوم يبكيه معاصرون لنا أمثال أحمد شوقى وعزيز أباظة ، وغيرهما الكثير والكثير ، والقائمة تطول بنا لو توخينا الحصر والإحاطة .

لقد بقى الأندلس رغم افتقاده ، افتقدناه كأرض ولم نفتقده كتراث يسطع ويتألق كصفحة مشرقة فى تاريخ أمتنا بقلاع مجده المجسدة فى أبطاله من المجاهدين ، فاتحين مرابطين ، موحدين وصامدين ، كما هى مجسّدة فى قلاع مجده من المجتهدين والمبدعين ، فقهاء وفلاسفة وأدباء ، برزوا فى الشعر والنثر على حد سواء ، وعلماء ورحّالة ومؤرخين .

وسوف نتناول ، وفاءً منا لهذا الجانب المشرق من الأندلس - فى الصفحات التالية - قلاع المجد هذه عبر جولة فى أرجائها مؤكدين أن هذا الأندلس كما عرف بؤر الضياع التى آلت به إلى التراجع والانهيار والاندحار ، عرف قلاع المجد التى ظلت كتراث وحتى يومنا هذا ، معالم بارزة للمرجعية والإحالة ، ولنبدأ بجولتنا فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين : فاتحين ومرابطين وموحدين وصامدين .

* * *

الحلقة العاشرة

فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين

(فاتحين ، مرابطين ، موحدين ، مرينيين ، ومصامدين)

بؤر الضياع لم ولن تحجب قلاع المجد ، ودموع الباكين أو المتباكين رغم استمراريتها ، وكثافتها وتنوعها ، لم تُذرف فقط على الفردوس المفقود ، وتُسكب عبر أنَّاته المتلاحقة قبل وأثناء احتضاره وبعد ضياعه ، وإنما بكت الأبطال الذين استبسلوا دفاعاً عن راية الإسلام فى الأندلس مستميتين فى سبيل إعلاءها والاندفاع بها فى كل اتجاه فاتحين ، ولاة وأمراء وخلفاء ومرابطين وموحدين ومرينيين منقذين ومتجاوزين بهذا الأندلس أزماته ، ومتلاحمين مع الصامدين فوق أرضه فى فترات التراجع والتردى حتى الرمق الأخير خلف أسوار غرناطة الحبيسة وهى تعانى فى سكرات الموت من الطفيليات داخل جسدها ، استكمالاً لهجمات عدو شرس عرف كيف يستغل الظروف لصالحه ويحقق وحدته على حساب تفتيت وحدة المسلمين حتى فى داخل الأسرة الواحدة ، ولنستعيد رموزاً من هؤلاء الأبطال فى مختلف الفترات وعلى التوالى ، لنذكر لمن لا يريد أن يتذكر أن أزمة أُمة لا تعنى بالضرورة نهايتها وفناءها ، وإنما هى معارج بين كَرٍّ وفَرٍّ ، مهزوم الأمس منتصر اليوم . وهكذا دواليك ، ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [1] ، مصداقاً لقول الحق سبحانه .

فحينما نفرد هذا الفصل لجولة فى قلاع المجد مع الأبطال المجاهدين ، فذلك حتى لا نجعل من بكاء الباكين والمتباكين قاعدة لمسيرة الأمة ، وإنما هو صدى لوعكة من وعكاتها ، ولِمَ لا ؟ فمَن هذا الذى يغفل أو يتغافل ، يجهل أو يتجاهل « طارق بن زياد » ، و« موسى بن نصير » ، وهذا المعافرى « طريف بن مالك » ، المعروف بأبى زرعة ، وبهم نبدأ جولتنا عابرين هذه القلاع .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

دون الدخول فى تفاصيل قد تجد مكاناً لها فى العرض التاريخى للأندلس منذ فتحه بما فى ذلك التمهيد لهذا الفتح والعبور ، يمكننا أن نشير وفى إطار تراتبى ، إلى أن قلاع المجد لا يمكن أن يغفل حين استعراضها مَن شكلوا الإرهاصات الأولى لها أو حملوا راية التصدر لمواجهة المجهول ، وبكل عزيمة وثبات وصبر ، فهذا « طريف بن مالك المعافرى » الملقب بأبى زرعة ، والمستطلع لأبعاد وآفاق العبور ، إلى جانب الاتصالات التى تمت بين القوط ، يليان كمثال الذى اتجه إلى الفاتحين لا حباً فى الإسلام ، وإنما لتصفية حسابات فيما بين القوط . لقد كانت الأرضية رغم صعوبة التعامل معها تحث هذا الذى عبر الشمال الإفريقى داعياً ومبشراً بالإسلام على أن يكمل مسيبرته ، فدعوة الإسلام غير محدودة بمكان أو زمان ، ومن ثَمَّ كان طبيعياً بعد أن وصل دعاة الإسلام إلى ما وصلوا إليه ، وأصبحوا على مشارف المحيط الأطلنطى ووجهاً لوجه مع الجزيرة الإيبرية وليس من فاصل إلا البحر ، أن يعبره بدوره ، فلن يكون بمياهه أشد قساوة من رمال الصحراء الحارقة ...

وقد كان ، فبعد أن نزل « طريف » بجزيرة بلوما التى باتت بعد ذلك تحمل اسم « طريفة » نسبة لطريف ، كان الفتح فى عام (٩٢ هـ / ٧١١ م) بريادة المدشنين لقلاع المجد « موسى بن نصير » و « طارق بن زياد » .

لقد اختار « موسى بن نصير » طارق بن زياد ، من بين قوّاده للعبور ، ولقد غلّف هذا العبور فى العديد من أساطير البطولة وبإطناب ، بل ركز كثيراً على خطبة طارق الشهيرة فى مواجهة البحر ، واختلفت المصادر التى حملت إلينا وقائع العبور بين مركِّز على جانب أو جانب آخر ، بين سارد أو مطنب ، بين مَن ينسب الخطبة الشهيرة لطارق أو لغيره ، ومع هذا الذى يعنينا هو أنه قد تم العبور ، عبور البطلين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، حمل إلينا التاريخ ما يرمز لاستمرارية هذا الحَدث فى صفحاته وآثاره ، فهذا جبل طارق فضلاً عن تسميات أخرى متعددة لأماكن أخرى فى الأندلس ، تؤكد لنا أن مواكب الأبطال لم تمح بصماتها ولن تمحى .

وتتابع الزحف لا للتخريب والتدمير ، ولكن زحف المبشرين بعصر جديد تحت راية الإسلام ، راية التسامح والهداية وإنقاذ الإنسان ، وقد كان طبيعياً أن تكون هناك مقاومة ومواجهة ، بل ومعارك فاصلة كمعركة « وادى لكة » وغيرها ، وكانت المعارك تنتهى فى أغلب الأحيان بهزيمة القوط وتراجعهم ، واستمر طارق فى زحفه محاصراً وفاتحاً حتى وصل إلى إشبيلية وقرمونة ، ثم دخول موسى وطارق إلى مدينة طليطلة ، عاصمة القوط آنذاك ، ولقى ملكهم « لذريق » مصرعه ، على يد « مروان بن موسى » ، وتوبع الفتح بقيادة البطل طارق نحو سرقسطة ، وتقاسم طارق وموسى قيادة جماعات المسلمين المدعّمة بالوحى الحق وبنور السماء - بعد والده - المسيرة ليكمل عبد العزيز بن موسى فاتحاً غرب الأندلس (البرتغال حالياً) ، وجنوب شرق الأندلس ، منظماً وواضعاً للأسس التى تسير عليها المناطق التى دخلت تحت راية الإسلام ... طارق بن زياد وموسى بن نصير سيظلان رمزان مشرفان لقلاع مجد هذه الأمة بغض النظر عما لحقهما من معاناة فى النهاية نتيجة الفتن والدسائس .

وهذا « السمح بن مالك الخولانى » المجاهد ، الفاتح والزاحف والمستشهد فى يوم الوقوف على عرفات (عام ١٠٢ هـ) يُذكر أيضاً من بين الأبطال كما يُذكر الغافقى كقائد من قوّاد المسلمين فى الأندلس ، جاهد وناضل ، والحرب كَرٌّ وفَرٌّ ، مَن كان قد انتكس فى معركة « بلاط الشهداء » ، فلم يتراجع منها هارباً أو مبرراً لنكسته ولهزيمته عبر الشعارات ، وإنما مستشهداً وراوياً الأرض بدمائه فى « غالة » وفى رمضان ...

ومع مواكب الأبطال فى قلاع المجد نقف قليلاً لنُذكّر بهذا الصقر « صقر قريش » ، والنعت كما روته مصادره التاريخية جاء على لسان الخليفة جعفر المنصور حينما ذكر « عبد الرحمن بن معاوية » الداخل الفاتح « المعروف بقوة بأسه وشجاعته ومواجهاته القادرة فى كل الجبهات » قال جعفر : أخبرونى عن صقر قريش من الملوك ، قالوا : ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكّنَ الزلازل ، وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال : ما قلتم شيئاً ، قالوا : فمعاوية .

قال : لا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ما قلتم شيئاً ، قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصَّر الأمصار ، وجنَّد الأجناد ، ودوَّن الدواوين ، وأقام مُلكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ... إن عبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيَّد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطَّدَ الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين ، فقال الجميع : صدقت واللهِ يا أمير المؤمنين » (عن ابن عذارى « البيان المغرب » جـ ٢ ص ٨٨ - ٨٩) .

بطل أموى يشهد له خليفة عباسى ، يتصدر فى قلاع المجد متميزاً فى هذه الفترة التى عرفت آخرين جاهدوا محاولين احتواء الفتن ، متدافعين مع الخصوم والأعداء ، رافعين لراية الجهاد كـ « هشام الرضى » ، و « الحكم الربضى » الذى قضى على ثورة « أهل الربض » بقرطبة ، وإليها تنسب التسمية ، وعبد الرحمن الأوسط ، ومحمد بن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن الناصر الذى سمى بالخليفة ، والمنصور بن أبى عامر ، كانوا كل حسب ظروف وضعه وطبيعة الأحداث التى عاصرته ، يجاهد ويواجه الثورات والفتن ، دفعاً عن استمرارية الأندلس وتحاشى تمزقه وانفجاره ، ثورات هنا وهناك ، وفتن وتربص من الأعداء ، ومع هذا فتحت الحصون ، وسجلت انتصارات تلو انتصارات فوق أرض أندلس ، هذا الأندلس الذى كان عليه أن لا يغفل عن المتربص به من أعدائه بقدر عدم إغفاله لمكنونات ذاته ، التى كثيراً ما كانت تعانى من طفيلات الفتن ونزعات العصبية والأنانية الضيقة للانتماء ، ولعل هذه الأحداث متكاملة دفعت بأندلسنا المتأزم إلى التطلع نحو الجنوب ، نحو مغرب المرابطين المنقذ ، لمساندته باسم الإخاء والتكامل تحت راية الإسلام ، وقد كان ، فهذا أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين الذى لم يكتف بتوحيد راية الإسلام فى المغرب حتى تخوم السودان وإفريقيا السمراء فى امتداد شاسع ، ويؤكد ما لسماحة الإسلام وتلقائيته وبساطته من تقبل وتعاطف لدى كل الفئات والشعوب ؛ وإنما زحف إلى الأندلس

منقذاً أو موقفاً لتنفيذ تراجعه وارتداده وتقلصه ، ولحقبة من السنين ، رغم ما كان ينخر فى جسد هذا الأندلس من فتن وصراعات وتطاحن حول السُلطة ومن أجل السُلطة ، وتفش للتعصب والعصبية عبر مختلف الضروب والقنوات ، ومع هذا كان إصرار يوسف بن تاشفين على أن يتواجه مع مختلف الأعداء والخصوم والمارقين عبر هذا الصرح المتهاوى ، ليشده ويعيد إليه إيقاعه وتجانسه ووحدته ، متحدياً لكل الصعوبات ، فهو الذى قال حين التقى بالمعتمد : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان توجهت » (كما جاء فى المعجب ، لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٣١ - ١٣٢) .

وكذا خلال إقامته القصيرة فى إشبيلية بعث إلى ملوك الطوائف يستنفرهم للجهاد ، وكان أول مَن لبى الدعوة عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وغيره ، وكانت كما هو معروف « معركة الزلاقة » يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م) ، التى آلت رغم تفوق الأعداء وتحديهم فى النهاية لتصبح لصالح الجيوش الإسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين ، الكهل المتصدر بنفسه ، مؤكداً بذلك على مصداقية إمارته للمسلمين ، ومستجيباً لكل مَن دعوه للدفاع عن الإسلام وإنقاذ الأندلس من أهل العلم بالمغرب والمشرق على حدٍ سواء ، كمجرد مثال : الغزالى وأبو بكر الطرطوشى وغيرهما ، ولم تُثْنِ أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين وفاة ابنه أبو بكر فى مراكش عن جهاده من أجل إنقاذ الأندلس مبرهناً على أن دوره كقائد أمة ، متجاوزاً لدوره كرب للأسرة (راجع الحلة ، لابن الأبار ، جـ ٢ ص . . ١) .

كذلك نتذكر باعتزاز لهذا القائد ما أوردته المصادر التاريخية (وفيات الأعيان - كمثال وغيرها) بخصوص رسالته التى بعث بها إلى قائد جيوش عدوه ويقول فيها : « بلغنا يا اذفونش أنك نحوت (أو دعوت - كما جاء فى وفيات الأعيان) الاجتماع بنا ، وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد جُزناه إليك ، وجمع الله فى هذه العرصة بيننا وبينك وترى عاقبة ادعائك :

﴿ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ » [1] . اشتد غضب ألفونسو بعد قراءته ، وقال من بين ما قال : « قل للأمير : لا تتعب نفسك ، أنا أصل إليك وإننا سنلتقى فى ساحة المعركة » ... وكانت له جولات وجولات بعد معركة « الزلاقة » دفاعاً عن أرض الإسلام فى الأندلس ومن بعده ابنه أبى الحسن على بن يوسف ، ومعركة « اقليش » حول طليطلة ، ولقد سميت المعركة بمعركة « الأقماط السبعة » أى الأمراء السبعة وهنا « معركة أفراغه » ... واستمرت ذُرِّيَّة ابن تاشفين فى اهتماماتها بالأندلس رغم كل التحديات فى الداخل والخارج ، مقدمة بذلك صفحة مشرفة من صفحات التاريخ نستعيدها ونعيدها على الأذهان باعتبار أن أبطال الأمة مهما تداول التاريخ أيامه يظلون معالم مضيئة لا يخبو نورها على مر الأعوام والسنين مصداقاً لقول الحق : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [2] ...

هذا هو حال يوسف بن تاشفين ، وأبنائه من بعده ، كممثلين للمرابطين فى جهادهم ، وكقلاع مجد فى الأندلس ، فكيف كان حال الموحدين من بعدهم ؟

تبنى الموحدون بدورهم الدفاع عن الأندلس والمواجهة فوق أرضه ، سواء مع عبد المؤمن ومن بعده ابنه سعد الذى تواجه مع النصارى فى موقعة الجلاب (عام ٥٦٠ هـ) إلى جانب التصدى للفتن والصراعات التى ما انفكت تختفى لتظهر ، وتنطفىء لتشعل هنا وهناك فى بقاع الأندلس وفتراته المتعاقبة .

ولا شك أن البطل يوسف بن عبد المؤمن الذى خرج ليواجه بدوره الخصوم والأعداء فى ناحية قلعة رباح يستحق إشارة لنعرف بما رواه (صاحب الاستقصاء الناصرى ص ١٥٠ - ١٥١) وكيف كانت نهاية هذا الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن التى شاءت التوجهات التى فُهمت خطأ أن تضعه وجهاً لوجه مع العدو الذى انفرد به بجوار حصن شنترين ، حيث بارز النصارى ولم يتهرب أو يتراجع ، محاطاً بقلة من عبيده وحشمه ، وحينما وصل العدو إلى مكانه برز له

---

(١) غافر : ٥٠ .   (٢) الرعد : ١٧

وقاتل بسيفه وقتل ستة من أعدائه ، ولكنه طُعِنَ طعنة غادرة نفذت فى جسده ، ومع هذا كانت نهاية المعركة لصالح البطل يوسف بن عبد المؤمن الذى يذكّرنا بطل آخر من أبطال هذه الأمة المعتزة بإسلامها بفضل رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ، ساعين إلى الشهادة والاستشهاد فى سبيل ما يؤمنون به .

لقد كان صلاح الدين الأيوبى بدوره فى معركة حطين مواجهة مباشرة مع عدوه ، مع حفنة من حرسه ورجاله ، واستبسل وبجانبه ابنه مقاتلاً حتى انتصر مردداً كذب الشيطان ، يوسف بن عبد المؤمن نذكره جنباً إلى جنب مع صلاح الدين الأيوبى ، فهذا الموحدى وهو يعانى من سكرات الموت نتيجة للطعنة الغادرة لفظ أنفاسه مستشهداً ، وبويع من بعده ابنه يعقوب بن يوسف الذى استكمل جهاد والده ضد أعداء أمة الإسلام فى الأندلس .

يعقوب الملّقب بالمنصور بطل معركة الأرك الذى تحرك من مراكش إلى الأندلس للمرة الثانية متوجهاً إلى إشبيلية العاصمة واضعاً للخطط ، فى الوقت الذى استنجد فيه ألفونسو الثامن صاحب قشتالة بملكتى ليون ونافار، ونزل فى الأرك كنقطة حدود بين قشتالة والأندلس ، وبعد مناوشات ، تواجه الجيشان وانتصر الموحدى المنصور مستعيداً للمسلمين أمجاد الزلاقة ، فحينما تُذكر هذه للمرابطين تذكر الأرك تمجيداً للموحدين .

وجاء عصر المرينيين ، وهم كذلك لم يتنكروا للأندلس الذى يعانى ويطلب النجدة والإنقاذ بعد أن تقلص وتراجع أمام معاودة النصارى لهجماتهم مع ألفونسو العاشر ، وما كان من استنجاد محمد بن الأحمر بأمير المسلمين المرينى أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقّب أيضاً بالمنصور ، الذى استجاب وأرسل بالمساعدات التى وصلت لولد المستنجد فى غرناطة بعد وفاة أبيه .

وقد ذكرت لنا المصادر الخاصة بهذه الفترة حين تأريخها لها (كالذخيرة فى تاريخ الدولة المرينية ، لعلى بن أبى زرع الفاسى ، ص ١٤٨ وما يليها) ، كما تذكر غيرها من المصادر أن ما يقرب من ثلاثة آلاف من بنى مرين هبوا مجندين لنصرة ملك غرناطة محمد الثانى المكنّى بالفقيه ، وكانت المعركة عند مدينة

استيجة جنوب غرب قرطبة ، وتواجه المجاهدون بجيش كبير صحبة ابنه يوسف الذى كان فى مقدمة الجيش ، وانتصر على القشتاليين انتصاراً باهراً ، ويُذكر أنه استهل المعركة بخطاب تعبوى لجيشه مستشهداً بالأحاديث النبوية الواردة عن معركة « بدر » اقتداءً برسول الله عليه السلام ، ومما قاله كما روى :
« إن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، فبادروا إليها وجُدُّوا فى طلبها ، وابذلوا النفوس فى أثمانها ، ألا وإنَّ الجنة تحت ظلال السيوف ، وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاغتنموا هذه التجارة الرابحة وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشَمِّروا عن ساعد الجد فى جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمَن مات منكم مات شهيداً ، واصبروا ، وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون .... » . (الذخيرة ، المصدر السابق)

ومع هذا ، ورغم كل ما قُدِّم لهذا الأندلس من مساندات مرابطية وموحدية ومرينية استطاعت أن تؤخر ساعة التنفيذ لضياع هذا الأندلس مرممة لشروخه ، باحثة عن توازن لهزاته ، بل وتراجعه وتقلصه ، ليؤول فى النهاية إلى ماتبقى حول غرناطة الحبيسة الصامدة التى ظلت ولفترة من الزمان تصارع وتتصارع فى داخلها ومع ما حولها وما هو خارج عنها ، محاوله تجسيد ما تبقى من أغصان فى هذا الفردوس المفقود .

رمزت غرناطة رغم حصارها ومحاصرتها لصمود لا يمكن أن يُستبعد من مسيرة قلاع المجد ، فإن كان قَدَرها قد فرض عليها أن تعايش الفتن والمكائد الأسرية بمختلف ضروبها ، تعانى وتتمزق ، إلا أنها قدَّمت لنا رجالاً تواجهوا مع الأحداث رغم مرارتها وقسوتها وبخاصة فى لحظات الاحتضار ، وكمثال نسوقه من بين أمثلة كثيرة للفداء والعطاء الرفيع : موسى بن أبى الغسان ، فكما ورد عند « كوندى – Condé » فى تاريخه عن حكم العرب لأسبانيا (المجلد الثالث ، الصفحة ٢٥٤) حول هذه الشخصية وجهادها فى فترة سقوط غرناطة ، وخير مثال ما شهدت به الأعداء : أن هذا الغسان سليل إحدى الأسر العريقة

التى تتصل ببيت الملك والتى عُرفت بفروسيتها ومواجهتها للنصارى ، تبحث عن الاستشهاد وتستنكر موقف المسؤولين عن تسيير الملك فى غرناطة استكانتهم وخضوعهم لملك النصارى ، فكان موسى بن أبى الغسان يُذكّى روح الحماس والجهاد وقيادة السرايا إلى أرض العدو ومفاجئة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة ، وحينما بعث فرناندو الخامس إلى أبى عبد الله يطلب تسليم الحمراء كان موسى من أشد المعارضين فى الاستجابة لهذا المطلب المهين ، وحاول بحماسة أن يستعيد المبادرة للدفاع حتى آخر رمق ، ومن أقواله المأثورة يومئذ نكررها باعتزاز بعد قرون : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية ، أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » .

ورغم قساوة المواجهة وانقطاع الإمدادات من المغرب ، وضعف دولة بنى وطاس التى كانت فى بدايتها آنذاك بالمغرب الأقصى ، ولم تطمح كأسلافها إلى نجدة الأندلس ، كما كان الحال مع المرابطين والموحدين والمرينيين ، قاد الفرسان المعارك وفى مقدمتهم نذكر للتاريخ نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وموسى الذى يعنينا بمواقفه وأقواله الدامية حين يكرر صائحاً : « لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن » .

وكان ما كان ، سبعة شهورمن الحصار لغرناطة الحبيسة ، واجتمع ما تبقى من رجالها فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس باد على الوجوه ، وتراكمت سُحب التسليم وضباب الاستسلام لتغطى الجمع ، وليس من معارض إلا البطل موسى بن أبى الغسان ، يستعيد أنفاسه مردداً فى إصرار : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات ، ذلك هو بأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ولنضع السلاح فى يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لى أن أُحصَى من الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أُحصَى من الذين شهدوا تسليمها » ، ولكن ليس فى الجمع من مجيب ، بل فوَّض السلطان المستسلم المهزوم أبو عبد الله الأمر للجماعة ، وتحامل الوزير أبو القاسم عبد الملك على نفسه المنهارة ليقوم بمهمة المفاوض مع ملك قشتالة

مستسلماً ، وذلك فى اليوم المشئوم من أكتوبر ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) ، وأسدل الستار بعد أن قفلت أبواب الفردوس المفقود .

ومع هذا ، هناك مَن يرى أن المفاوضات لم تبدأ فى الواقع يومئذ ، بل مورست فى الممرات السرية بين ملك غرناطة الذليل ووزير ضلاله وضياعه ، وبين ملك قشتالة وما كان من ظاهر الموقف إلا مداهنة ومهادنة لشعب ثائر أبى أن تتحنى رأسه إلا إذا قُطعَت ، بل هناك مَن يرى أن الهدايا لعبت دوراً بين المفاوضين ، وما أعطى من ضمانات لملك ذليل وأفراد أسرته ووزرائه ثمناً لخداعهم لشعوبهم ولاستكانتهم .

ضاعت غرناطة الحبيسة شهيدة وضحية لملك عجز عن حمياتها ، متزلقاً فى مزالق الارتزاق والمكاسب الفانية والضمانات المادية الزائلة والمنح الرخيصة ، كما أشار إلى ذلك صاحب « أخبار العصر » (ص ٤٨ - ٤٩) من بيع ممتلكات خونة غرناطة قبل معاهدة التسليم ، وذلك بزمان ليس بقصير ، خيانة مبيتة أو خيانة ذليلة ، أو تراجع عن مواكب البطولة والاستبسال ، لقد وقعت معاهدة التسليم فى نوفمبر ١٤٩١ م (٢١ من المحرم سنة ٨٩٧ هـ) وبقى لنا من غرناطة ، ومن قبلها فى الأندلس أسماء رجال نذكرهم كقلاع للمجد ، أبطالاً مجاهدين ، متجاوزين بهم قطعان الخونة وفلول المرتزقة والانتهازيين والمتشخصنين والمتآمرين ....

هؤلاء الأبطال عبرنا معهم فى هذه الحلقة مختلف فترات الأندلس : فاتحين ، مرابطين ، موحدين ، مرينيين ، صامدين ، لنؤكد أن بؤر الضياع لم تنسينا قلاع المجد التى حفل بها الأندلس ، كما حفل بالمجتهدين والمبدعين ، علماء مفسرين ، ومحدِّثين فقهاء وتربويين ، وأطباء ورياضيين وفلكيين ، فلاسفة ومتصوفين ، شعراء وأدباء ، ورحَّالة جغرافيين ومؤرخين ، وآثاراً لا أطلالاً ، وإنما مآثر نفخر ونتفاخر بها كمسلمين ....

وسوف نخصص - وباختصار - الحلقة الحادية عشر والأخيرة للتعريف بهذا العطاء ، فضلاً عما فيه من إعزاز وإكبار واعتبار.

* * *

الحلقة الحادية عشر

فى قلاع المجد مع المجتهدين والمبدعين

(من علماء ، مفسرين ، ومحدِّثين وفقهاء ، ولغويين ، مروراً بتربويين وأطباء ورياضيين وفلكيين وفلاسفة ومتصوفين ، إلى أدباء وشعراء ورحَّالة جغرافيين ومؤرخين ، حتى الأقليات والمستعمرين) .

الأندلس ، الوجه المشرق فى الحضارة الإسلامية بقلاع مجده مع المجتهدين والمبدعين ، كما هو شأنه مع الأبطال المجاهدين ، فيض جمع بين المفسرين والمحدِّثين والفقهاء واللغويين والتربويين ، والأطباء والرياضيين والفلكيين ، والفلاسفة والمتصوفين ، والأدباء والشعراء ، والرحالة جغرافيين ومؤرخين ، كما تقبل فى ربوع حريته ورحابة صدره اليهود باحثين عن ذاتيتهم ومجتهدين فى عقيدتهم ، دونما قهر أو ترهيب ، كما عانى المستعربون بعد ضياع الأندلس من هذا القهر ومحاكمه التى لن تقف عند مصادرة الأرض ، وإنما تجاوزتها إلى محو وإلغاء الإنسان ، ولمزيد من التوسع والتفصيل فى هذا المضمار يراجع من بين العديد من المؤلفات التى استنرنا بعطاءها ، وما أكثرها ، الكتاب القيم لانجل جنثالث بالنثيا المنشور عام ١٩٢. .

(A .GonzálesPalencia " Histoira de la literatura arabigo Espanola" .

(وتُرجِم إلى العربية تحت عنوان « تاريخ الفكر الأندلسى » ، نقله حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٥) .

وهكذا وباختصار نخص ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، من المفسرين وقرَّاء القرآن والمحدِّثين : الدانى وابن فيرة الشاطبى وبقى بن مخلد وغيرهم ، ومن المحدِّثين ابن عبد البر ، كما كان من الأوائل محمد بن وضاح بن بديع وقاسم بن أصبغ بن ناصع بن عطاء ومحمد بن عبد الملك بن أيمن صاحب كتاب السُّنَن ،

بل ويُعتبر ابن القوطية من كبار المحدِّثين فى الأندلس ، فضلاً عن ابن الحجاج وابن الفردي وعبد الحق الإشبيلى صاحب الأحكام وآخرين ... وآخرين ممن لا يتسع المقام لتحريهم فرداً فرداً ، وكلهم يستحقون منا كل إعزاز وتقدير .

وموكب الفقهاء بدوره حافل متكامل مع المفسرين والمحدِّثين ، من أكابر الفقهاء المالكية : أبو الوليد الباجي وأبوالوليد بن رشد – ولنا معه عودة كفيلسوف فى الصفحات التالية – والسهيلى الفقيه المالكى دفين مراكش وابن عاصم ، وهذا الذى يعزى إليه دخول المذهب الشافعي إلى الأندلس قاسم بن محمد بن سيار من أهل قرطبة ، يشاركه فى شافعيته بقى بن مخلد المفسر القارىء وخلق بن عبد الله بن مخارق الخولانى ، ونذكر أيضاً يوسف بن محمد بن سليمان الهمدانى وعبد السلام بن السمح بن نابل بن عبد الله بن يحيون الهوارى ، ولِمَ لا ؟ ابن حزم القرطبى الذى كان شافعياً فى فترة من حياته قبل ظاهريته وهو يُعَد من ناشرى مبادئها ، لقد كان فتح الأندلس فتحاً حضارياً وليس غزواً عسكرياً كما يزعم البعض ، فالمذهب الظاهرى مع محمد بن قاسم بن هلال الذى تتلمذ على داود الأصفهانى منشئاً للمذهب الظاهرى وناسخاً لكتبه بخطه ، ومن أوائل الظاهريين أيضاً منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن البلوطى ، ولا شك أن ابن حزم يتصدر بشهرته لما قدَّم من العديد كمؤلفات فى مختلف ضروب المعرفة ، كأمثلة كتاب « المحلى فى الخلاف العالى » ، وكتاب « الفصل فى الأهواء والنحل » ، وهو من أهم كتبه ، وقد حاول ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة سابقاً فى ذلك ابن رشد بقرن من الزمان ، وكتب رسالات كثيرة ، بل تنوَّع فى إنتاجه فله فى التاريخ « جمهرة أنساب العرب » وله « الإمامة والخلافة » و « نقط العروس » ورسالة « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » وعرَّف بها المقرى فى نفح الطيب ، ويُذكر له من أعماله الأدبية « طوق الحمامة فى الألفة والإلاف » ، وكانت له آثار ومدرسة حزمية من ممثليها صاعد الطليطلى .

وهكذا تكامل الفقهاء مع المفسرين والمحدِّثين ، ومنهم مَن برز فى الفلسفة وأشرق أيضاً ، كالوليد بن رشد وابن حزم ، وانتشر المذهب كما انتشر المذهب الشافعى والظاهرى ، وكان أيضاً التكامل مع اللُّغويين ممن برزوا فى ميدان الثقافة بصفة عامة . فاللُّغة العربية عبر الآلاف من كلماتها استقرت فى اللُّغة الأسبانية حتى الآن ، بل تبنَّى المعجم الرسمى للأكاديمية الأسبانية العديد من الكلمات العربية ، وحتى مجال الرتب والمجال البحرى والفلاحى والزراعى نلمس فيه حضور الكلمات العربية .

لقد انتشرت العربية ولم يمر على فتح الأندلس أكثر من ربع قرن ، ويعطى كمثال : رسول يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الداخل ، وقد كان يجيد العربية ، وقد تمت الاستعانة بالنصارى المستعربين من الأسبان فى النقل إلى اللاتينية ، ويُذكر فى هذا المضمار أن باجيرارد الكريمونى وقد جاء من إيطاليا ، ونقل ما يزيد على سبعين كتاباً مستعيناً فى البداية بالمستعربين النصارى من الأسبان .

لقد غص الأندلس بمخطوطاته العربية إلى حد أن الكاردينال « سيسه يورس » فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى جمع المخطوطات العربية فى باب الرملة بغرناطة وأحرقها ، وكانت تقترب من المليون مخطوط لم يُبق منها إلا على مائة وخمسين مخطوطاً فقط فى الطب ، وقد عرفت اللُّغة العربية مَن اجتهد فيها وحرص على صفاء نحوها وقواعدها ، نذكر الزبيدى أثير الدين أبو حيان والأثرى الغرناطى الملقب بشيخ النحاة ، ويُلاحَظ فى ميدان اللُّغة من حيث الاستعمال أنه كانت هناك اللُّغة العربية الفصحى للمتأدبين والعلماء ، واللُّغة العربية الدارجة لغة الدواوين والإدارة المدنية ، واللُّغة اللاتينية وتستخدمها الكنيسة فى التراتيل الدينية والصلوات ، ولهجة رومانسية وأكثرها مشتق من اللاتينية الدارجة قُدِّر لها بعد أن تصبح اللُّغة القشتالية أو الأسبانية ، كما أن هناك كلمات دخلت كذلك اللُّغة البرتغالية .

وهكذا أشرقت اللُّغة العربية فى مختلف الميادين ، ولم يقف هذا الإشراق عند حد المفسرين والمحدِّثين والفقهاء واللُّغويين ، بل تجاوزهم إلى ميادين معرفية

أخرى تؤكد لنا أصالة لغتنا العملاقة وقُدرتها ، وأن ما يزعمه البعض آنياً من قصور فى توظيفها فى بعض العلوم ، فهذا قصور مردود إليهم ، لأنها مورست فى التربية كما مورست فى الطب والرياضيات والفلك والعلوم ، واستأنس بها الفلاسفة والمتصوفة واستأنسوها ، فضلاً عن ميدانها المحورى الذى تنفرد فيه بين كل لغات العالَم بعطائها المتميِّز ، ونعنى به الشعر والشعراء والأدب والأدباء ، فضلاً عن توظيفها السلس الجذَّاب ، المبسط من قبَلِ الرحَّالة جغرافيين ومؤرخين ، لغة بهذا الحجم لا يمكن أن توصف إلا بالعملقة والجهبضة والعبرة بالمتكلم بها والمستأنس لها من حيث العظمة والانحطاط .

ففى التربية كُتبَ العديد وبخاصة فى الأخلاقيات ، كمثال من بين أمثلة كثيرة : ما اقتُبِسَ من كتاب « سر الأسرار » وكتاب « الأمثال الطبية » لحنين بن إسحاق ، وكتاب « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » لمؤلفه أبو حمو موسى ابن يوسف ... وغير ذلك من الكتب الأخلاقية فى التربية ، بينما فى الطب والرياضيات والفلك والعلوم ، وكيف أن هذه التحصصات شهدت علماء تركوا بصماتهم وآثارهم ليس فقط فى لغتنا العربية ، وإنما فيما تُرجِمَ عنها كالزهراوى أبو القاسم (Abulcasis) وهو الذى ارتفع فى أعين معاصريهم إلى طبقة أبيقراط وجالينوس ، ويُعتبر من اوائل مَن جعل من الجراحة فناً قائماً بذاته ، مستقلاً عن الطب ومرتكزاً أساساً على التشريح ، ونخص أيضاً ابن وافد الذى عُرِفَ عند اللاتينين (Eben guefitf) . كما نذكر من الأطباء يونس بن أحمد الحورانى ، ومن النباتيين حمدين بن أبان ، كما نذكر ابن حجاج القرطبى ولكنه قد وضع كتاباً فى الزراعة ، ومن الأطباء الذين اشتغلوا بالفلسفة أيضاً أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى وابن باجة وبنو زهر وابن العوام الإشبيلى وبخاصة أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقى ، صاحب كتاب « الأدوية المفردة عن العقاقير والأعشاب » .

ولم يقف العطاء فى الطب والرياضيات عند العرب ، بل هناك من اليهود كموسى بن ميمون واجتهاداته فى الطب ، وهو المعروف عند اللاتينيين

بـ « ميمونيدس » ، ونذكر أيضاً فى مضمار علماء النباتات ابن البيطار ، وفى الرياضيات والفلك أحمد بن نصر صاحب كتاب « المساحة المجهولة » ، ومسلمة المجريطى الذى اعتبر إقليدس الأندلس وهو صاحب كتاب « رسالة الإسطرلاب وثمار علم العدد » وتعديل الكواكب وغير ذلك ، وفى الفلك ابن برغوت ومحمد ابن عمر بن محمد ، وأبو إبراهيم بن يحيى النقاش الزرقالي القرطبى ، ومن الرياضيين والفلكيين أيضاً جابر بن أفلح الإشبيلى ، وينسب إليه اختراع علم الجبر بنسب تشابه اسمه واسم هذا العلم ، وقد ابتدع نظرية جديدة فى حركة النجوم ترجمها إلى العبرية موسى بن طيبون ونور الدين البطروجي المعروف لدى الغرب « البتراجيو Alpetragio » ، وأبو بكر بن أحسن الرقوطى الذى ترأس أول مدرسة إسلامية أنشأها ألفونسو العاشر فى مرسية ، واشتهر باجتهاداته فى الرياضيات والحساب ، وأيضاً ابن الشماط السرقسطى وغيره الكثير ممن اجتهدوا فى هذه الميادين ونُقلت مؤلفاتهم إلى اللاتينية فى العصور الوسطى الأوروبية ، كما تشهد بذلك الآثار الكثيرة التى تزخر بها مكتبة الاسكوريال والمكتبة الوطنية بمدريد ، بل واهتمام الأسبان حالياً بذلك فضلاً عن اعترافهم بها بقدر اعترافهم بما قدَّمته الأندلس المسلمة من عطاء وبلا حدود فى إطار الفلسفة والتصوف .

فمن المعروف أنه بعد افتقار العصر القوطى للتفكير الفلسفى وبعد إرهاصات الاعتزال ، كانت المدرسة الأفلاطونية الحديثة مع محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى (٢٦٩ - ٣١٨ هـ / ٨٨٣ - ٩٣١ م) ، اتجه إلى آراء المعتزلة وكتب الكثير ، نخص من كتاباته كتاب « التبصرة » ، وكتاب « الحروف » ، وتمحور مذهبه حول آراء امباذقليس بغض النظر عما طرح هذه الآراء ، لامباذقليس الحقيقى أو المزيف ، والربط بالأساطير والامتزاج بالغنوصية والتكامل مع أفكار فلون الاسكندرى وغيره .... ، فالذى يعنينا الإشارة إليه أنه كان لابن مسرة مدرسة ، كما كان لهذه المدرسة خصوم نذكر منهم قاضى قرطبة ونخص من بين مَن أخذ بآراء ابن مسرة محيى الدين بن عربى ، كما أخذ بها بعض مفكرى

اليهود ، وتطورت المدرسة الفلسفية واستعادت نشاطها مع المدرسة المشائية ، غير أننا قبل أن نشير إلى بعض ممثليها نعرِّف وبإيجاز بشخصية إلى جانب ما قدّمت فى إطار الشريعة وعلوم الدين والتاريخ أشرقت بنشاطها الفلسفى ، ونعنى بذلك ابن حزم القرطبى (٣٨٣ - ٤٥٤ هـ / ٩٩٤ - ١٠٦٣ م) ، إذ أنه ألّف فى العديد من أصناف العلوم وفى المنطق ، كما أن له نقداً لأبى بكر الرازى ، ومن تواليفه نخص إلى جانب ما أشرنا إليه سلفاً فى عرضنا عنه بين فقهاء الأندلس « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » ، ونعود إلى المشائية بعد هذه اللمحة التكميلية لابن حزم .لنشير إلى ابن السيد البطليوسى (٤٤٤ - ٥٢١ هـ / ١٠٥٢ - ١١٢٧ م) ، وأبى الصلت أميه بن عبد العزيز الدانى (٤٥٩ - ٥٢٨ هـ / ١٠٦٧ - ١١٣٤ م) ، وابن باجة (متوفى ٥٢٢ أو ٥٣٢ هـ / ١١٢٨ أو ١١٣٨ م) ، وابن الطفيل (٥٠٦ - ٥٨١ هـ / ١١١٠ - ١١٨٥ م) ، وكما صنّف فى الفلسفة صنّف فى الطب أيضاً وله آراء فى الفلك ، ونخص من مؤلفاته رسالة « حى بن يقظان » ، ونصل إلى ابن رشد أبو الوليد محمد (٥٢٦ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م) وهو ابن رشد الحفيد تميزاً له عن جده الفقيه ، وهو بدوره كان يسمى أبا الوليد محمد بن رشد ، بدأ فيلسوفنا الشهير بعلوم الشرع كما مارس الطب أيضاً ، بل كتابه « الكليات فى الطب » عرف طريقه إلى الأوروبيين آنذاك تحت تسمية « كلجات » وله دراسات أخرى فى الطب ، ثم اهتم ابن رشد بكتب أرسطو وشروحها ، كما وضع مؤلفات فلسفية أخرى نخص منها « تهافت التهافت » ، وهو رد على كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، وله كتاب « المقدمات » فى الفلسفة ، كما كتب فى علوم العقائد كـ « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال » ، وكتاب بعنوان « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » ، وله فى الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » عن المذهب المالكى ، وفى الفلك يُذكر له ترجمة عبرية للمختصر الذى وضعه لكتاب المجسطى ، كما يُنسب إليه رسالة عن « حركة الفلك » . وكتاب آخر عن « استدارة فلك السماء والنجوم الثابتة » ، ومع هذا يتصدر ابن رشد كفيلسوف أولاً وقبل كل شىء ، وبخاصة

كشارح لأرسطو ومعلّق عليه ، فضلاً عما يعرضه من آراء خاصة فى سياق شروحه ، حاول ابن رشد التوفيق بين القول بحدوث العالم وبين النظرية المشائية القائلة بقدمه ، إلى جانب آرائه الفلسفية المعروفة الأخرى كقوله بقدم المادة ووحدة العقل الإنسانى ، وغير ذلك من الأفكار النيِّرة ، وكان لابن رشد تلاميذ كابن طملوس أبا الحجاج يوسف بن محمد ، وكان طبيباً نابهاً ، وهو صاحب « المدخل إلى صناعة المنطق » ، إلى جانب أتباع وتلاميذ آخرين ، كما تأثر بمذهبه وبصورة حاسمة الفكر الأوروبى ، وترجم اليهود شروحه إلى العبرية ، كما وضعوا لها ملخصات وسارت إلى حد ما العماد الاكبر الذى بُنِىَ عليه العلم العبرى ، بدأ من القرن السادس عشر إلى جانب معاصره موسى بن ميمون القرطبى (٥٢٩ - ٦٠٠ هـ / ١١٣٥ - ١٢٠٤ م) ، ومحاولة الأخير التوفيق بدوره بين المشائية والعقيدة الموسوية فى « دلالة الحائرين » ، كما لا يمكن إنكار أثر ابن رشد على الحركة الاسكولاسنية النصرانية ، ولعبت مدرسة مترجمى طليطلة دوراً هاماً فى نقل الفلسفة العربية إلى أوروبا حيث أتم فيها ميخائيل الاسكتلندى ترجمة كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، كما ترجم أيضاً هرمان الألمانى ، ويميل بعض الباحثين فى هذه الفترة (كبلنثنا وقد أشرنا إلى كتابه سلفاً) إلى أن هذه الترجمة تمت على مرحلتين من العربية إلى عجمية الأندلس ، ومن هذه إلى اللاتينية ، كما نقلت آراء ابن رشد بفضل العديد من مريديه والمهتمين بفكره ، واعتمد - على سبيل المثال لا الحصر - القديس توماس الأكوينى على فيلسوفنا المستنير فى قضية هامة من قضايا اللاهوت لديهم ، وهى قضية التوفيق بين الدين والفلسفة ، وعرفت أفكار ابن رشد المعارضين أيضاً كما غصت بالمتحمسين .

إن ابن رشد معلمة أساسية تُذكر بمداد الفخر والاعتزاز بين معالِم قلاع المجد التى أشعت داخل الأندلس وحوله كما أشعت على الأوربيين وأشرقت ، وتركت من الآثار التى لا يمكن أن يتغافلها إلا جاهل أو جهول .

وفى سياق عرضنا نذكر أيضاً ابن العريف أبو العباس عطاء الله الصنهاجى (القرن الخامس والسادس الهجرى ، الحادى عشر والثانى عشر الميلادى) وكأنه صدى لمدرسة ابن مسرة وقد أشرنا إليها سلفاً ، وله كتاب « محاسن المجالس » وقد نحا بكتابه منحىً صوفياً ، الزهد فى كل شىء ما عدا الله ، بل الزهد فى منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلٰهية والكرامات ، ويرى أن المنن كلها تكون للعوام دون الخواص من الراغبين فى سلوك الطريق إلى الله .

والتصوف يقودنا إلى محيى الدين بن عربى حيث تتمثل الصورة الأوفى لما وصل إليها تطور مذهب الأفلاطونية الحديثة المقلع من مدرسة ابن مسرة فى شخصية أبى بكر محمد بن على بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ / ١١٦٤ - ١٢٤٠ م) وعُرِفَ بمحيى الدين وبالشيخ الأكبر وابن أفلاطون ، أقلع من دراسة الفقه على يد أحد تلامذة ابن حزم الظاهرى ، وقد تأثر كما يذكر بزوجته الصالحة الورعة مريم بنت محمد بن عبد الرحمن الباجى إلى جانب أمه ، كما يذكر أنه أُصيب بمرض فلزم الفراش وتراءت له منامات عن العذاب فى جهنم ، إلى جانب عوامل متعددة دفعته إلى الزهد والتصوف ، مارس محاسبة النفس والاعتكاف إذ كان ينفرد بنفسه أياماً طويلة بين القبور ، وكانت تتراءى له منامات فضلاً عن تأثره بعجوز تسمى نونة القرطبية ، وقد لزمها خادماً ومريداً مشاهداً لممارساتها وتنبوءاتها (كما هو معروف فى المصادر الخاصة بسيرته) ، ثم مارس الجولان فى بلاد الإسلام راحلاً ومترحلاً ، هنا وهناك متجهاً إلى المشرق ، ويُحكى عنه أنه تزوج زواجاً صوفياً بكل نجوم السماء ... وفُسِّرَ له هذا المنام على أنه فتح من الله فى العلوم العلوية وعلوم الأسرار ، كما أنه حينما جاور فى مكة تزوج ببنت إمام مقام إبراهيم وضع كتابه « ترجمان الأشواق » ، وكتاب « الحكمة الإلهامية » وهو رد على الفلاسفة ، واستقر فى النهاية بدمشق ومات فيها ، وفيها كتب « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » و « الديوان » ، ولقد ترك ابن عربى أثراً كبيراً بعد موته ، بل اعتبر قطباً فريداً من أقطاب التصوف ، وبقدر ما كان له من المريدين كانت التحفظات من قِبَلِ مَن رأوا فى فكره -

وبخاصة « الفتوحات المكية » مجالاً للمناقشة بين المريد والمتحفظ ، ولقد كان محيى الدين مكثراً فى التأليف وتناول العديد من ضروب الفقه والفلسفة والشرع والفلك ، ولقد انتشرت آراءه ليس فقط فى ديار الإسلام ، بل حتى فى أوروبا النصرانية ووصلت إلى دانتى وغيره .

وفى مجال التصوف يُذكر أيضاً ابن سبعين أبو محمد عبد الحق الشهير بابن سبعين الأندلسى (٦١٤ - ٦٦٩ هـ / ١٢١٨ - ١٢٧٠ م) وكان يلقّب بقطب الدين ، درس علوم القرآن والحديث والفلسفة ، وتلقى الصوفية على يد إسحاق بن دهاق ، وبدوره كان له مريدين ومتحفظين ، وبخاصة من الفقهاء ممن رأوا فى ملابس تابعيه وسلوكاتهم وطريقة معاشاتهم مجافاة للمألوف والعُرف ، ولقد خرج ابن سبعين إلى الحج وجاور فى مكة وتوفى فيها ، وفى هذا الصدد قال ابن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » : « سمعت عن ابن سبعين أنه فصد يده وترك الدم يخرج حتى تصفى ومات وله من العمر خمس وخمسون سنة » ، يُذكر من بين كتبه « يد المعارف عقيدة المحقق » ... ، وكتاب « الدرج » ، وكتاب « الدرّة المضية والخافية الشمسية » ورسائل متنوعة ، وعُرف عن ابن سبعين استعماله فى كتبه الألغاز والرمز بالحروف ، وله اصطلاحات ذات معانى رمزية بعيدة عن المألوف ، وكانت له شهرة كبرى بين معاصريه تجاوزت ديار الإسلام حتى وصلت إلى مسامع البابا وكونت روما ، كما ذكر ابن الخطيب بل لجأ إليه الامبراطور فردريك الثانى النورمانى ملك صقلية ليجيبه على بعض المسائل الفلسفية ، فأجابه ابن سبعين عليها بعد أن عزّت الإجابة على الآخرين من العلماء .

ومن المتصوفة أيضاً الأندلسيين ابن عباد الرندى أبو عبد الله محمد (٧٣٣ - ٧٩١ هـ / ١٣٣٠ - ١٣٨٩ م) ، وكان فقيهاً وخطيباً بليغاً وبخاصة متصوفاً ، صرف حياته كلها فى الزهد وقد وُصفَ بالولى العارف ، وكان ابن عباد صوفياً على الطريقة الشاذلية ، ومن أهم كتبه « شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى » .

وهكذا قدَّم لنا الأندلس صفوة من المتصوفين ممن تركوا بصماتهم واضحة فى ساحة الصفاء والشفافية ، كما قدَّم لنا فلاسفة وعقولاً معطاءة نفخر بها لا فيما يعنى عصرها ولكن على ممر العصور ، هذا الأندلس بقلاع مجده العامرة بالمجتهدين والمبدعين زخرت ساحته بشعراء وأدباء ، كما زخرت بالرحَّالة جغرافيين ومؤرخين .

فالشعر فى الأندلس تعددت دروبه وإبداعاته من طلائع شعراء عصر الإمارة مع زرياب وابتكاراته ويحيى بن الحكم البكرى ، وكانوا يلقبونه بالغزال لجماله ، وقد بُعِثَ فى عدة سفارات ووفق فيها من قِبَلِ عبد الرحمن الأوسط ، وله « أرجوزة فى فتح الأندلس » ، ونُذكر أيضاً تمام بن عامر بن عقلمة وله أيضاً « أرجوزة مشهورة فى فتح الأندلس » ، وسعيد بن جودى وشعراء البلاط ، واستمر الشعر فى عطاءه عبر عصر الخلافة مع ابن عبد ربه ومنذر بن سعيد البلوطى وبخاصة ابن هانىء والزبيدى وصاعد البغدادى والرمادى والوزير أبو المغيرة ابن حزم وابنه من بعده ، له أيضاً عطاء شعرى ونعنى به أبو محمد بن حزم القرطبى ، ونذكر أيضاً ابن أبى زمنين وابن الهندى والفرضى وحبيب الصقلى وغيرهم ، وقد كان للشعر خصائصه المتميزة فى عصر الطوائف ، فقد كان عصراً ، رغم ما فيه من أحداث سياسية ، مثمراً للشعر والشعراء ، فقد نافس ملوك الطوائف فى جذب الشعراء إلى نواحيهم إذ كان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها فى مَنِّه وعطاءه أو رغبته وميله لاجتذاب الشعراء ، مما كان له انعكاس واسع على الحياة الشعرية بصفة عامة ، فهذا أبو الوليد بن زيدون بقرطبة ، ولا يُذكر دون أن تُذكر ولادته وهجاءه لابن عبدوس وماتم من مبارزة فى هذا المضمار ، ولِمَ لا ؟ هذه إشبيلية المعتضد بن عباد والمعتمد وشعراء بلاطه كابن حمديس الصقلى ، وشعر المعتمد نفسه فى منفاه والذى لا يمكن إنكار ما فيه من قدرات وإبداع ، وبغرناطة نخص أبو الفتوح الجرجانى وأبو إسحاق الألبيرى ، وبالمرية المعتصم صاحب المرية ، وشعراء بلاطه ، وببلنسية ومرسية ابن وهبون وابن لبون والوقيشى هشام بن أحمد وابن عبدون ببطليوس وغيره ،

وابن باجة فى سرقسطة وابن خفاجة وابن الزقاق وما عرفته ساحة عصر المرابطين ، وأبو جعفر ابن سعيد وحفصة الركونية وحمدة بنت زياد ، وما عرفته ساحة عصر الموحدين ، فضلاً عما قدّمه هذا العصر من إبداعات جديرة بالإشارة مع ابن الأبار وبخاصة أبو البقاء الرندي وهو غنى عن التعريف ، ومملكة غرناطة بدورها مرة أخرى مع ابن الخطيب كشاعر وابن زمرك ، كما كان هناك الاتجاه الشعبى الدارج مع مقدم ابن معافى القبرى مبتكراً الموحشة ، وابن قزمان ومدرسته ، وعرفت شعراء شعبيين وعلى رأسهم الشسترى ، إنه الأندلس المبدع فى كل بحور الشعر ومعارجه من شعر الصفوة إلى الشعراء الشعبيين ، ومع شعراء القصور إلى شعراء الساحات والأسواق ، شعراء حتى من البسطاء عُمّال وزُرّاع فضلاً عن الفنانين والنساء ، شعراء تناولوا كل الموضوعات ترفيهية وعاطفية وطبيعية وكل دروب الشعر ، حماس ونسيب ، ومبدع وخمريات ، ووصف ورثاء .

وتصدّر الأدب أيضاً كقُدرة رفيعة من فنون الفكر العربى فى الأندلس ، ويكفى كمثال أن نذكر ابن عبد ربه وكتابه « العقد الفريد » ، وأبو على القالى وابن الجسور ، وأبو بكر الطرطوشى وكتابه « سراج الملوك » ، وابن أبى الخصال وابن الأفطس وابن المواعينى ويوسف بن الشيخ البلوى الملقى ، فضلاً عن المقلدين لمقامات الحريرى والمعلّقين عليها ...نهضة عارمة فى كل اتجاه غطت الأدب كما رأينا وأبدعت فى الشعر ، وأشرقت بإلهام الشعراء وحفلت بتيار القصص متغذياً بالعديد من المؤثرات ، على سبيل المثال لا الحصر : « كليلة ودمنة » و « السندباد » و « ألف ليلة وليلة » وقصص الفروسية . وقد كان كما هو معروف لهذا التيّار تأثيراً واسعاً فى الغرب نذكر « الدون خوان مانويل » و « تورميدا » وغير ذلك ، مما يؤكد عمق تأثير هذا النوع من الأدب وانعكاساته على الجزل بصفة عامة فى الأدب الأوروبى من فرنسا إلى إيطاليا والبرتغال ، مروراً بانجلترا وألمانيا وبخاصة فرنسا ...

ترك الأندلس من البصمات إبداعاً فى كل مجالات الفكر والمعرفة ، وهاهم فضلاً عمن ذكرنا رحالته جغرافيين ومؤرخين من الوراق والبكرى وابن عبد المنعم الحميرى وأبو حامد الغرناطى والإدريسى المعروف بالشريف الإدريسى حفيد إدريس الثانى الحمودى أمير مالقة ، إلى ابن جبير إلى أبو عمر عبد الله رشيد ابن النشريسى وابن جابر من أهل واد آش ، والبلوى أبو البقاء من أهل قنتورية ، فضلاً عمن جالوا فى الأندلس كابن بطوطة ومعاصره ابن خلدون عابرين غرناطة وغيرهما ، ومن المؤرخين فى عصر الخلافة نذكر على سبيل المثال لا الحصر : عبد الملك بن حبيب وآل الرازى وابن القوطية وعريب بن سعد ، ومن عصر الطوائف أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ومحمد بن مزيد بن مسلمة وابن أبى الفياض ، وبخاصة ابن حزم القرطبى ، وقد كررنا الإشارة إليه سلفاً ، وفى عصر المرابطين والموحدين : ابن صاحب الصلاة وأبو مروان الباجى وابن سعيد وعبد الواحد المراكشى ، ومن مملكة غرناطة ابن الخطيب ، وقد أشرنا إليه سلفاً كشاعر ، إلى جانب أصحاب التراجم وفهارس الكتب كابن الفردى والحجارى وابن بشكال وابن الأبار ، وقد أشرنا إليه سلفاً بدوره ، وابن خير وأصحاب التراجم الخاصة كابن ديحة ، ومن مؤرخى الأدب على بن بسام الشنترينى وابن خاقان الشقندى والمقرى ، إلى جانب مؤرخى النواحى كابن خاتمة وإسحاق بن مسلمة القينى وابن علقمة ... وغيرهم الكثير ، إن كنا قد أشرنا إلى هذه المعالم فى قلاع المجد كرحالة وجغرافيين ومؤرخين بعد إشراقة الشعراء والأدباء ، مختتمين جولتنا حول ما قدَّمه الأندلس من مجتهدين ومبدعين ، فلا يعنى هذا بالضرورة أن ساحة الأندلس انفردت بمن يمثلها أصالة وانتماءً بإسلامه ، وإنما فتحت لغير المسلمين من القاطنين فى رباها وفيافيها ممراتها المشرقة باسم حرية الفكر فى وقت كانت هذه الحرية تحترق فى ميادين وساحات أوروبا الوسيطة المظلمة ، تباد الأقليات ويُصادر الإنسان ، لاحظنا من المستعربين والأقليات - وبخاصة اليهود - مَن تمتع بكامل هذه الحرية ليفكر ويعبِّر ويكتب ، فها هى إشارات « البور القرطبى » و « القس بنجنسيس » و « ربيع بن زيد الأسقف » ، بل كان الكثير من المستعربين يفضلـــون استعمال لغة العرب

وأسماءهم وأزياءهم إذ يُذكر « للبور القرطبى » (كما جاء عند بالنثا « تاريخ الفكر الأندلسى - الترجمة ص ٤٨٥ - ٤٨٦) قوله : « إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقدوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً .... يالِلحسرة ، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ... فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك بازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ، يا للألم . لقد نسى النصارى حتى لغتهم .... » .

هذا ، ولم تقف رياح الحرية ورحابة الصدر والتفتح عند حد المستعربين من النصارى ، بل ها هم وبخاصة اليهود يتمتعون تحت رايتها بكل عطاء للدراسات العبرية والتى كانت أسبانيا خلال هذه العصور مركزاً هاماً من مراكزها ، بل انعكست إشعاعات الفكر العربى المسلم على ثقافة يهود أسبانيا وتغذوا من مواردها بصورة مباشرة ، فبعثت الدارسات التلمودية فى قرطبة مع « ابن شربوط » ، الوزير المعروف لعبد الرحمن الناصر بعد أن بسط يد المساعدة والعون لموسى بن حنوك ومدرسته ، فأفرزت أعلاماً فى الأدب العربى مثل « منحايم الطرطوشى » و « ابن لبراط » وكانا متأثرين بالأدب العربى وتمثلوا صوره ، كما نذكر أيضاً اليهودى « إسماعيل صموئيل بن النغدلة » بغرناطة الذى كان يؤلف بالعبرية واجتهد فى النهوض بالدراسات التلمودية ، كما ألّف يهودا بن داود بدوره أول نحو علمى باللُّغة العبرية وهو الذى يسميه بعض كُتَّاب اليهود فيمن كتبوا بالعربية أبا زكريا بن داود حيوج ، وألّف ابن جناح - الذى عُرِفَ بين المسلمين بأبى الوليد مروان بن جناح ، وعُرِفَ عند النصارى بيونا (يونس) - فى علم النحو باللُّغة العبرية ما سمى بـ « جمل النحو العبرانى » لديهم .

وفى إطار الفلسفة ومَن تأثروا بالكتب العربية يُذكر « سلموم بن يهودا بن جبرول » ، والذى سَمى لدى المسلمين أبا أيوب سليمان بن يحيى ، وعُرِفَ عند النصارى بـ « أفيسبرون - AVicebron » ، وقد تأثر فى تأليفه بمذهب ابن مسرة ، وهو يتصدر بين شعراء اليهود فى العصور الوسطى . ويحيى بن يوسف بن فاقَوزة المعاصر لابن جبرول السابق ، وقد تأثر بآراء الغزالى فى الأخلاق والتصوف وقد سماه الناس بـ « توماس ديكامبيس » اليهودى .

ونشير أيضاً إلى أبى عمر يوسف بن صديق وكان قاضى اليهود فى قرطبة ، وكتب فى المنطق بالعربية ، وتُرجم إلى العبرية ، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا ، كما نشير إلى موسى بن عذرى وهو من أهل غرناطة ويهودا بن ليفى الطليطلى ، أو يهودا هليفى ، وإبراهام بن داود الطليطلى ، الذى تأثر بمؤلفات الفارابى وابن سينا ، وقد حاول أن يوفق بين كتب اليهود المقدسة وفلسفة أرسطو ، ومن اليهود أيضاً ممن انتفعوا بحرية الفكر تحت راية الإسلام : يهودا الجزيرى بن شلمون ، ومن الغريب أنه كان ساخطاً مع هذا التفضيل على أهل ملته للغة العبرية وقام بترجمة مقامات الحريرى إليها .

هكذا ومن خلال نماذج محدودة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، برز مفكرون وكُتَّاب يهود ، شعراء وفلاسفة بل وتوزروا (أصبحوا وزراء) فى ظلال حرية الإسلام بالأندلس وما أمَّنه من حقوق للإنسان المسلم وغَير المسلم ، فعمرت قنوات الفكر اليهودى بالمجتهدين ، بل شهدت نهاية القرن الثانى عشر نشاطاً ملحوظاً لليهود فى التأليف والنقل من العربية إلى العبرية ، بل النهوض بحركة الترجمة من العبرية إلى العربية ، ولعل موسى بن ميمون القرطبى (٥٢٩ - ٦٠٠ هـ / ١١٣٥ - ١٢٠٤ م) خير مثال يُضرب فى هذا المضمار لنقف عنده قليلاً ونعرِّف به كصورة من أبرز صور التسامح الإسلامى مع غير المسلمين وبخاصة اليهود ، فبعد دراسته فى مدارس اليهود والعرب بقرطبة ألَّف بالعربية كتابه المسمى « رسالة فى الردَّة » ، وكتب كذلك بالعربية كتابه المسمى

« السراج » ، كما كتب « رسالة العزاء » ، وبلغتنا العربية العريقة وفى إطارها المتسامح وضع أيضاً كتابه « الفرائض » يدفع به ما وُجِّهَ من نقد إلى كتاب « تثنية التوارث » ، وهذا إن دلَّ على شىء فإنما يدل على ما كانت تتمتع به رحاب الأندلس من حرية حقة ، نكررها باعتزاز ونتساءل - فقط تساؤل - وفى مجال المقارنة حول ما يجرى باسم الحرية وتزييف البعض له فى القرن العشرين ، ويعتبر « دلالة الحائرين » من أشهر كتب ابن ميمون ، وقد كُتِبَ أصلاً بالعربية وتُرجم إلى العبرية واللاتينية ولغات أوروبية أخرى كثيرة ، وهو استخلاص لما فى اليهودية من لاهوت وفلسفة ، حاول فيه ابن ميمون أن يوفق بين العقل والدين كما فعل ابن حزم وابن رشد من قبله ، وكما سيحاول القديس توماس الأكوينى من بعده .

وأشرق أيضاً فى سماء الأندلس أدب المستعجمين ، ويُعتبر آخر صورة ظهر فيها الأدب الأندلسى الإسلامى مكتوباً بلغة أسبانية وبحروف عربية وعُرفت فى المصطلح الأسبانى بـ « الخميادية » أى المستعجمية ، وهذه دلالة على معاناة الفكر بعد ضياع الأندلس لدى المستعجمين ، ضاعت الأرض وضاعت اللُّغة واستشهد الرجال ، تهجَّر مَن تهجَّر ، وبقيت الآثار الخالدة لا الأطلال البالية تذكرنا بـ « الفردوس المفقود » ، فمن بين الكثير نذكر آثار الزهراء ، وقرمونة ، وقصر الجعفرية ، وحى البيازين ، ومتحف وقصر الحمراء ، والقصبة بالمرية ، ورندة والجزيرة ، والقصبة الأندلسية ، ولبلة التى ما زالت محتفظة بأسوارها الأندلسية ، وحتى البرتغال بحصونه العاتية ، وشلب ، وباجة ، وظل جبل طارق ابن زياد شامخاً وشاهداً فى المضيق على مأساة عصره وعلى كل عصور الأندلس بما فيها من بؤر للضياع وقلاع للمجد . إنه الأندلس الذى سنطرح حوله فى النهاية استخلاصاً لهذا الحوار حول الماضى فى الحاضر ، ماضى نطالعه فى مختلف الثقافات والحضارات ، ونتلمسه ماثلاً كعبرة وعظة لنا فى النكسات والأزمات .

* * *

الخاتمة

وانتهى بنا الحوار عابرين الأندلس مقلعين من الفتح وعصر الولاة مارين بعصر الإمارة والتحول إلى الخلافة حتى دويلات الطوائف وغرناطة الحبيسة ، لنقف عند بؤر الضياع متحسرين على الخاسرين والبكّائين والمتباكين ، دون أن نتجاهل قلاع المجد بأبطالها المجاهدين وما أبرزته من عطاء لعقول المجتهدين والمبدعين .

لقد ترك الأندلس بصماته عبر مختلف قنوات الثقافات والحضارات التالية داخل وخارج الدار ، لقد أثرى فكرنا بقدر ما أثرى فكر غيرنا ، وهذه هي خصائص الحضارات الإنسانية العملاقة ، حضارة ارتكزت على وحي من الله ، فأنارت الطريق للإنسان إذا ما التزم بهذا الوحي وفي كل زمان ومكان . حضارتنا إذن ترعرعت في ساحة الإسلام وأعطت خلال تداول الأيام والسنين والأعوام كنوزاً للبَشرية ، لم تبخل ولم تمارس مصادرة أو اغتيالاً للإنسان باسم الإنسان ، لقد أحيته مستخلفاً في الأرض وأضاءت له السُبل ، وحينما تراجعت - وهذه سُنّة الله في تدافع الناس والأمم - محصورة ومحاصَرة في معاقلها ورثتها حضارة الغرب كما ورثت من غيرها بعد أن مارست عليها كل وسائل الضغوط وتحت مختلف المسميات ، وفي النهاية كان الاستعمار وبات السائد مسوداً ، قابعاً في عقر داره يدافع عما تبقى له ، ومع هذا نتساءل هل استطاعت حضارة الغرب أن تعيد للإنسان هذا الإشراق وهذا التعادل الذي عرفه حينما كانت تشع شمس حضارة الإسلام على وجهه فتكسبه مع القناعة والرضا ثوباً من الطمأنينة والصفاء ، حضارة الغرب وهي حضارة الأشياء ركزت على ترفيه ورخاء جسد الإنسان وأملت عليه تسلط الاستهلاك والإشباع ، وأصبح الإنسان في خدمة الأشياء ولم تعد الأشياء في خدمته ، فهو من أجلها يعيش وبسلاسلها مرهون أو مستعبَد يلهث ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ووصل وهو في قمة إنجازاته إلى قمة معاناته ، تحاصره الهموم النفسية ، يستنشق التلوث ويرتعب من « الإيدز - السيدا » ليسقط في ضباب المخدرات .

تلك هى خصائص العملاق - القزم ، الصحيح - المريض ، الذى عليه أن يفخر فعلاً بإنجازاته العملاقة ، عصر الكمبيوتر وعصر اختزال الزمان والمكان ، عصر المعلومات ، وعصر التوصيل والاتصال ، مرئية ومسموعة ومقروءة ، عصر السباحة فى الفضاء والتنزه فوق سطح القمر ، ومع هذا فهو عصر متميِّز أيضاً بما أشرنا إليه سَلَفاً من هموم ومعاناة وتلوث واهتزاز وأوبئة مريعة ...

ونعود إلى أندلسنا الذى لا يمكن إنكار دوره فى إرهاصات هذه الحضارة الغربية وفى بذر جذورها ، أسماء نذكرها ونتذكرها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، أشعت على تربة هذه الجذور وغذتها برحيق العطاء ، فهذا الزهراوى أبو القاسم « أبو الكاسيس » ، وابن وافد « ابن غفيق الطبيب » ، والبطروجى « البتراجيو » ، وبخاصة ابن رشد « أفيرويس » ، وكتابه فى الكليات « كليجات » الذى غذّى الأوربيين بمعرفته ، فضلاً عن دوره فى الحركة الاسكولاستيكية النصرانية ، وتأثيره على القديس توماس الأكوينى ، وآثاره فى قضية التوفيق فى اللاهوت لديهم بين الدين والفلسفة ، حتى متصوفة الأندلس ، محيى الدين بن عربى وابن سبعين ، كانت لهما الأصداء فى الغرب والتى لا يجهلها العارفون ... أعلام ، وأعلام قدّمها هذا « الفردوس المفقود » الذى عدنا إليه فى النصف الأخير من القرن العشرين كسائحين نتطلع إلى آثاره وبقاياه ، وباستئذان دخلنا وخرجنا من « قصر الحمراء » بعد أن انتهى الوقت المخصص للسياحة والجولان ، وتهاوت بنا الأقدام عبر صخرته ، نمضغ الأحزان ، وانزوينا فى أسفل المكان ، ونظرنا إلى ما حولنا من آفاق نتأسى على الماضى فى الحاضر ، كما نتأسى على الحاضر فى الماضى عبر الأندلس ، وكيف أن الجروح مهما التأمت بعد الاستئصال تظل دائماً تذكرنا بين الفينة والأخرى باستيطانها ، وقد استعصت عليها دماء الاستنزاف من كثرة ما تعايشت معه من نكسات وأزمات .

كان الأندلس الذى لم يقدّم حضارته العملاقة عبر جلسة ودية أو لقاء مجاملة ، أو على إيقاع أنغام هادئة حافلة بالرياحين والورود ، وإنما قدّمها عبر مخاضات ومن خلال أعاصير تواجه معها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يحفلوا

بالعوائق ، ولم يقفوا أمام الحواجز ، ولا أثنتهم عن عزيمتهم شوامخ الجبال ، ما تقلص مدهم فى أية مواجهة ولا على أى جبهة كانت ، فبقدر التحلى بقناعة الإيمان والتلاحم مع الغاية والهدف والتضحية فى سبيل المثل العليا المجسدة لقداسة العقيدة والتى من أجلها تبرز أصالة الإنسان ، بقدر ما يثبت فى زحفه ويفجِّر طاقته محققاً لما يبتغيه وما يأمله ، وهذا ما لاحظناه مع الجيل الذى ثبت أقدامه على أرض الأندلس فى البداية رافعاً لراية الله ، ناشراً للمبادىء الخالدة ، تعاوناً وبراً ، وإخاءً ووفاءً ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً .... وتوالت الأجيال وتدولت الأيام وتداخل فيها الواعى بالغافل والجاد باللاهى والملتزم بالانتهازى ، وفى كل مرة يتصدر فى التداخل جيل الواعين الجادين والملتزمين ، جيل قلاع المجد من الأبطال المجاهدين ، يستعيد الأندلس تعادله ولو إلى حين ، وتعلو كلمة الحق مرفرفة براية الإسلام ، خفّاقة بالإشعاع والإشراق ، وفى كل مرة يتزاحم فى التداخل طافياً جيل الغافلين والمتغافلين بهوامشه من اللاهين والمتلاهين ، مهيئاً الأرض للانتهازيين والوصوليين ، مجسِّداً لبؤر الضياع ، يتراجع الأندلس ويفتقد توازنه وتكفهر سماءه وتتقلص قدراته ويعتمه الضباب ليصبح ضحية لكل طامع مفترس ، ومن باب أولى لهذا الخصم المتربص به والقابع فى الانتظار حوله يتحين الفرص لينقض ويستحوذ .

وهكذا لاحظنا منذ الجولة الأولى فى الأندلس مع عصر الولاة كيف أن هذا المنتصر الفاتح ، رغم قدراته وتفانيه فى أداء رسالته ، كان عليه أن يكمل تأمين مسيرته ، ويعى بأن ضمان استمراره مرتبط بوعيه بما يدبره له خصمه ، فلا يترك لبريق الانتصار فرصة إعمائه عن جزئيات قد لا تبدو عظيمة الشأن فى حينها ، ولكن حين استغلالها من الخصم تؤدى إلى قلب الموازين ، وربما إلى تأهيل المنهزم ليستعيد أنفاسه ، وهذا ما حدث ، فضلاً عن أن بعض الهفوات بدورها قد تتسع فيصعب احتواءها ، ومن ثَمَّ كان لزاماً على المنتصر أن يتحاشاها محصناً لانتصاره من خارجه وداخله ، من خارجه بمتابعة خصمه سعياً لاستئصاله من الأساس ، مؤمِّناً بذلك عدم عودته ، ومن داخله بعدم تركه للطفيليات

والحساسيات والحماسات الشخصانية ، والعصبيات العشائرية والقَبلية ، والفتن والمؤامرات والمكائد ، أن تنمو وتنبث فى أحشائه لتبث فيها بذور الفُرقة ، مؤهلة الجسد للتمزق والتفتت .

لقد تغافل الفاتح المنتصر - كما رأينا فى عرضنا - وهو واثق من قدرته عن قدرة خصمه ومناوراته فى اقتناص الفرص ليستعيد معه الكَرَّة تلو الكَرَّة ... تغافل أملته ربما نشوة السيطرة والهيمنة والنصر ، لقد كان على هذا المجاهد الذى اجتاز كل حواجز الأندلس أن يختار أيضاً حواجز أنانيته وشخصانيته ، فيعلو برغباته لتصبح لديه الرغبة الكامنة والمعلنة على حد سواء : هى إعلاء كلمة الله ، لم يتغافل المتغافلون أو الغافلون عن نية مبيَّتة أو مقصد دفين ، ولكن طبيعة الأحداث بما فى ذلك تزكيبة الفئات والجماعات الفاتحة التى كانت تعبىء قدراتها إبَّان اندماجها وتلاحمهامع عقيدتها الخالدة وإيمانها الراسخ ، بينما هذه التعبئة تتضاءل ، بل وكثيراً ما تتلاشى ، حينما تغزوها النزعة الذاتية غير الواعية بغاياتها وأهدافها ، فتسقط فى متاهات المنافع الفانية والمصالح الوقتية الزائلة ، متساقطة فى بؤر الضياع ، باكية أو متباكية ، خسرت الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

ضاعت وأضاعت معها الأندلس الملموس ، وبقى لنا ذكرى عالقة بالوجدان ترجمتها تلقائياً صفحات هذا الحوار لتكون عظة وعبرة للأجيال الحاضرة والقادمة ، شعوباً ونخباً وقيادة ، تتحمل صياغة القرار ، وتقع عليها مسؤوليته للسير بالأمة نحو استعادة قلاع مجدها ، متجاوزة لبؤر ضياعها ، واعية برسالتها الخالدة لأمة لم تُخلق عبثاً ، وإنما هى كانت وستكون بمشيئة الله : ﴿ خَيْرَ أُمَّة اخرجت للناس ﴾ [1] .

* * *

(١) آل عمران : ١١٠ .

ملحقات

١ - الوثية الأولى : قصيدة الرندى .
٢ - الوثيقة الثانية : خاصة ليوسف بن تاشفين .
٣ - الوثيقة الثالثة : كتاب ابن الأحمر لصاحب فاس .

* * *

تقديم

استكمالاً للفائدة ، بعد أن حرص مفكرنا الكبير الدكتور رشدى فكّار فى حواره أن يدع الأندلس يتحدث عن نفسه فى كل مرة تملى طبيعة الوقائع والأحداث ذلك ، أفردتُ هذه الملحقات لذكر وثائق نتذكرها ونستعيد ذكرها ، وهى ليست بالجديدة فى نشرها أو المجهولة لدى المتخصصين والمختصين ، وإنما اختيرت إما لعمق مضمونها وارتباطه بمأساة الأندلس عبر كل الأجيال ، كما هو الحال فى الوثيقة الأولى التى تتضمن رائعة الاندلس ، التى نسبت للفقيه أبو يحيى صالح بن شريف الرندى بمطلعها « لكل شيء إذا تم نقصان » ، وإما لما ترمز إليه الوثيقة من تذكير بقلعة من قلاع المجد ، يوسف بن تاشفين ، هذا القائد الذى يُجَسِّد هذه النوعية من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، نذكره اليوم وبكل اعتزاز من خلال كلماته الواعية ومواقفه القادرة ، لنؤكد لمن فى حاجة إلى تأكيد أن معين هذه الأمة لم ولن ينضب أبداً ، وهذا هو موضوع « الوثيقة الثانية » من الملحقات . وأما « الوثيقة الثالثة والأخيرة » من هذه الملحقات ، فقد اختيرت لما فيها من تصوير مفعل وتذكير فى غنى عن كل بيان بهذه الفئة الانتهازية التى احترفت بيع الشعارات وتزييف الكلم والسمسرة به ، لتحقيق مآربها التى كثيراً ما تتم على حساب الأمة لا لحسابها ، إنها الوثيقة التى عُرِفت بـ « كتاب ابن الأحمر إلى صاحب فاس » ، كتاب السلطان أبى عبد الله بن الأحمر المخلوع الذى بعث بها إلى الشيخ الوطاسى صاحب فاس توسلاً وتملقاً ، وهى من إنشاد الأديب أبى عبد الله محمد بن أبى عبد الله العقيلى ، عرضناها بنصها وشروحها كما هى ، تتمة لهذا الحوار رغم طولها دونما اختزال أو تدخل ، أو تداخل أو إيجاز ، أوردناها هكذا وفاءً منا لمن

أوردها من قبلنا وهوالمقرىء التلمساني « أزهار الرياض في أخبار عياض » حيث قال في نهايتها نصاً (ص ٢.٢) : « انتهى الكتاب وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار بما فعلته الدنيا مع الملوك الأعاظم الكبار » ، غير أننا نتباين معه في نعته لهؤلاء الملوك على أنهم « الأعاظم الكبار » وهم ملوك خلعوا وأضاعوا ممالكهم ، فاستبدلنا « الأعاظم » بالقماقم ، كما استبدلنا نعت « الكبار » بالصغار ، تلاعبوا بمصير أمتهم ، فعانوا من نفس المصير .

* * *

ملحق (١)

الوثيقة الأولى « قصيدة الرندى »

كما جاءت عند : علىّ بن أبى زرع الفاسى ، « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية » ، (الرباط ، من مطبوعات دار المنصور ١٩٧٢ ص ١١٢ وما يليها) .

وقد ذكرت القصيدة ضمن أحداث سنة ٦٦٥ هـ ، حينما تعرّض المؤلف لما جرى فيها من نكبات حلّت بالمسلمين ، وما تم من استسلام للألفونش حيث قال نصاً : « وفيها (أى فى هذه السنة) صالح ابن الأحمر الفونشى على أن أعطاه ابن الأحمر نحو أربعين مسوّراً من بلاد المسلمين من جملتها شريش والمدينة والقلعة ، وقيل إن جملة ما أعطاه ابن الأحمر للألفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسوّرة مئة مسوّر وخمس مسوّرات من بلاد شرق الأندلس .

وفيها استعان ابن الأحمر بالفونش على قتال ابن أشقيلولة الثائر عليه بمالقة ، فنزلوا عليه بها ثلاثة أشهر ولم يقدروا منها على شىء فانصرفوا عنه خائبين .

ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة للألفونش قال الفقيه أبو محمد صالح ابن شريف الرندى يرثى بلاد الأندلس ويستنصر بأهل العدوة من مرين وغيرهم بهذه القصيدة :

لكــل شــىء إذا مــا تم نقصان	فــلا يُغَــرُّ بطيب العيش إنسان
هــى الأمــور كما شاهدتها دول	مَــن سره زمــن ساءتــه أزمان
وهــاذه الدار لا تُبقــى على أحد	ولا يــدوم علــى حـال لها شان
يمــزق الدهــر حتماً كــل سابغة	إذا نبت مشرفيــاتٌ وخــرصان
وينتضــى كــل سيف للفناء ولو	*كـان ابن ذى يـزن والغمد غمدان*
أيــن الملوك ذوو التيجان مــن يمن	وأيــن منهــم أكاليــل وتيجان

(٨ - حوار)

وأيــن مـا شاده شـدَّاد فـــى إرم　　　وأيـن ما ساسه فى الفرس ساسان

وأيـــن ما حـــازه قارون من ذهب　　　وأيـــن عـــاد وشـــدَّاد وقحطان

أتا علـــى الكـــل أمرٌ لا مردٌ له　　　حتـــى قضوا فكأن القوم ما كانوا

تخلَّفـــوا عبِـــراً وأصبحـــوا خبراً　　　كمـــا حكـا عن خيال النوم وسنان

دار الزمـــان علـــى دارا وقاتله　　　وأمٌ كســـرا فمـــا آواه إيـــوان

كـــأنما الصعب لم يسهـل له سبب　　　يـــوماً ولا ملكَ الدنيا سليمـــان

فجائـــع الدهـــر أنـــواع منوَّعة　　　وبعضها فوق بعض وهى ألـــوان

وللحـــوادث سلـــوان يسهلهـــا　　　وما لما حَـــلٌ بالإســـلام سلوان

دهـــا الجـــزيرة خَطْبٌ لا عزاء له　　　هـــوا له أحـــد وانهدٌ ثهـــلان

أصابها العيـن فى الإسلام فامتُحِنَت　　　حتـــى خلت منه أوطان وبلـــدان

فســـلْ بلنسية مـــا شأن مرسية　　　وأيـــــن شاطبة أم أين جيان

وأيـــن قرطبـــة دار العلـــوم فكم　　　مـــن عالِمٍ قـــد سما فيها له شان

وأيـــن حمص ومـــا تحويه من نُزَهٍ　　　ونهـــرها العذب فيَّاض وملآن

قواعـــــد كـــن أركان البـلاد وما　　　عسا البقاءُ إذا لم تبق أركان

تبكـى الحنيفية البيضاء من أسف　　　كمـا بكت لرســـول الله أجفـــان

علـــى بيوت مـــن الإسلام عاطلة　　　كأنهـــا لم تكـــن بالذكـــر تزدان

صارت كنائس قـد طال الضلال بها　　　فليـــس إلاّ نواقيـس وصلبـــان

حتـــى المحاريبُ تبكي وهي جامدة　　　حتـــى المنابـر ترثي وهى عيدان

أغـافـــلاً وله فـى العيش موعظة　　　إن كنت فـــى سِنَةٌ فالدهـر يقظان

ومـــاشيـــاً مـــرحـــاً يلهيه موطنه　　　أبعـد حمص تغـــر القـــوم أوطان

تلك المصيبـــة أنست مـــا تقدَّمها　　　ومـــا لها مـــع طول الدهر نسيان

يا راكبيـــن عتاق الخيـــل ضامرة كـــأنها فـــى مجـال السبق عُقبان
وحامليـــن سيوف الهنـــد مرهفة كأنهـــا فـــى ظلام النقع نيـــران
وراتعيـــن وراء البحـــر فى دعة لهـــم بأوطانهـــم عـــز وسلطان
أعنـــدكـــم خبر مـــن أهل أندلس فقـــد ســـرا بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بها المستضعَفون وهم أســـرى وقتـــلا فلا يهتم إنسان
مـــاذا التقاطع فى الإسلام بينكم وأنتـــم يا عبـــاد الله إخـــوان
يامـــن لذلة قـــوم بعـــد عزتهم كأنهـــم وهـــم الأحـــرار عبدان
ألا نفـــوس أبيـــاتٌ لها هِمَـــمٌ أما علـــى الخيـــر أنصار وأعوان
بالأمس كـانوا ملوكاً فى منازلهم واليـــوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلـــو تراهـــم حيـارا لا دليل لهم عليهـــم مـــن ثيـاب الذل ألوان
ولو رأيتَ بكـــاهـــم عنـــد بيعهم لهالَكَ الأمـــــر واستهوتك أحزان
كـــم مـــن أسير بحبل الذل معتقل كـــأنه ميت والذل أكفـــان
يارُبَّ أُمّ وطفـــل حيـــل بينهمـا كمـــا تُفَـــرِّق أرواح وأبـــــدان
وطفلة ما رأتها الشمس قد برزت كـــأنمـــا هـــى ياقـــوت ومرجان
يقـــودها العلج للمكـــروه مُكْـرهة والعيـــنُ باكيـــةٌ والقلبُ حيـران
لمثـــل هاذا يـــذوب القلب من كمدٍ إن كـــان فـــى القلب إسلام وإيمان

* * *

ملحق (٢)

الوثيقة الثانية خاصة ليوسف بن تاشفين

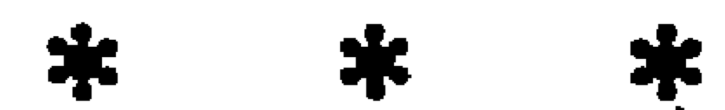
ويطالعنا رمزاً من قلاع المجد ، يجسده هذا القائد المتميز يوسف بن تاشفين ، الذى صاح فى رجاله وهو يعبر بهم إلى الأندلس فى يوم الخميس عند الزوال فى منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيو ١٠٨٦م) - (كما ورد فى « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » لأبى على بن أبى زرع الفاسى ، المنشور سنة ١٩٧٣ عن دار المنصور للطباعة بالرباط ص ١٤٥) ، حيث حينما ركب السفينة واستقر على ظهرها ، رفع يديه ودعا اللّه تعالى ، وقال فى دعائه : « اللّهم إن كنتَ تعلم أنَّ فى جوازى هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين ، فسهِّل علىَّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبِّه علىَّ حتى لا أجوزه » ، فسهَّل اللّه عليه الجواز فى أسرع ما يكون ... » .

إنه أمير المسلمين المؤمن يوسف بن تاشفين الذى هو بحق من خير مَن يستشهد بهم التعبير عن أنفة هذه الأمة وشموخها وقدرتها على المواجهة ، هذا القائد الواعى والذى كان يردد فى كل مجلس من مجالسه ما ذكره له صاحب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ونعنى به عبد الواحد المراكشى ، (الطبعة السابعة ١٩٧٨ ، عن دار الكتاب بالدار البيضاء ، تحقيق سعيد العريان ومحمد العربى العلمى ص ٢٤١) ، حيث يقول يوسف بن تاشفين بصدد الأندلس ، هذا المنقذ لأندلس متهاوى قبل أن يتحوَّل إلى فردوس مفقود ، يحدِّد عرضه بوضوح : « إنما كان غرضنا فى مُلك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم واعمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم للراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقيْنة تُسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشتُ لأعيدن جميع البلاد الذى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة

ولا علم عندهم برخاء العيش ، وإنما هَمٌّ أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبى دعوته .....» .

ويضيف المراكشى (ص ٢٤٢) : « فبلغ ذلك ملوك النصارى فيزداد فرقهم ويقوى مما بأيدى المسلمين بل مما بأيديهم بأسهم » .

وهكذا كان لهذا العملاق يوسف بن تاشفين الحق أن يُنعَت من معاصريه بأمير المسلمين والمسترد لجزيرة الأندلس بأسرها ، هذا المرابطى الذى عُدَّ وابنه فى عصره - كما ذكر المراكشى فى نفس الصفحة - من أكابر الملوك ، وأفردنا له هذا الجانب فى ملحقاتنا الثلاثة لنجسد به كمثال قلعة من قلاع المجد ، على أن نُفرد الملحق التالى لمثال من بؤر الضياع فى انتظار استعادة الأندلس ، ولِمَ لا ؟ إن لم نستطع كواقع ملموس ، فلنستعده على الأقل فى أذهاننا بقلاع مجده وبؤر ضياعه .



ملحق (٣)

كتاب ابن الأحمر لصاحب فاس

كما جاء نصاً عند شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى « أزهار الرياض فى أخبار عياض » (الرباط ، منشورات صندوق التراث الإسلامى المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧٨ - (من ص ٧٢ إلى ص ١٠٢).

« ولا بأس أن نُورد كتاب السلطان أبى [١] عبد اللّه بن الأحمر المخلوع المذكور ، الذى بعث به لصاحب فاس [٢] فى ذلك العهد ، تمهيداً لعُذْره ، وتوطئة لمقصده ، وتَطارُحاً على تلك الأبواب وتملُّقاً ، وتمسُّكاً بذلك الجَناب وتعلُّقا ، وهو فى الغاية [٣] من الفصاحة والبلاغة ، من إنشاء الفقيه الأديب ، الشاعر الناظم ، الناثر الكاتب ، المُجيد البارع البليغ ، أبى عبد اللّه محمد بن عبد اللّه العربى العقيلىُ رحمه اللّه ، وسماه بالروض العاطر [٤] الأنفاس ، فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان ، فاس ؛ ونصّه بعد الافتتاح [٥] :

« مَـولَى الملوكِ ملوكِ العُرْبِ والعَجَمِ ... رَعْيًا لِمَا [٦] مِثْلُه يُرْعَى مِنَ الذِّمَمِ

بِـــك استجـــرْنَا ونِعمَ الجارُ أنتَ لمن ... جـــار الزمـان عليه جَوْر مُنتقِمِ

---

(١) فى (ط) : « أبا » وهو تحريف .

(٢) هو الشيخ الوطاسى سلطان فاس .

(٣) فى (ت) : « وفى الغاية » .

(٤) كذا فى (ت) ونفح الطيب ، وفى (ط) : « العطير » .

(٥) كذا فى (ت) ونفح الطيب ، وفى (ط) : « افتتاح » .

(٦) فى نفح الطيب : « لمن » .

حتـــى غـــدا مُلكُـــهُ بالرَّغْم مستلبا وَأَفْظَعُ الخَطْبِ ما يأتى على الرَّغَم

حُكْـمٌ مـــن اللّه حَتـــمٌ لا مَـرَدَّ له وهـــلْ مردٌّ لحكمٍ منه مُنْحَتِمِ [1]

وَهْـــىَ الليالـــى وقـــاكَ اللّهُ صَوْلَتَها تَصُولُ حتى عَلَى الآساد فى الأجَم

كنـــا مُلُـــوكاً لنا فـــى أرضنا دُوَلٌ نمْنَا [2] بها تحت أفْنَانٍ من النِّعَم

فأيقظتنـــا سِهـــام للـــرِدَى صُيُبٌ يُرْمَى بأفْجَع حَتْفٍ مَنْ بهنَّ رُمِى

فـــلا تَنَـــمْ تحـتَ ظِلِّ المُلكِ نَوْمَتَنَا وأىُّ مَلْكٍ بظِـــلِّ المُلْـك لم يَنَم

يبكـــى عليـــه الذى قد كان يعرفه بأدْمُـــعٍ مُـــزِجَتْ أمْوَاهُهَا بِدَم

كـــذلك الدهـــرُ لم يَبْرَحْ كما زَعَمُوا يُشِمُّ بَوُّ الصَّغَارِ [3] الأنْفَ ذا الشَّمِ [4]

وَصِـــلْ أواصرَ قد كانَتْ لنا اشتبكتْ فالمُلك بين ملوك الأرض كالرَّحِم

وابْسط لنا الخُلُـــقَ المَـــرجـوَّ باسطُه واعطِف ولا تنحرِف واعذِرْ ولا تَلم

لا تَأْخُـــذَنَّا [5] بأقـــوال الوُشَاةِ ولَمْ نُذْنِبْ ولو كثرتْ أقْوَالُ ذى الوَخَم

فما أطَقْنَـــا دِفـاعاً للقضاء وما [6] أرادَت أنفسُنا ما حـــل من نِقَم

ولا رُكُـــوباً بإزعـــاجٍ لسابحـــــة فـــى زاخـــرٍ بأكُفِّ الموجِ مُلْتَطِمِ

---

(١) كذا فى الأصلين وإحدى روايتى نفح الطيب ، ولم ترد صيغة « انحتم » فى المعاجم التى بين أيدينا . وفى رواية أخرى لنفح الطيب : « منحسم » .

(٢) فى(ت) « نما » ، وهو تحريف .

(٣) البو : جلد الحوار يُحشى تبناً ونحوه لتعطف عليه أمه فتدر . والصَغَار : الذل .

(٤) فى (ط) « ذو الشمم » .

(٥) كذا فى (ط) ونفح الطيب طبعة أوروبا . وفى (ت) ونفح الطيب طبعة المطبعة الأزهرية : « لا تأخذونا » .

(٦) فى (ت) : « ولا » .

والمرءُ ما لم يُعنه اللهُ أضيعُ من ... طِفـــل تَشَكَّـــى بفقد الأمِّ فى اليُتُم

وكلُّ ما [1] كان غير الله يحرسُهُ [2] ... فـــإنَّ محـــروسَه لحمٌ عَلَى وَضَم [3]

كُنْ كالسموءل إذ سار الهمام له ... فـــى جَحْفَلٍ كسواد اللَّيْل مُرْتَكِم [4]

فلم يُبِحْ [5] أدْرُعَ الكندىِّ وهْوَ يرى ... أن ابنـــه البرَّ قد أشفى عَلَى الرُّجَم [6]

أو كالمُعَلَّى [7] مع الضِّلِّيل الأرْوَع إذ ... أجـــاره مـــن أعاريبٍ ومِنْ عَجَم

وصار يشكره شكراً يكافىء ما ... أسْـــدَى إليـــهِ من الآلاءِ والنِّعَم

ولا تعاتبْ على أشياءَ قد قُدِرَتْ ... وخُطَّ مسطورُها فى اللَّوح بالقلمِ

وعَدِّ عما مضى إذ لا ارتجاع لهُ ... وعُـــدَّ أحرارَنا فـــى جُملة الخَدَم

إيهٍ [8] حنانَيْك يابن الأكرمين على ... ضيـــفٍ ألَمَّ بفاسٍ غيـــرِ محتشِم

فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت ... بنا [9] إليها خُطَا الوَخَّادَة الرُّسُم [10]

رُحماك يا راحماً يُنْمَى إلى رُحَمَا ... فى النفس والأهل والأتباع والحَشَم

فكم مواقفِ صدقٍ فى الجهاد لنا ... والخيـــلُ عالكـــةُ الأشداق لِلُّجُم

والسيف يَخْضِبُ بالمحمرِّ من عَلَقٍ ... ما ابيضَّ من سَبَلٍ واسودَّ من لِمَم [11]

(١) كذا فى (ط) ونفح الطيب . وفى ت : « من » .

(٢) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « ما كان غير الله يحرصه فإن محرصه » ، وهو تحريف .

(٣) الوضم : خوان القصاب ، وهو ما يقطع عليه اللحم ويهينه .

(٤) الجحفل : الجيش الجرار . ومرتكم : متراكم .

(٥) فى (ط) : « فلا » .

(٦) الرجم : جمع رجمة ، وهى الحجارة توضع على القبر ، ويريد القبر نفسه .

(٧) المعلى : هو أحد بنى تيم ، وكان قد أجار امرأ القيس من المنذر بن ماء السماء .

(٨) إيه : أى حسبك .

(٩) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « منا » .

(١٠) الوخادة : السريعة السير . والرسم : جمع رسوم ، وهى الناقة التى تؤثر فى الأرض من شدة الوطء .

(١١) يريد بالسبل : شعر اللحية . واللمم : جمع لمة ، وهى شعر الرأس الذى يلم بالمنكبين .

ولا ترى صَدْرَ عَضْبٍ غيرَ مُنْقَصِفٍ ... ولا ترى مَتْن [1] لَدْنٍ غيرَ مُنْحَطِمِ

حتى دُهِينا بِدَهْيا لا اقتدارَ بها [2] ... سِوَى على الصَّوْنِ للأطفالِ والحُرَمِ

فقال مَنْ لم يشاهدْها فربَّتَما ... يُخال جامحها يُقتاد بالخُطُمِ

هيهاتَ لَوْ زَبَنَتْه الحرب كان بها ... أعيا يدا من يد جالت على زَلَم [3]

تاللّهِ ما أضمرت غِشًا ضمائرنا ... ولا طَوَتْ صِحَّةٌ منها على سَقَمِ

لكنْ طلبنا من الأمر الذى طلبت ... وُلاَتُنا [4] قبلنا فى الأعْصُرِ الدُّهُمِ

فخاننا عنده الجَدُّ الخَئون ومَنْ ... تَقْعُدْ به نكَباتُ الدهر لم يَقُمِ

فاسودَّ ما اخضرَّ من عيش دَهَتْه عِداً ... بالأسمر اللَدْن أو بالأبيض الخَذِم [5]

وشتَّت البَيْنُ شَمْلا كان منتظما ... والبين أقطع للموصول من جَلَم [6]

فرُبَّ مَبْنًى شديد قد أناخ به ... ركْب البَلاَ فَقَرَته أدمع الدِّيَم [7]

قمنا لديه أُصَيْلاناً نسائلِه ... أعيا جوابا وما بالربع من أَرَم [8]

وما ظننا بأن نبقى إلى زمن ... نرى به غُرَرَ الأحباب كالحُمَم [9]

لكن رِضًا بالقضا الجارى وإن طُوِيت ... منا الضلوعُ على بَرْحٍ من الألم

---

(١) فى (ت) : « مثل » .   (٢) فى (ت) : « بدهى لا اقتدار بنا » .

(٣) كذا فى (ت) . والزلم – بفتحتين ، أو بضم ففتح – : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية . وفى (ط) ونفح الطيب طبعة المطبعة الأزهرية : « رحم » . وفى نفح الطيب طبعة أوربا : « رخم » . وما أثبتاه أوضع ، فهو يريد أن يد هذا اللائم أضعف من يد تجيل قداح الميسر .

(٤) كذا فى نفح الطيب . وفى ت : « ولاته » . وفى (ط) : « ولاية » .

(٥) الأسمر اللدن : الرمح . والأبيض الخذم : السيف القاطع .   (٦) الجلم : المقراض .

(٧) الديم : جمع ديمة ، وهى السحابة يدوم مطرها أياماً .

(٨) أصيلانا : قرب الأصيل . وما بالربع من إرم : أى من أحد .

(٩) الغرر : جمع غرة ، وهى بياض الجبين . والحمم : الفحم الأسود ، الواحدة حُمة (بالضم) .

لَبَّيْكَ يا مَـــنْ دعـــانا نحو حَضرته دعــــاء إبـراهِمَ الحُجّاج للحَرَمِ

وأعْـطِ الأمْنَ [١] الذى رُصَّتْ [٢] قواعده علـــى أساسِ وفـاءِ غيرِ منهدِمِ

خليفـــةَ اللّـــه وافــاك العَبيدُ فكن فـــى كـل فضل وطَولٍ عند ظَنِّهِمِ

وبيــــن أســـلافنـــا ما قد علمتَ به مـِنِ اعتقادٍ بحكم الإرث مُقْتَسَمِ

وأنت منهـــمْ كأصـــل مُطْلِـع غُصُناً أو كالشِّـراك الذى قَـدْ قُـدَّ مِنْ أدَمِ

وقـــد خَطــوْت خُطاهم فى مآثرهم فلـــم يُـــذَمُّوا إذنْ فيها ولم تُذَمِ [٣]

وصيتُ مَولَى الورى الشيخ الإمام غدا فـــى الناس أشهـــرَ من نارٍ على عَلَمِ

سُــــلالةِ الأمـــراءِ ، الجِلَةِ الكبَـرا ءِ ، العلِيةِ الظُّهراءِ ، القادة البُهَـم [٤]

بنـــو مَـــرينَ لُيُوثٌ فـــى عرينَ أبَوْا رؤيـــا قــرينٍ لهم فى البأس والكرم

النازلين مــن البيضاء [٥] وسْطَ حِمىً أحْمَـــى مِـــن الأبْلَق السامى ومن إرَمِ

والجـــائسينَ بـــدُهْـم الخيل كل ذَرىً والداعسين بسَمْر الخط كل كَمى [٦]

يريـــك فارسُهـــم إن هَـزَّ عاملَه [٧] فى مَأزقٍ [٨] بلظى الهيجاء مُضْطَرِمِ

لَيثا علـــى أجْــــدلٍ عار مِنَ أجنحةٍ يَسْطُـــو بأرقمَ لَدَاغ بغير فَمِ [٩]

---

(١) فى نفح الطيب : « واعط الأمان » . (٢) فى (ت) : « رست » .

(٣) لم تذم : لم تعب . يقال : ذامه يذيمه : إذا عابه .

(٤) الظهراء : جمع ظهير ، وهو النصير . والبهم : جمع بُهمة - بالضم - وهو البطل الشجاع .

(٥) البيضاء : فاس الجديدة .

(٦) الجائسين : الذين يترددون خلال الدور والبيوت فى الغارة . وكل ذرى : كل ناحية . والداعسين : الطاعنين . وسمر الخط : الرماح المنسوبة إلى الخط ، وهو مرفأ بالبحرين . والكمى : البطل المتستر فى سلاحه .

(٧) عامل الرمح : صدره .

(٨) فى الأصلين ونفح الطيب : « مارق » ولعلها محرفة عما أثبتناه .

(٩) الأجدل : الصقر ، شبّه به الحصان فى سرعة انتفاضه . والأرقم : الثعبان ، شبّه به الرمح

فـــى اللام يُدْغِم من عَسَّاله أَلِفاً ... ولـــم نجـد ألِفاً أصلا بمدَّغَم [1]

أهلُ الحفيظة يوم الرَّوع يحفظهم ... مـن عصمة اللّه ما يُرْبى على العِصَم [2]

بَأسٌ [3] تَطير شَرارٌ منه محرقة ... لكـــل مَـــدَّرِعٍ بالحـزْم مُحْتَزَم

هُمُ [4] بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثـــل ما يفتك السِّرْحان بالغَنَم [5]

وإنْ يُلَثِّمْهُمُ يـومَ الوغَـــى رهَجٌ ... أنْسَوكَ مـا ذكروه عن ذوى اللُّثُم [6]

تضـــىء آراؤهم فى كل مُعضلة ... إضـا ءةَ السُّرْج فى داجٍ مـن الظُّلَم

هـذا ولو من حياء ذاب محتَشِمٌ ... لذاب منهـم حياءً كـلُّ محتشم

طابت مدائحهم إذْ طابَت أنفسهُمْ ... فـاشْتَقَّت النَّسَمات اسْما من النَّسَم

للّهِ درُّهُـــمُ والسُّحْـــب باخلـة ... بدَرِّهـــن علـــى الأنْعام والنَّعَم

بحيث الأفْقُ يُرى من لَوْن حُمْرَته ... كـالشيب يُخْضَبُ بالحِنَّاء والكتَم [7]

هنــاك تَنْهَلُّ أيديهمْ بصوبِ حَياً ... يُحيى بالأجداث ما فيها من الرِّمم [8]

---

(1) اللام : مسهلة عن اللأم ، جمع لأمة ، وهى الدرع . والعسال : الرمح اللدن ، وقد شبّهه فى استقامته بالألف . وفى البيت توريه .

(2) العصم : ما يعتصم به الناس فى الحرب من معاقل وشبهها .. يريد أنهم محوطون من عناية الله وحياطته بما لا تفى بمثله المعاقل والحصون .

(3) فى (ت) ونفح الطيب : « يامن » .

(4) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « وهم » .

(5) السرحان : الذئب .

(6) كذا فى (ت) ونفح الطيب . والرهج : الغبار تثيره الحرب . وفى (ط) : « وهج » . وذوو اللثم : يريد الملثمين ، قبائل من البربر عرفوا بالشجاعة .

(7) الكتم (كسبب) : نبت يُستعمل فى خضاب الشَعر . يصفهم فى هذا البيت والذى قبله بالجود فى أزمان القحط والشدة .

(8) تنهل : تفيض . وصوب الحيا : ماء المطر . والأجداث : القبور .

وإنَّ بَيْتَيْ زيادٍ طالما ذُكِرا إذا ألَمَّتْ أحاديث بذِكْرِهِم [1]

« أحْلام عاد وأجساد مُطَهَّرَةٌ من المَعَقَّةِ والآفات والإثَم » [2]

يَرَوْنَ حَقا عَليهمْ حفظَ جارِهِم فلم يُضَرْ نَازِلٌ فيهم ولم يُضَمِ

فَرُوعُه [3] بالدواهى لا يُرَاعِ ولاَ يُغَمُّ منها بما يعرو من الغُمَمِ [4]

هم البحار سَماحا غير أنّ بها ما قد أناف على الأطواد [5] من هِمم

وليس يسلمَ من حَتْف محاربُهُمْ حتى يكون إليهمْ مُلْقِيَ السَّلَم

كم فيهمُ من أمير أوحَدٍ نَدُسٍ يُقَرْطِسُ الغَرَضَ المقصود بالفَهَم [6]

ولا كسبْط أبى حَسُّونَ مَنْ حَسُنَتْ أمداحه حُسْنَ ما فيه من الشِّيم [7]

---

(١) زياد : هو النابغة الذبيانى .

(٢) المعقة : العقوق . والإثم : جمع إثمة ، وهى الإثم . وهذا البيت من مقطوعة للنابغة أبياتها أربعة فى مدح الغساسنة ، وقبله :

هم الملوك وأبناء الملوك لهم فضل على الناس فى اللأواء والنعم

ولعل الناظم يعنى هذين البيتين .

(٣) كذا فى الأصلين . وفى نفح الطيب : « فروعهم » .

(٤) الروع : موضع الفزع من القلب .

(٥) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « الأطراء » .

(٦) الندس (كعضد وكتف وسهم) : الفطن الفهم . ويقرطس الغرض : يصيبه .

(٧) أبو حسون : هو أبو الحسن على بن محمد الشيخ بن أبى زكريا يحيى بن زيان الوطاسى ، يُعرف بأبى حسون الباذسى ، بويع بفاس أول مرة سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة . (انظر بقية أخباره فى الاستقصا للسلاوى) .

هَذَا كُمُ ابنُ أبى زَكرِى [1] الهمامُ فقلْ ... فى أصله المنتَقى من مجده العَمَ [2]

خليفــةُ اللّه حقــا فــى خليقته ... كنائب ناب فى حكمٍ عَنِ الحَكمِ

مهما تُنرْ قَسِماتٌ [3] منه نَيّرَةٌ ... تُنِلْ بَنانٌ له ما جَلَّ مِن نِعمِ [4]

فَــوَجْهــهُ بدُجــىً وكفُّه بجَداً ... أبْهَى من الزُّهرِ أَوْ أنْدَى من الدِّيَمَ [5]

وفضله ولــه الفضل المبينُ جرى ... كجرى الأمثال في الأقطار والأمم

وجــودُه المتــوالــى للبريّة ما ... وجــوده بينها طُــراً بمنهــدم

إذا ابتغتْ نِعَمــاً منه العُفاة لهُ ... لم يسمعوا كِلْمة منه سِوَى نَعَم

وإنْ يُعَبِّسْ زمــانٌ فــى وُجُوهِهِمِ ... لم يُبصروا غير وجه منه مُبتسم

وجْــهٌ تَبين سِماتُ المَكْرُمات به ... كما تَبين سماتُ الصِّدق فى الكَلِمِ

وراحــةٌ لــم تزل فى كل آونةٍ ... فى [6] نَيْلها راحة الشاكى من العُدُم

للّهِ مــا التــزمتْهُ مــن نوافله ... أَيّامَ لا فَــرْضَ مفــروضٌ بملتزَم

أنْسَى الخلائفَ فى حلم وفى شرف ... وفــى سخاء وفــى علم وفى فَهَم

فجــاز معتمِداً منهم ومُعْتَضِدا ... وامتاز عــن قائم منهم ومعتصم

وناصِرَ الدين فى الإقبال فاقَ وفــى ... مَحبّة العلم أزْرَى بابنــه الحَكَــم

---

(١) زكرى : يريد زكرياء وفيه لغات ، منها زكرِيّ (كعربى) - بتشديد الياء وتخفيفها ، وبهذه الرواية الأخيرة جاء هنا مع إسكان الكاف ، ليستقيم الوزن .

(٢) العمم : التام

(٣) رواية هذا البيت فى (ط) :

مهما نشم نسمات منه نيرة ... تنل بنازله ما جَلَّ من نعم

(٤) قسمات الوجه : ما أقبل منه ، أو محاسنه .

(٥) الجدا : العطاء . والديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم أياماً .

(٦) كذا فى (ط) ونفح الطيب . وفى (ت) : « من » .

أفعـــال أعـــدائه معتلـة أبدا　　　متـــى (١) يَرُم جَزمها بالحذف تَنْجزم

فويل أهل الفَلاَ من حَيّة ذَكَرٍ (٢)　　　{ لِلْمُتَلَئِبِّ (٣) } اللُّهام المَجْـر مُلْتقِمٍ (٤)

رامُوا عداوة مَنْ إنْ شاء غادرهم　　　مثـــل الأحـــاديث عن عادٍ وعنْ إرَم

فسوف يأكلهم مـــن جيشه لَجِبٌ　　　بكـــل قَرْمٍ إلى لُحْمَانِهِمْ قَرِم (٥)

وإنّ الأعـــرابَ إذْ ساروا لغابته　　　لسائرون إلـــى لَقْم على لَقَم (٦)

وهم كما قاله ماضٍ : أرى قَدَمِي　　　بسعيه نحـــو حَتْفِي قد أراق دَمِي (٧)

فقل إذنْ للمُناوِي النَّاوِي الآنَ الأذى　　　ياغِـــرُّ (٨) غَرَّك ما أبْصَرْت فى الحُلُم

له صـــــوارم لو ناجتك ألْسُنها　　　لبشَّرتـــك بُعمر منـــك مُنْصَرِم

وإن رُوحَـــك عـــن قرب سيَقْبضه　　　قبضَ المُسَلِّم ما قـد حاز من سَلَم (٩)

فَهْـــو الذى مـــا له نِدٌّ يشابهُهُ　　　مـــن كلّ مُتَّصف بالدَّهْيِ (١٠) مُتسِم

يُـــدَبِّر الأمـــر تدبيراً يُخَلِّصُهُ　　　مما عَسَى أن يُرَى فيه مِنَ الوَهَم

---

(١) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « حتى » .　　(٢) حية ذكر : شهم .

(٣) كذا فى نفح الطيب ، ويريد بالمتلئب : الجيش الممتد . وفى (ت) : « للملتئب » ، وهو تحريف . وسقطت هذه الكلمة من (ط) .　　(٤) اللهام والمجر : هما بمعنى الجيش العظيم .

(٥) اللجب الجيش الكثير ، والقرم : السيد . واللحمان . جمع لحم . وقرم (ككتف) : شديد الشهوة لأكل اللحم .

(٦) كذا فى (ت) ونفح الطيب . واللقم : الأكل ، ويريد به الافتراس ، واللقم - بالتحريك - : وسط الطريق . وفى (ط) : « ... نعم على لغم » .

(٧) يشير إلى قول أبى الفتح البستى :

إلى حتفى سعى قدمى　　　أرى قدمى أراق دمى

(٨) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « يغر » .

(٩) المسلم : المسلف ، الذى يعطى ذهبا أو فضة على سلعة معلومة إلى أجل معلوم . والسلم : البيع المبيع المؤجل قبضه .　　(١٠) الدهى والدهاء : الفكر وجودة الرأى .

ويُبْصِــرُ الغيب لحظُ الذهن منه إذا تَعْمَــى عَــنِ ادراكه ألحاظ كُلّ عَم

ويُنْعِـــمُ [1] النظرَ المُفْضِــى بناظره لصوبِ وجهِ صوابٍ واضح اللَّقَم [2]

ذو مَنطـــق لم تــزل تجلــو نتائجُهُ عـن مُبْطِل بخصام المبطِل الخَصِمِ [3]

ومِسْمَــعٍ ليس يُصْغــى للوُشاة فلم يَنْفُق لديه الذى عنهــم إليه نُمِى [4]

فعَقــله لا تــوازيه العقول وهَــلْ يوازنُ الطودَ ما قد طال من أكَم

إيهٍ جميــعَ الورى مــن بدوٍ أو حَضَرٍ نِــداءَ مُـرْتَبِطٍ بالنُّصْح مُرْتَسِمِ

شُـدُّوا وجِـدُّوا ولا تَعْنُوا ولا تَهِنُوا قد لَفَّها الليلُ بالسَّوَّاقَةِ الحُطَم [5]

هــذا الأميــرُ [6] المَرِينِىُّ السعيدُ له سَعْــدٌ يــؤيِّده في كلّ مُصْطَدَم

قــد أقسمَتْ أنه المنصورُ ألسنةٌ مــن نُخبــة الأوْليا مَبْـرورةُ القَسَم

فَشيِّعــوه ووالُوه تَــرَوْا عَجَبا وتظفَــرُوا معَــه بالأجْر والغنَم [7]

والحمــد للّه إذْ أبقــى خلاقَته كَهْفاً لنا مَــنْ يُخَيّم فيه لَمْ يُـرَم [8]

حِــرْزٌ حَــريز وعزّ قائم ونَدًى غَمْــرٌ دِراكٌ بــلا مَنٍّ ولا سَأم [9]

---

(١) كذا فى نفح الطيب . وإنعام النظر : تدقيقه . وفى الأصلين : يمعن ، وهو يتعدى بحرف الجر . يقال : أمعن فى الأمر ، أى أبعد فيه .

(٢) اللقم (كسبب) : وسط الطريق .

(٣) الخصم (ككتف) : الجدل الشديد الخصومة . يريد أنه يبطل حجج خصمه بقوة بيانه .

(٤) ينفق : يروج . ونمى إليه : وصل إليه .

(٥) لا تعنوا : لا تخضعوا وتذلوا . ولا تهنوا : لا تضعفوا . ولفها : جمعها ، والضمير فى الأصل للإبل ، والسواقة : السواق ، والتاء للمبالغة . والحطم : الشديد السوق ، وهذا مثل . يريد أن متولى أمرهم - وهو الممدوح - رجل قوى شديد .

(٦) فى نفح الطيب : « للإمام » .

(٧) شيعوه : ناصروه . والغنم - بالتحريك - : المغنم ، كالغنم - بالضم .

(٨) لم يرم : أى يعز على مَن يطلبه .

(٩) غمر : كثير . ودراك : متتابع متلاحق .

دامت ودام لها سَعْـــد يساعدُها ... فـــى كـل مُبتدإ منه [1] ومختَتَمِ

فاللّه - عــزَّ اسمه - قد زانها بحُلَى ... من غُرِّ أمْداحه كالدُّر فى النُّظُم [2]

الواهب الألف بعـــد الألف مــن ذهبٍ ... كالجَمْر يلمع فى مُستوقَد الضَّرَم [3]

والفاعـــــلُ الفعـــــلَ لم يَهْمُمْ به أحد ... والقائـل القولَ فيه حكمةُ الحِكَم

ذاكــم هو الشيخ فاعجب إنه هَرِمٌ [4] ... جُودا وحاشاه أن يُعْزَى إلى هَرَم [5]

وحسْبُنـــا أنَّ أيْدينا به اعتَصمتْ ... مـــــن حَبْله بوَثيق غيـرِ مُنْفَصِم

فمـــا مُحـــالِفُــهُ يوماً بمُضطَهدٍ ... ولا مُـــــؤَالِفُــه يــوماً بمهتَضَم

ولا مـــــوافيه فـــى جَهْد بمطَّرَحٍ ... ولا مُصــــافيــه فـــى وُدّ بمُتَّهم

ولا مُحَيَّـــا مُحَيِّـــه بمنكَشِفٍ ... ولا رجـــاءُ مُـرَجِّيه بمنخَرِم [6]

ومـــا [7] تَكَـرُّمه سراً [8] بمُنكَسِفٍ ... ولا تنكُّــــرُه جهـــراً بِمُكْتَتَم

وليس لامِـــحُ مَـــرآه بمكتئبٍ ... وليس راضـــع جَـدواه بمنفَطِم

ولا مُقَبِّـــلُ يُمناه الكريمةِ فـــى ... محلٍّ مُمْتَهنٍ بل دَسْتِ مُحْتَرَم [9]

ومـا وسيلتنا العُظْمى إليه سوَى ... ما ليس يُنْكَر ما فيها من العظم

وإنما هِيْ وَمَا أدراكَ ما هِيَ مِنْ ... وسيلةٍ ردُّها أدهَى مِنَ الرُّضَم [10]

---

(١) فى نفح الطيب طبعة أوربا : « منها » .

(٢) النظم : جمع نظام ، وهوالخيط ينظم فيه الخرز ونحوه .

(٣) فى (ط) : « الظلم » .

(٤) يريد أن الممدوح مثل هرم بن سنان ، ممدوح زهير بن أبى سلمى ، المزنى .

(٥) فى نفح الطيب طبعة أوربا : « الهرم » .

(٦) بمنخرم : أى بمنقطع .

(٧) فى نفح الطيب (طبعتى أوربا ومصر) : « ولا » .

(٨) فى (ط) : « يوماً » .

(٩) يريد بالدست : المكان الكريم ، مأخوذ من دست البيت ، وهو صدره .

(١٠) كذا فى (ط) . والرضم : صخور عظام . وفى (ت) : « الوخم » .

نبيُّنا المصطفَــــى الهادى بخير هُدًى ‏ ‏ ‏ ‏ محمــــد خَيْـــرُ خلــق الله كلِّهم
داعِى الورى مِنْ أُولِى خَيْم وأَهْلِ قُرًى ‏ ‏ ‏ ‏ إلـى طـــريق رشاد لاحبٍ أَمَم [١]
عليـــه منّا صـــلاة الله ما ذُكـــرَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ « أمِنْ تذكُّرِ جيـرانٍ بذى سَلَم »[٢]
ومـــا تَشَفَّع فيهـــا بالشَّفيـــــع له ‏ ‏ ‏ ‏ دَخيلُ حُرْمته العَلْياء فى الحَرَم [٣]

﴿ ربَّنَا ظَلَمْنَا أنفسَنَا وإن لَّمْ تَغفرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ منَ الخَاسرينَ ﴾ [٤] ، ﴿ أنتَ وَليُّنَا فَاغْفرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وأَنتَ خَيْرُ الغَافرينَ ﴾ [٥] ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإلَيْكَ أَنَبْنَا وَإلَيْكَ المَصيرُ ﴾ [٦] ، ﴿ ذَلكَ بأنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافرينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [٧] ، ﴿ نعْمَ المَوْلَى وَنعْمَ النَّصيرُ ﴾ [٨] .

أما بعدَ حمد الله الذى لا يُحْمَدُ على السَّراء والضَّراء سواه ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، الذى طلع الفجر بل البدْر فَلاح ، يَدْعو إلى سبيل كل فلاح ، أُولِى قلوب غافلة ، ونفوس سَوَاه ، والرِّضا عن آله وأصحابه ، وعتْرته الأكرمين وأحزابه ، الذين تلقَّوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ، وعزَّوزه ونصروه فى حالَىْ قُرْبه ونَوَاه .

فيا مولانا ، الذى أولانا من النعم ما أولانا ، لا حَطَّ الله تعالى لكم من العزة رُواقاً [٩] ، ولا أذوى لدَوْحة [١٠] دولتكم أغصانا ولا أوراقا ، ولا زالت مخضرة العود ، { مبتسمة } [١١] عن زهرات البشائر مُتْحفة بثمرات السُّعود ، ممطورة بسحائب البركات المتداركات دون بُرُوقٍ [١٢] ولا رعود :

---

(١) أهل خيم : أى ساكنى الخيام . واللاحب : الواضح . والأمم : البين . وقد ورد الشطر الأول من هذا البيت فى (ط) هكذا : « داعى الورى من أولى من أهل خيم قرى » .
(٢) هذا الشطر مطلع قصيدة البردة المشهورة للبوصيرى فى مدح الرسول ﷺ .
(٣) الدخيل : اللاجىء . والحرمة : الذمة .
(٤) الأعراف : ٢٣ ‏ ‏ ‏ (٥) الأعراف : ١٥٥ ‏ ‏ ‏ (٦) الممتحنة : ٤
(٧) محمد : ١١ ‏ ‏ ‏ (٨) الأنفال : ٤٠ .
(٩) الرواق : الخيمة ، يدعو له بدوام ارتفاع المنزلة .
(١٠) الدوحة : الشجرة الواسعة الظلال ، وأذوى : أذبل وأضعف .
(١١) الزيادة عن (ت) ، ونفح الطيب . ‏ ‏ ‏ (١٢) فى (ت) ونفح الطيب : « برق » .

هذا مقام العائد بمَقامكم ، المتعلّق بأسباب ذمامكم ، المترجّى لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبِّل الأرضَ تحت أقدامكم ، المتلجلِج [1] اللسان عند محاولة [2] مفاتحة كلامكم ، وماذا الذى يقول مَنْ وجهُه خَجِل ، وفؤادُه وَجِل ، وقضيتُه المقضيّةُ عن التنصل والاعتذار تَجِلّ ، بَيْدَ أنى أقول لكم ما أقوله لربّى ، واجترائى عليه أكثر ، واجترامى [3] إليه أكبر : اللّهم لا بَرِيءٌ فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مُستقيل [4] مُستنيل [5] مستعتب [6] مستغفر ، ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ﴾ [7] . هذا على طريق التنزّل والاتصاف ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حَيِّز الإنصاف ، وأمّا على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأمّ ابنة الصدِّيق [8] : « واللّه إنى لأعلمُ أنّى إنْ أقررتُ بما يقوله الناس ، واللّه يعلم أنّى منه بريئة [9] ، لأقولنَّ [10] مالم يكن ، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوننى ، فأقول ما قاله يوسف [11] : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، واللّهُ المُسْتَعانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [12] .

على أنّى لا أنكر عيوبى ، فأنا مَعْدِن العيوب ، ولا أجْحَد ذُنوبى ، فأنا جَبَل الذنوب ، إلى اللّه أشكو عُجَرِى وبُجَرِى [13] ، وسَقَطاتى وغَلَطاتى . نَعَم ، كلّ شيء ولا مايقوله المتقوِّل . المشنِّع المهوِّل ، الناطق بفم الشيطان المسوِّل . ومن أمثالهم : « سُبَّنى واصدُق » ، ولا تَفْتَر ولا تَخْلُق . فمثْلى كان يفعل أمثالَها ، ويَحمل [14] من الأوزار المضاعَفَة أحمالها ، ويُهْلِكَ نفسه ويُحْبِط

---

(1) فى (ط) : « والمتلجلج » .

(2) كذا فى (ط) ونفح الطيب . وفى (ت) : « عن مفاتحة » .

(3) اجترامى : ذنبى

(4) مستقيل : طالب الإقالة من العثرة .

(5) مستنيل : طالب النوال .

(6) مستعتب : طالب العتبى ، وهى الرضا .

(7) يوسف : ٥٣

(8) يريد أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق .

(9) كذا فى نفح الطيب وسيرة ابن هشام . وفى الأصلين : « برىء » .

(10) كذا فى سيرة ابن هشام . وفى نفح الطيب و (ط) : « لأقول » . وفى (ت) : « لا أقول » .

(11) تريد سيدنا يعقوب عليه السلام .

(12) يوسف : ١٨

(13) العجر والبجر (هنا) : العيوب والأحزان وما يبدى المرء وما يخفى . والعجر (فى الأصل) : العروق المتعقدة الناتئة ، والبجر : ما تعقد منها على البطن خاصة .

(14) فى (ط) ونفح الطيب : « ويحتمل » .

أعمَالها ، عياذاً بالله من خُسْران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضَلَلْتُ إذَن وما أنا من المهتدين . وايمُ الله لو علمتُ شعرةً فى فَوْدى [١] تَميل إلَى الجهة لَقَلَعْتُها ، بل لقطَفْت [٢] ما تحت عمامتى من هامتى وقطعتها ، غير أن الرِّعاع فى كل وقت وأوان ، للملك أعداءٌ وعليه أحزاب وأعوان ، كان أحمقَ وأجهلَ من ابن ثَرْوان [٣] ، أو أعْقَلَ وأعلم من أشجِّ بَنى مروان [٤] ، ورُبَّ مُتَّهَم بَرى ، ومُسربَل بسربال وهو منه عَرِى [٥] ، وفى الأحاديث صحيح وسقيم ، ومن التراكيب المنطقية مُنْتِجٌ وعقيم ، ولكن ثَمَّ ميزان عقل ، تُعتبر به أوزان النقل ، وعلى الراجح الاعتماد [٦] ، ثم إشاعَة الإحماد ، المتصل المُتَماد ، وللمرجوح الاطِّراح ، ثم الذم الصُّراح ، بعد النفض [٧] من الراح ، وأكثر ما تسمعه الكذبُ ، وطبع جمهور الخلق إلاَّ مَن عصمهُ الله [٨] إليه منجذب ، ولقد قُذفْنا من الأباطيل بأحجار ، ورُمينا بما لاَ يُرْمَى [٩] به الكُفّار ، فضلاً عن الفُجَّار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، ما لكم منه حفظ الجبّار [١٠] ،

---

(١) كذا فى نفح الطيب ، وفى الأصلين : « من فؤادى » .

(٢) كذا فى (ط) . والقطف : القطع . وفى (ت) : « بل لقلعت » ، وهو تحريف .

(٣) كذا فى أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى ، والمضاف والمنسوب للثعالبى . وهو هبنقة القيسى يزيد بن ثروان ، المعروف بذى الودعات ، وهو مثل فى الحمق والجهل . وفى (ط) : « من أبى ثوران » . وفى (ت) : « من أبى ثروان » . وكلاهما تحريف .

(٤) أشج بنى مروان : هو عمر بن عبد العزيز ، لأنه كانت به شجة .

(٥) كذا فى نفح الطيب . وفى الأصلين : « ومسربل بسربال عار وهو منه عرى » .

(٦) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « وعلى الراجح على الاعتماد » .

(٧) فى (ت) : « النفاض » .

(٨) فى (ط) : « إلاَّ مَن عظَّم الله » .

(٩) فى (ت) : « بما لم يرم » .

(١٠) كذا فى (ت) . ورواية هذه العبارة فى (ط) : « وجرى ... وعمرو ما يريكم منه حفظ الجار » . وفى نفح الطيب : « وجرى ... وعمرو ما لديكم منه خط الجار » ، وظاهر أنهما محرفتان عما أثبتناه .

وإذا عظم الإنكاء [١] ، فعلى تُكَأة التجلُّد الاتكاء ، أكْثَر المكثرون ، وجَهَد [٢] في تعثيرنا المتعثِّرون ، ورَمَوْنا عن قوس واحده ، ونظمونا في سلك الملاحده ، أكُفراً أيضاً كُفرا ؛ غَفْراً اللهمّ غَفْرا ، أعدْ نظراً يا عبد قيس ، فليس الأمر على ما خُيِّل [٣] لك لَيْس ، وهل زِدْنا على أن طَلَبْنا حَقَّنا ، مِمّن رام مَحْقَه ومَحْقَنا ؟ فطاردنا في سبيله عُداة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فَتْق ، لم يمكنا له رَتْق ، وما كنا للغيب حافظين .

وبعد ، فاسألْ أهل الحل والعقْد ، والتمييز والنَّقد ، فعند جُهَيْنتهم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يُؤْثِمنا فيُوبِقُنا ، أو يُبَرِّئُنا فيَقينا . إيه يا مَنِ اشْرأبَّ إلى مَلامنا ، وقَدَح حتى في إِسلامنا ، رُوَيْداً رويدا ، فقد وجدتَ قوة وأَيْدَا ، ويحك ، إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء إلينا ، لأن الزمان لنا مُصْغِر ، ولك مُكْبِر ، والأمر عليك مُقْبل ، وعنّا [٤] مُدْبِر ، كما قاله كاتب الحجاج المدبِّر [٥] .

وعلى الجملة ، فهبنا صِرْنا إلى تسليم مقالك جَدَلا ، وذَهبنا فأقررْنا بالخطأ في كل وِرْدٍ وصَدَر ، فللّه درُّ القائل :

* إن كنتُ أخطأتُ فما أخْطَا القَدَر * [٦]

---

(١) كذا في (ت) ونفح الطيب . والإنكاء : شدة النيل من العدو . وفي (ط) : « وإذا علم الإنكار » .

(٢) في (ط) : « وجهر » .

(٣) كذا في (ت) ونفح الطيب . وفي (ط) : « ما خيلت لك » .

(٤) في (ت) : « وعلينا » وهو تحريف .

(٥) كاتب الحجاج : هو يزيد بن أبي مسلم . يشير إلى رد يزيد على سليمان بن عبد الملك حين دخل عليه فتنقصه سليمان وسب الحجاج : « إنك رأيتني والأمر عن مدبر ، ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل استعظمتَ من أمري ما استصغرت » (انظر البيان والتبيين جـ ١ ص ٢١٠ - ٢١١ طبعة الفتوح سنة ١٣٣٢ هـ) .

(٦) هذا عجز بيت لأبي العتاهية ، وصدره : « هي المقادير فلمني أو فذر » .

وكأنّا [١] بمعتسف [٢] إذا وصل إلى هنا ، وعدم إنصافه يعلّمه الهنا [٣] ، قد ازْوَرّ متجانفا [٤] ، ثم افْترَّ مُتَهانِفا [٥] ، وجعل يتمثل بقولهم : « إذا عُيِّرُوا قالوا مَقاديرُ قُدِّرتْ »

ويقولهم : « المرء يعجز لا مَحَالة » [٦] ، فيعارض الحق بالباطل ، والحاليَ بالعاطل ، وينزع بقول القائل : « رُبَّ [٧] مُسْمِعٍ هائل ، وليس تحته من طائل » [٨] . وقد فرغنا أوّلَ أمسِ [٩] من جوابه ، وتركنا الضِّغْن يُلصِق حرارة الجَوَى به ، وسَنُلِمُّ [١٠] الآنَ بما يُوسِعُه تسكيتا ، ويَقْطعه تَبْكيتا . فنقول له : ناشدناك الله تعالى ، هل اتفق لك قَطُّ وعَرَض ، خروج أمر ما على القصد منك فيه والغرَض ، مع اجتهادك أثناءَه في إصدارك وإيرادك ، في وقوعه على وَفْق اقتراحك ومُرادك ؟ أو جميع ما تزواله بإدارتك ، لا يقع إلاَّ مطابقًا لإرادتك ؟ أو كل ما تقصده وتنويه ، تُحْرِزه كما تشاء وتحويه ؟ فلا بُدَّ أن يُقِرَّ اضطرارا ، بأن مطلوبه يشذُّ عنه مرارا ، بل كثيراً ما يُفْلِت صيدُه من أشراكه ، ويطلبه فيعجِز عن إدراكه ، فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل ، أيها النبيه النَّبيل ،

---

(١) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « وكان » .

(٢) في (ت) : « بمعتسف » .

(٣) يريد بالهنا : جمع هنة ، وهي العيب . والذى فى كتب اللغة أنها تُجمع على هنات وهنوات .

(٤) ازور متجانفاً : مال متباعداً .

(٥) كذا في (ط) ونفح الطيب . وافتر متهانفاً : أي فتح فاه ضاحكاً مستهزئاً . وفي (ت) : « متهاتفاً » وهو تصحيف .

(٦) في (ط) : « لا المحالة » .

(٧) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « ذي » ، وهو تحريف .

(٨) كذا في (ط) . وفي (ت) : « وليس من تحته من طائل » . وفي نفح الطيب : « وليس تحته طائل » .

(٩) أول أمس : أي بكرته ومبتدأه . والمسموع من العرب عند إرادة اليوم السابق لأمسك : « أول من أمس » .

(١٠) كذا في (ت) ونفح الطيب . وفي (ط) : « ونسلم » ، وهو تحريف .

ثم نسردُ له من الأحاديث النبوية ما شِينا ، مما يُسايرنا في غرضنا منه ويماشينا ، كقوله ﷺ : « كل شيء بقضاء وقَدَر حتى العَجْز والكَيْس » . وقوله أيضاً : « لو اجتمع أهل السَّماوات وأهل الأرض على أن ينفعوك بشيء ، لم يَقْضِ اللّه لك ، لم يَقْدِرُوا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضِ اللّه عليك ، لم يقدروا عليه » [1] ، أو كما قال ﷺ . فأخلِقْ به أن يَلوذ بأكناف الإحجام ، ويَزُمّ على نَفْثة فيه كأنما أُلْجم بإلجام ، حينئذ نقول له ، والحق قد أبان وجهَه وجَلاَه ، وقهره بحجته وعَلاَه : ليس لك من الأمر شيء قل إنَّ الأمر كله لله . وفى محاجّة آدم موسَى [2] مايقطع لسان الخصم ، ويَرْحضُ [3] عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَن الوَصْم ، وكيفما كانت الحال ، وإن أساء الرأيَ والانتحال ، ووقعنا فى أوجال وأوحال ، فثُلَّ عَرْشنا ، وطويت فُرُشُنا ، ونكِّس لواؤُنا ، ومُلِك مَثْوانا ، فنحن مِثْلُ مَن سِوانَا ، وفى الشر خِيار ، ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار [4] ، فحتى الآنَ لم نفقد من اللطيف تعالى لُطفًا ، ولا عَدمنا [5] أدوات أدعية تعطف بلا مُهْلة على جُمْلتنا المقطوعة جُمَلَ النعم الموصولة عَطْفا ، وإلاَّ فتلك بغداد دار السلام ، ومُتَبَوأ الإسلام ، المحفوفُ بفُرسان السيوف والأقلام ، مَثابة الخلافة العباسية ، ومقر العلماء والفُضلاء

---

(١) الذى فى الأربعين النووية : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه اللّه لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه اللّه عليك » .

(٢) راجع صحيح البخارى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ . (طه : ١١٧)

(٣) كذا فى (ط) ونفح الطيب . ويرحض : يغسل . وفى (ت) : « يدحض » ، وهو تحريف .

(٤) يريد بالأغيار : تقلبات الدهر وأحداثه .

(٥) فى (ت) : « ولعدمنا » ، وهو تحريف .

أولى السير الأوَيْسيَّة [(١)] ، والعقول الإياسية [(٢)] ، وقد نُوزلت بالجيوش ونُزلت ، وزُوولت بالزَّحوف [(٣)] وزُلْزلت ، وتَحَيَّفَ [(٤)] جوانبَها الحَيْف ، ودخلها كفار التَّتَار { عَنْوة } [(٥)] بالسيف ، ولا تسل إذ ذاك عن كيف ، أيام تجلَّت عروس المنيه ، كاشفة عن ساقها مُبْديَه ، وجرت الدماء في الشوارع والطرق { كالأنهار } [(٦)] والأودية ، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم في رقابهم والأرديه ، وللنجيع [(٧)] سيول ، تخوضها الخيول ، فتخضبها إلى أرساغها ، وتَهُمُّ ظماؤُها بورْدها ، فتَنْكُل عن تجرُّعها ومَساغها ، فطاح عاصمها ومستعصمها ، وراح ولمَ يَغد ظالمُها ومتظلِّمها ، وخَرِبت مساجدها وديارها ، واصْطُلم [(٨)] بالحُسام أشرارها وخيارُها ، فلم يبق من جمهور أهلها عين تَطْرِف ، حسْبما عرفت أو حسبما تعرف ، فلا تكن مُتَشككاً متوقفاً ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند مُؤرِّخين من قفَا [(٩)] ، فأينَ تلك الجحافل ، والآراء المُدارَة في المحافل ، حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر ، لم تُجْد ولا قُلامة ظُفْر ، إذن فمَنْ سَلمتْ له نفسه التي هي رأس ماله ، وعيالُه وأطفالُه ، اللذان هما من أعظم آماله ، وكلٌّ أو جُلٌّ أوْ أقَلُّ رياشه ، وأسباب معاشه ، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ، ثم وَجَد مع ذلك سبيلاً إلى الخَلاص ، في حال مُياسرة ومساهلة ، دون تصعب واعتياص [(١٠)] ، بعد ما ظن كل الظن أن

---

(١) الأويسية : نسبة إلى أويس بن عامر القرني ، وهو من سادات التابعين زهداً وعبادة ، وقد قُتِلَ بصفين .

(٢) الإياسية : نسبة إلى إياس بن معاوية ، قاضي البصرة في عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان معروفاً بشدة زكانته ، وحسن قضائه ، وقوة جنانه ، وفصاحة لسانه .

(٣) كذا في (ط) ونفح الطيب ، وفي (ت) : « بالزحاف » .

(٤) تحيفة : تنقصه . (٥) ، (٦) زيادة عن (ت) ونفح الطيب .

(٧) النجيع : الدم الأحمر . (٨) اصطلم : استؤصل .

(٩) يشير إلى المثل المضروب : « أشهر من قفا نبك » . وهي مطولة امرىء القيس المشهورة .

(١٠) اعتاص الأمر عليه : اشتد والتاث ، فلم يهتد للصواب .

لا مَحيدَ ولا مناص ، فما أحقه حينئذ وأوْلاه ، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه ، على ما أسداه إليه من رِفده وخيره ، ومعافاته مما ابتُلي به كثير من غيره ، ويَرْضَى بكل إيراد وإصدار ، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار ، فالدهر غدَّار ، والدنيا دار مشحونة بالأكدار ، والقضاء لا يُرَدُّ ، ولا يُصَدُّ ، ولا يغالَب ، ولا يُطالَب ، والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيعٌ لا مُطاع ، وليس يُطاع إلاَّ المُستَطاع ، وللخالق القدير جلّت قدرته فى خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع ، ومالى والتكلُّفَ لما لا أحتاج إليه من هذا القول ، بين يدى ذى الجَلالة والمَجَادة والفضل والطَّوْل ، فله من العقل الأرجح ، ومن الخُلُق الأسجح ، ما لا تَلْتَاطُ [1] معه تهمتى بصَفَرِه [2] ، ولا تَنْفُق عنده وشاية الواشى ، لا عُدَّ من نَفَره ، ولا فازَ قِدْحُه بظَفَرِه ، والمولى يعلم أنَّ الدنيا تلعب باللاعب ، وتجرّ براحتها إلى المتاعب ، وقديماً للأكياس من الناس خَدَعَتْ ، وانحرفت عن وِصالهم أعقل ما كانوا وقطعت ، وفعلت بهم ما فعلتْ ، بيَسَار الكواعب التى جَبَّتْ وجَدَعَتْ [3] . ولئن رَهَصَت وهَصَرْت [4] ، فقد نبَّهت وبَصَّرَت ، ولئن قَرَّعَتْ ومَعَّضَتْ [5] ، فقد أرشَدَتْ ووعَظَتْ ، ويا ويْلَنا منْ تَنَكُّرِها لنا بِمرِّه ، ورميها لنا فى غَمرة أىِّ غَمره ، أيامَ [6] قَلَبَت لنا ظَهرَ المِجَنِّ ، وغَيَّم أفقها المُصْحِى وأدْجَن [7] ، فسَرْعان ما عايَنَّا حبالها مُنْبَتَّه ، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته ، فمَن استعاذ من شىء ، فليستعذ مما صِرْنا [8] إليه ، من الحَوْر بعد الكَوْر [9] ، والانحطاط من النَّجْد إلى الغوْر :

---

(١) تلتاط : تلصق . (٢) الصفر - بالتحريك - : اللُّب والعقل .

(٣) الجب والجدع : القطع . يشير بهذه العبارة إلى حادثة عبد يدعى يساراً راود بنت مولاه عن نفسها ، فجبت مذاكيره (انظر كتاب المضاف والمنسوب للثعالبى) .

(٤) الرهص والهصر : العصر والأخذ الشديد .

(٥) معضت : أغضبت (٦) فى (ط) : « وإن قلبت » .

(٧) أدجن : أظلم . (٨) فى (ت) : « سرنا » .

(٩) الحور : النقص . والكور : الزيادة .

فبينا نَسُوس النّاسَ والأمر أمرُنا إذا نحنُ فيهمْ سُوقَةٌ نتنصّفُ [1]

فَــأُفٍ لدنْيــا لا يــدوم نعيمها تَقَلّبُ تــارات بِنــا وتَصَـــرّفُ

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقا ، وجرّعتنا من صاب [2] الأوْصَاب كأساً دهاقا [3] ، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجَناب ، المنفتح حين سُدَّت الأبواب ، ولم نلبَس غير لباس نَعْمائكم حين خَلَعْنا ما ألبسنا المُلك من الأثواب ، وإلى أمّه يلجأ الطفل لَجَأَ اللّهْفَان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجْفان [4] ، ووجه الله تعالى يبقى ، وكلٌّ من عليها فان ، وإلى هنا ينتهى القائل ثم يقول : حسبى هذا [5] وكفان ، ولا ريب من اشتمال العِلْم الكريم ، على ما تعارفته الملوك بينها فى الحديث والقديم ، من الأخذ باليد عند زَلّة القَدَم ، وقَرع الأسنان وعض البنان من النّدم ، دينا به تَدَيّنت حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة اطّردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان .

ولقد عَرَض علينا صاحب قَشْتالة مواضعَ معتبرة ، خيّر فيها وأعطى من أمانه ، المؤكّد فيه خَطُّه بأيمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها . فلم نر ، ونحن من سلالة الأحمر ، مجاورة الصُّفْر ، ولا سَوّغ لنا الإيمان الإقامة بين ظَهْرَانَى الكُفر ، ما وجَدْنا على ذلك مَنْدُوحة ولو شاسعه ، وأمِنّا من المَطالب المُشاغب حَمَةَ شرٌ لنا لاسعه ، وادكَرْنا أىّ ادكار ، قولَ الله تعالى المنكرِ لذلك غاية الإنكار : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ [6] ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام ،

---

(١) نتنصف : نطلب النُصفة ، وهى الإنصاف .

(٢) كذا فى (ط) ونفح الطيب . والصاب : عصارة شجر مر ، وفى (ت) : « كأس » .

(٣) دهاقاً : مملوءة .

(٤) فى (ط) : « تمتاز السيوف فى الأجوان من الأجفان » . ويريد بالأجوان : جمع جون ، وهو الظلام .

(٥) كذا فى (ط) ونفح الطيب . وفى (ت) : « الله » .

(٦) النساء : ٩٧

المبالغ فى ذلك بأبلغ الكلام : « أنا برىء من مُؤْمن مع كافر لا تترا ءى ناراهما » [1] ، وقول الشاعر الحاثّ على حَثّ المطيه ، المتثاقلة عن السير فى طريق مَنجاتها البَطِيّه :

وَمَا أنا والتلدُّدَ نحو نجْد   وقد غُصَّت تِهامة بالرِّجَالِ [2]

ووصلت { أيضاً } [3] إلينا ، من الشرق [4] كتب كريمة المقاصد لدينا ، تستدعى الانحياز إلى تلك الجَنبات [5] ، وتتضمن ما لا مَزِيد عليه من الرغبات ، فلم نختَرْ إلاّ دارنا ، التى كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم نرتض الانضوا ء إلاّ لمن بحبله وُصِلَ حَبْلُنا ، وبريش نَبله رِيش نبلُنا : إدلالاً على مَحلّ إخاء متوارَث لا عن كلاله ، وامتثالاً لوَصاةِ أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالةٌ وجَلاله ، إذ قد رَوَيْنا عمن سلف من أسلافنا ، فى الإيصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا ، ألاّ يَبْتغوا إذا دَهَمهم داهم بالحضرة المَرينية بَدَلا ، ولا يجدوا عن طريقها فى التوجُّه إلى فريقها مَعْدلا . فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج ، وركبنا إلى البحر الفُرات ظهر البحر الأُجَاج ، فلا غَرْو أن نرد منه على ما يُقرّ العين ، ويشفى النفس الشاكية من ألم البَيْن ، ومَنْ تَوصَّل هذا التوصُّل ، وتوسّل بمثل ذلك التوسّل ، تطارُحاً على سُدَّة أمير المؤمنين ، المحارب للمحاربين ، والمؤمِّن للمستأمنين ، فهو الخليق الحقيق ، بأن يُسَوَّغ أصفى مشاربه ، ويُبَلَّغ أوفى مآربه ، على توالى الأيام والشهور والسنين ، ويَخْلُص من الثُّبور إلى الحُبور ، ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ، ولعلّ شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة

---

(١) نص هذا الحديث فى النهاية لابن الأثير ولسان العرب (مادة رأى) : « أنا برىء من كل مسلم مع مشرك » ، قيل : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : « لا ترا ءى نارهما » . أى لا يحل للمسلم أن يسكن بلاد المشركين ، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه .

(٢) التلدد : التلفت . وفى الأصلين ونفح الطيب : « التلذذ » ، وهو تصحيف .

(٣) زيادة عن (ت) ونفح الطيب .

(٤) فى (ط) : « المشرق » .   (٥) فى (ط) : « الجهات » .

قَبول إقباله تسرى إلينا ، فتخامرَنا أريحيَّة تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضىّ فى الخليفة القادر :

عَطفًا أميـرَ المؤمنيـنِ فإنَّنا ... فـى دَوْحـة العلياء لا نتَفرقُ

ما بيننا يـوم الفَخار تفاوتٌ ... أبداً كلانا فـى المعالى مُعْرِق

إلاَّ الخـلافةَ مَيَّزَتْك فإننــى ... أنا عاطـل منها وأنت مَطوَّق

لا ، بل الأحرى بنا والأحْجَى ، والأنجح لسعينا والأرجى ، أن نعدلَ عن هذا المِنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدى عُلاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج ، وينشد ما قال فى الشّيرازى ابن حَجَّاج [1] :

الناس يَفْـدونك اضْطِراراً ... منهم وأفْديـك باخْتـيارِى

وبَعْضُهم فـى جوار بعض ... وأنتَ حتـى أمُوتَ جَارِى

فعِشْ لخُبـزِى وعش لمائى ... وعش لدارى وأهـلِ دارِى

ونستوهب من المَنّان الوهَّاب تعالَى وجلَّت أسماؤه ، وتعاظمت نعماؤه ، رحمة تجعل فى يد الهداية أعنَّتَنَا ، وعصْمة تكون فى مواقف المخاوف جُنَّتَنَا ، وقَبولاً يُعَطِّف علينا نَوافر القلوب ، وصُنْعاً يُسَنِّى لنا كل مرغوب ومطلوب ، ونسأله ، وطالما بلَّغ السائل سُؤْلاً ومأمولاً ، مَتاباً صادقاً على موضوع النَّدم محمولا ، ثم عَزاءً حسناً وصبراً جميلاً ، عن أرض أورثها مَنْ شاء من عباده مُعْقِباً لهم ومُديلا ، وسادلاً عليهم من سُتور الإملاء [2] الطويلة سُدولا ، ﴿ سُنَّةَ اللّه الَّتِى قَدْ خَلَتْ من قَبْلُ ، ولَن تَجِدَ لسُنَّة اللّه تَبْديلاً ﴾ [3] . فليطِرْ طائرُ الوَسْواس المُرَفرِفُ مَطيرا ، كان ذلكَ فى الكتاب مسطورا ، ولم نستطع عن مورده صُدورا ، وكان أمرُ اللّه قَدَراً مَقْدُورا .

---

(١) ابن حجاج : هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد الكاتب الشاعر . وهذه الأبيات من أبيات خمسة قالها فى أبى الفضل الشيرازى (انظر يتيمة الدهر للثعالبى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان) .

(٢) الإملاء : الإمهال .   (٣) الفتح : ٢٣

ألا ، وإنّ لله سُبحانه فى مَقامكم العليّ الذى أيّده وأعانه ، سراً من النصر ، يترجم عنه لسان من النّصْل ، وتَرجع فروع البشائر الصادقه ، بالفتوحات المتلاحقه ، من قاعدته المتأصلة إلى أصْل ، فبمثله يجب اللّياذ والعياذ ، ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء ، ولأمر ما آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا الله تعالى واستخرناه ، ومنه جلّ جَلالُه نرغب أن يَخِير لنا ولجميع المسلمين ، ويُؤوينَا [١] من حِمايته ووقايته إلى مَعْقِلٍ مَنيع ، وجناب [٢] { رفيع } [٣] ، آمين ، آمين ، آمين .

نرجو أن يكون ربنُّا ، الذى هو فى جميع الأمور حَسْبُنا ، قد خارَ لنا حيثُ أرشدنا وهَدَانا ، وساقنا توفيقه وحَدَانا ، إلى الاستجارة بملِك حَفِيٍ ، كريمٍ وَفِيٍ ، أعزَّ جاراً من أبى دُواد [٤] ، وأحْمَى أنفاً من الحارث بن عُباد [٥] ، يشْهد بذلك الدانى والقاصِى والحاضرُ والباد ، إن أغاث مَلهوفا فما الأسود بن قَنان [٦] يُذكر ، وإن أنعش حُشاشة هالك فما كعب بن مَامَةَ على فعْله وحْدَهُ [٧] يُشكر ،

---

(١) فى (ط) : « ويوردنا » . وفى نفح الطيب : « وينوب بنا » .

(٢) هذه الكلمة : « وجناب » : ساقطة من (ت) .	(٣) زيادة عن نفح الطيب .

(٤) أبو دواد : هو جارية بن الحجاج ، وقيل حنظلة بن الشرقى الإيادى . كان بعض الملوك أخافه ، فصار إلى بَعض ملوك اليمن فأجاره وأحسن إليه ، فضُربَ المثل بحسن هذا الجوار . وقيل غير ذلك . (انظر تفصيل ذلك فى الشعر والشعراء لابن قتيبة عند الكلام على ترجمة أبى دواد) .

(٥) يشير إلى حميه الحارث بن عباد البكرى فى الحرب بين بكر وتغلب حين بلغه قتل مهلهل بجيراً ابنه وقوله له : بؤ بشسع نعل كليب ، فنادى بالرحيل وقال فى قصيدته المعروفة :

« قَرِّبا مربط النعامة منى	لقحت حرب وائل عن حيالى »

(٦) لم نجد شيئاً عن الأسود بن قنان هذا فى المظان التى رجعنا إليها .

(٧) يشير إلى ما أُثِرَ عن كعب بن مامة الإيادى من أنه آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمرى ، فمات عطشاً ، وضُرِبَ به المثل فى الإيثار . (انظر الشعر والشعراء ص ١٢٠ طبعة أوربا ، والمضاف والمنسوب للثعالبى) .

جَليسه كجليس القَعْقاع بن شَور [١] ، ومُذاكره كمذاكر سُفْيان [٢] المنتسب من الرِّباب [٣] إلى ثَوْر ، إلى التحلّى بأُمَّهات الفضائل ، التى أضدادها أمهاتُ الرذائل ، وهى الثلاث : الحكمة ، والعدل ، والعفة ، التى تشملها الثَّلاث : الأقوال ، والأفعال ، والشمائل ، وينشأ منها ما شئتَ [٤] من عزْم وحزْم ، وعلم وحِلم ، وتيقظ وتحفظ ، واتقاء وارتقاء ، وصَول وطَول ، وسَماح ونائل ، فبنور حلاه المُشْرِق ، يفتخر المَغْرب على المَشرِق ، وبمحتِده [٥] السامى خطره فى الأخطار ، وبيته الذى ذكره فى النباهة والنجابة قد طار ، يُباهى جميع ملوك الجهات والأقطار ، وكيف لا وهو الرفيع المُنْتَمَى والنِّجار ، الراضع من الطهَّارة صفو ألبان [٦] ، الناشىء من السَّراوة وسْط أحْجار ، فى ضِئْضىء [٧] المجد ، وبُحبوح الكَرَم ، وسَرَاوة أسرة المملكة التى أكنافها حَرَم ، وذُؤابة الشَّرَف التى مُجَاذبتها لم تُرَم ، مِنْ مَعْشَر أىِّ مَعْشرٍ ، بَخِلوا إن وَهَبُوا ما دون أعمارهم ، وجَبُنوا إن لم يَحْمُوا سِوى ذِمارهم ، بنو [٨] مرين ، وما أدراكَ ما بنو مَرِين :

....	سَمُّ العُداة وآفَة الجُزْر [٩]
النَّازلون بكلِّ مُعْتَرَكٍ	والطيبون مَعَاقِــدَ الأُزْرِ

---

(١) القعقاع بن شور : تابعى يُضرب به المثل فى حسن المجاورة ، كان إذا جالسه واحد بالقصد إليه جعل له نصيباً من ماله ، وأعانه على عدوه ، وشفع له فى حوائجه . (انظر المضاف والمنسوب ، وشرح القاموس مادة : قعقع) .

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، تابعى من كبار رجال الحديث .

(٣) الرِّباب - بالراء المشددة المكسورة - : الجماعات ، وتُطلق على قبائل عوف وثور وأشيب وضبة عمهم ، سموا بذلك لتفرقهم .

(٤) كذا فى (ت) ونفح الطيب والاستقصا للسلاوى . وفى (ط) : « ناشئة » .

(٥) فى نفح الطيب : « وبمحده » . (٦) فى (ت) : « اللبان » .

(٧) الضئضىء : الأصل . (٨) فى (ط) : « فبنو » .

(٩) هذا عجز بيت ، وصدره : « لا يبعدن قومى الذين هم » . وهذا البيت الذى يليه من قصيدة لخرنق بنت هفان ترثى زوجها وابنها علقمة وأخويه . (راجع الأمالى جـ ٢ ص ١٥٨ طبعة دار الكتب) .

لهُمْ مِنَ الْهَفَواتِ انْتِفَاء ، وعندهم من السِّيَرِ النَّبوية اكتفاء ، انتسبوا إلى بَرّ ابن قَيْسٍ [(١)] ، فخرجوا فى البرّ عن القَيْس [(٢)] ، مالُهم القديمُ المعروف ، قد نَفِدَ فى سبيل المعروف ، وحديثهم الذى نقلته رجال الزُّحوف [(٣)] ، من طُرُق القنا والسُّيوف ، على الحَسَن من المقاصد موقوف [(٤)] ، تَحْمَد من صغيرهم وكبيرهم ، ذابِلَهم ولَدْنَهم ، فلله آباءٌ أنجبوهم ، وأمَّهاتٌ وَلَدْنَهُمْ :

* شُمُّ الأنوف مِنَ الطِّرَازِ الأوَّلِ * [(٥)]

إليهم فى الشدائد الاستناد ، وعليهم فى الأزَمات المُعَوَّل ، ولهم فى الوفاء والصفاء والاحتفاء ، والعناية [(٦)] والحماية والرعاية ، الخطو الواسع ، والباع الأطول ، كأنما عناهم بقوله جَرْوَل [(٧)] :

أُولَئِــــك قَـومٌ إنْ بَنَــواْ أَحْسَنُوا الْبُنَى	وإنْ عَاهدَواْ وفَواْ وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وإنْ كانتِ النَّعماءُ فيهم جَزَواْ بها [(٨)]	وإن أَنْعَمــواْ لا كَـدَّرُوها ولا كَدُّوا
وتَعْذُلُنِى أبناء [(٩)] سَعْد عليهمُ [(١٠)]	ومـا قلتُ إلاَّ بالتــى علمتْ سَعْـدُ

---

(١) هو بر بن قيس عيلان ، وإليه ينسب البربر . (انظر شرح القاموس مادة : بر) .

(٢) القيس : القياس والتقدير .

(٣) الزحوف : جمع زحف ، وهم الجماعة يزحفون إلى العدو بمرة .

(٤) فى (ط) : « موصوف » .

(٥) هذا عجز بيت لحسان بن ثابت من قصيدة يمدح بها الغساسنة ، وصدره : « بيض الوجوه كريمة أحسابهم » .

(٦) هذه الكلمة : « العناية » ساقطة فى (ت) .

(٧) جرول : اسم الحطيئة الشاعر المخضرم المعروف .

(٨) رواية هذا الشطر فى مختارات ابن الشجرى : « وإن كانت النعمى عليهم جزوا بها » .

(٩) من مختارات ابن الشجرى : « أفناء » . والأفناء : الأخلاط .

(١٠) يُروَى : « وقد لامنى أفناء سعد عليهم » .

وبقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه :

قَوْمٌ إِذا عَقَدوا عَقْداً لجارِهِم ... شَدُّوا العِناجَ وشدُّوا فوقه الكَرَبا [1]

يُزيحون عن النزيل كلَّ نازحٍ قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهم[2] أحق بما قاله فى مِنْقَرٍ قيسُ بن عاصم [3] :

لا يَفْطَنُون لعيبِ جارِهِم ... وهُمُ لحِفْظِ جِوارِه فُطُنُ [4]

حَلَّاهم هذه الغريزةَ التى ليست باستكراه ولا جَعْل ، أميرُ المؤمنين ، دام نصره ، قَسيمَهُم فيها حذوَ [5] النَّعل بالنعْل ، ثم هو عليهم وعلى مَن سواهم بالأوصاف المُلوكية مُستَعْل ، ارفَضَ مُزْنُهُم منه عن غيث مُلِثّ يمحو أثار اللَّزْبه [6] ، وانشق غِيلُهُمْ منه عن ليث ضار مُنقبض على بَرَائنه للوَثْبه [7] ، فقُل لسُكان الفَلا : لا تَغُرَّنَّكُمْ أعدادُكم وأمدادُكم ، فلا يُبالى السِّرْحان المَواشى . سَواء مشى إليها النَّقَرَى أو الجَفَلَى [8] ، بل يصدِمُهُمْ صَدْمَةً تَحْطِمُ منهم كلَّ عِرنين ، ثم يبتلع بعدُ

---

(١) العناج : عروة فى أسفل الغرب من باطن ، تُشَدُّ بوثاق إلى أعلى الكرب ، وهو الحبل الذى تعلق فيه الدلو من عرقوتيها ، فإذا انقطع الكرب أمسك العناج الدلو أن تقع فى البئر . يريد أنهم إذا عقدوا عقداً لجارهم أحكموه .

(٢) كذا فى (ط) . وفى (ت) ونفح الطيب والاستقصا للسلاوى : « فهو » .

(٣) بنو منقر : من تميم ، منهم قيس بن عاصم هذا .

(٤) هذا البيت من أبيات لقيس مطلعها : « إنى امرؤ لا يعترى حسبى ونسى يفنده ولا أفن »

(٥) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « حذوك » .

(٦) الزبة : الضيق والشدة .

(٧) يشير إلى قول النابغة : « وقلت يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنه للوثبة الضارى »

(٨) مشى إليها النقرى أو الجفلى ، أى دهمها وحده أو مع غيره .

أشلاءَهم المُعَفَّرة ابتلاع التِّنِّين [١] ، فهو هو كما عرفوه ، وعَهِدوه وألفوه ، أخو [٢] المنايا ، وابن جلا [٣] وطلاعُ الثَّنايا [٤] ، مجتمعٌ أَشُدُّه ، قد احتنكتْ سِنّه [٥] وبان رُشْدُه ، جادٌ مجدٌ ، محتزم بحزام من الحَزْم ، مُشَمِّر عن ساعد الجِدّ :

لايَشرَبُ الماءَ إلاَّ مِنْ قَلِيب دمٍ ولا يَبيت له جارٌ على وَجَل [٦]

أَسَديُّ القلْب آدَمِيُّ الرُّواء ، لابس جلدَ النَّمر لذوى العِناد والنَّواء [٧] :

وليس بشــاوىً عليــه دَمَــامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأَسْهُمِ [٨]

ولكنَّهُ يسعَى عليه مُفَاضَةٌ [٩] دِلاص كأعْيــانِ الجــرادِ المنَظَّمِ [١٠]

فالنجاءَ النجاءَ سامعين له طائعين ، والوحَاءَ الوحاءَ [١١] لاحقين به خاضعين ، قبل أن تساقُوا إليه مُقَرَّنين فى الأصفاد ، ويعيا الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد [١٢] ، حينئذ يَعَض ذو الجهل والفَدامه [١٣] ، على يديه حسرة وندامه ،

---

(١) التنين – بكسر أوله – : الحية العظيمة . (٢) فى (ط) : « وأخو » .

(٣) يقال : هو ابن جلا : للسيد الشريف الذى لا يخفى مكانه .

(٤) الثنايا : جمع ثنية ، وهى العقبة . وطلاع الثنايا : مَن يسمو لمعالى الأمور .

(٥) احتنكت سنه : قويت تجاربه .

(٦) القليب : البئر . وهذا البيت من صيدة لأبى سعيد المخزولى . (انظر الأمالى جـ ١ ص٢٥٩ طبعة دار الكتب المصرية) . (٧) النواء : المناوأة ، وهى المعاداة .

(٨) شاوى : صاحب شاء ، وهى الغنم . ورواية هذا البيت فى اللسان مادة (شوه) :

« ولست بشاوى عليه دمامة إذا ما غدا يغدو بقوس وأسهم »

وهوالذى بعده ليزيد بن عبد المدان .

(٩) رواية هذا الشطر فى اللسان مادة (عين) : « ولكنى أغدو على مفاضة » .

(١٠) المفاضة : الدرع . والدلاص : اللينة البرّاقة الملساء .

(١١) كذا فى الأصلين . والوحاء : السرعة . وفى نفح الطيب : « والوجل الوجل » .

(١٢) الفاد : الفادى ، وهو مَن يفديهم بالمال .

(١٣) الفدامة : العى عن الحجة مع ثقل ورخاوة وقلة فهم .

إذا رأى أبطال الجنود ، تحت خَوافق الرايات والبُنود ، قد لَفَحَتْهم نار ليست بذات خُمود ، وأخذتهم مثل صاعقة الذين من قبلهم : عادٍ وثمود ، زَعَقَات سَبَطانات [1] تؤز [2] الكتائب أزًا ، وهمزاً محققاً للخيل بعد المدّ المشبع للأعنة هَمزا ، وسَلاً للهندية سَلاً وهزاً للخَطية هَزًا ، حتى يقول النَّسْر للذئب : هل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا [3] . ثِق خليفة الله بذاك ، فى كل مَن رام أذَى رعيتك أو أذاك [4] ، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى فى ذوى الشّقاق والنِّفاق ، الذين يَشُقّون عصا المسلمين ، ويقطعون طريق الوفاق [5] ، وينْصبون حَبَائل البَغْى والفساد فى جميع النَّواحِى والآفاق ، فلَنْ يجعلهُمُ الله عزّ وجَلّ من الآمنين ، أنّى وكَيْف وقد أفسدوا وخانوا ؟ وهو سبحانه لا يُصلح عمل المفسدين ، ولايهدى كيد الخائنين .

وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وُجوه صلوات التقديس والتعظيم ، بعد ما زيّنا معاطفها باستعطافكم بدُرّ ثناء أبهى من دُرّ العقد النظيم ، منتظمين فى سلك أوليائكم [6] ، متشرفين بخدمة عَليائكم ، ولا فَقَد عزة ولا عدمها ، مَنْ قصد مَثَابَتكم العزيزةَ وخَدَمها ، وإن المترامىَ على سنائكم ، لجدير بحرمتكم واعتنائكم ، وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حِصْنا حصينا ، عاش بقية عمره محروساً من الضيم مصونا ، وقد قيل فى بعض الكلام : مَن قعدت به نكاية الأيام ، أقامته إغاثة الكرام ، ومولانا أيّده الله تعالى ولىّ ما يَزُفّه إلينا من مكرُمة بِكْر ، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلّد فى صحائف [7] حسنِ الذكر ،

(١) سبطانات : جمع سبطانة ، وهى آلة يُرمى بها فى الحرب ، (مولّدة) .

(٢) تؤزهم : تحركهم بشدة .

(٣) ركزاً : صوتاً خفياً .

(٤) كذا فى (ت) ونفح الطيب . وفى (ط) : « وأذاك » .

(٥) فى (ت) ونفح الطيب : « الرفاق » .

(٦) فى (ط) : « ومنتظمين فى سلك أولائكم » .

(٧) فى (ت) : « الصحائف » .

ويَرْوِي مُعنعنَ حديثِ حمده وشكرهِ طِرْسٌ عن قَلَمٍ عن بَنَانٍ عن لسان عن فكر ، وغيره مَن ينام عن ذلك فيُوقَظ ، ويسترسل مع الغفلة حتى يُذكَّر ويُوعَظ ، وما عُهِد مُنذ وُجِدَ إلاَّ سريعاً إلى داعى الندَى والتكرُّم ، بريئًا من الضَّجَر بالمطالبة والتبرّم ، حافظاً للجار الذى أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحفظه ، مستفرغاً وسعه فى رَعْيه المستمرّ ولحظه ، آخذاً من حُسن الثناء فى جميع الأوقات والآناء بحظّه :

فهو من دَوْحة السَّنا فرعُ عِزَّ ... ليس يحتــاج مُجتنيــه لهزِّ

كفُّه فــى الإمحـال أغزر وبْل ... وذَراه فى الخوف أمنـع حرْزِ (١)

حلمه يُسْفـــر اسمه لك عنهُ ... فتفهَّم يا مدعى الفهم لُغزِى (٢)

لا تسله شيئــاً ولا تستنلــه ... نَظْرة منه فيــك تُغْنــي وتُجزِى

فنَــداه هـو الفُـرات الذى قد ... عام فيــه الأنــام عَـوْم الإوَزّ

وحِمـــاه هـــو المَنيع الذى تر ... جع عنــه الخطـوب مَرْجِع عَجْز

فَـــدَعُــوا ذهنه يزوال قَوْلِى ... فهـــو أدرى بما تضمن رمـزى

دام يُحْيِـــى بكل صُنْع ومَنٍّ ... ويعافـــى مـن كل بؤس ورِجْزِ

وكأنَّا به قد عَمِل على شاكلة جلاله ، من مدّ ظلاله ، وتمهيد خلاله ، وتلَقى ورودنا بحسن تهلُّله واستهلاله ، وتأنيسنا بجميل قَبوله وإقباله ، وإيرادنا على حوْض كَوْثره المُترع بزُلاله . والله [سبحانه] (٣) يُسْعد مَقامه العَلِىّ ، ويُسعدُنا به فى حَلّه وارتحاله ، ومآله وحاله ، ويؤيد جنده المظفَّر ، ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوّه واستنزاله ، وهَزِّ الذوابل (٤) لإطفاء ذُباله ، وهو سبحانه

---

(١) ذراه : كنفه .

(٢) لعله يريد أن الحلم يلحظ فى اسمه (الشيخ) ، لأن مع الشيخوخة الرزانة والهدوء .

(٣) زيادة عن نفح الطيب .

(٤) الذوابل : الرماح ، جمع ذابل .

وتعالى المسئول أن يُريه قُرَّة العين فى نفسه وأهله وخُدَّامه وأمواله ، وأنظاره [1] وأعماله ، وكافة شئونه وأحواله . وأحق ما نصل بالسّلام وأولى ، على المقام الجليل مَقام الخليفة المولى ، أزكى الصلاة والسلام على خاتمة [2] أنبياء الله وأرْسَاله [3] ، سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى جميع أصحابه وآله ، صلاةً وسلاماً دائمين أبدا ، موصولين بداوم الأبد واتصاله ، ضامنَيْن لمُجَدِّدهما ومردِّدهما صلاح فاسد أعماله ، وبلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة اللَّه تعالى وإذنه وفضله وإفضاله .

« انتهى الكتاب ، وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار ، بما فعلته الدنيا مع الملوك الأعاظم الكبار » .

* * *

(١) كذا فى (ط) ونفح الطيب . والأنظار : جمع نظر ، وهو مصدر ، يراد به ما يتولى النظر عليه من الأعمال . وفى (ت) : « أقطاره » .

(٢) كذا فى (ط) ونفح الطيب . وفى (ت) : « خاتم » .

(٣) يريد رسله ؛ والأرسال : غير مسموع فى هذا المعنى .

دكتور رشدى فكّار

● المؤهلات . والعمل . والإنتاج .. باختصار :

– من مواليد الكرنك بمحافظة قنا – جنوب مصر العربية .

– بعد أن التحق بمعهد قنا الدينى ، ثم معهد القاهرة الدينى بالأزهر وتخرّج منه وحصوله على البكالوريا الفرنسية أيضاً بالمعادلة ، وأصل دراسته فى مصر ، ثم تابعها فى أوروبا بالقسم العلمى للدراسات العليا بالسوربون ، حيث تخرّج منه بحصوله على دبلومه فى الدراسات العليا ، كما حصل فى نفس الوقت على ليسانس الآداب « تخصص فلسفة بالمعادلة » من جامعة جنيف .

– حصل على دبلومين فى الدراسات العليا من باريس أحدهما فى الاجتماع ، والآخر فى العلاقات الدولية .

– حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦

– تُوِّجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ، على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة جنيف عام ١٩٦٧

* * *

● الوظائف الجامعية التى تقلدها .. والعضوية فى الأكاديميات العالمية والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، وإقرار ترشيحه لجائزة نوبل فى الآداب منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٦٧ :

– مكلّف بمحاضرت بالسوربون فى القسم العلمى للدراسات العالية بعد تخرجه منه لمدة عام .

– محاضر فى جامعة جنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .

– عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الإجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيوشاتل (١٩٦٢ – ١٩٦٣) .

- أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤

- أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨

- أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخرى .

- شارك فى الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدّمة فى الجامعات الأوروبية والعربية .

- ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤتمراً عالمياً مثل :

- عضويته لجمعية استرنبرج الإسكندنافية بالسويد .

- عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية « أدلف » (A . D . E . L . F .) بباريس .

- انتُخِبَ عضواً مشاركاً فى الأكاديمية الفرنسية للعلوم بمجامع الخالدين - دائرة ما وراء البحار - منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣

- أُقِرَّ ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية « لجائزة نوبل فى الآداب » منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ بمساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :

أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية « أدلف » ، وتزكية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للتربية والثقافة والعلوم « الكسو » . والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..

إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعالمية .

* * *

• الإنتاج العلمى :

- يتجاوز إنتاجه العلمى حالياً ١٤٠ بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات ، وتعليقات باللُّغة الفرنسية أساساً ، والعربية والإنجليزية .

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتاج يراجع « الكتالوج الدولى لجامعة جنيف .. وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس » ..

* * *

• فى الإنتاج العالمى بالفرنسية والإنجليزية ...على سبيل المثال :

- السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية ، وأصول الماركسية فى مجلدين (عدة طبعات فى عدة لغات) عن دار النشر العالمية « دولا شونستليه - نيوشاتل وباريس » سنة ١٩٦٨

- المراهنة الصناعية فى خمس مجلدات بالاشتراك مع أعضاء فى الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من الجامعات فى دول الكتلة الشرقية خصوصاً المجلد الخامس عن « الصناعة وأزمة الحضارة » منشورات « دى نويل » .. « كويلج دى فرانس » والأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٧٢

علم الاجتماع ، وعلم النفس والإنثروبولوجيا الاجتماعية ، معجم موسوعى عالمى ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جتنير (١٩٨٠ - ١٩٨١) .

* * *

• وفى الإنتاج بالفرنسية عن العالم العربى والإسلامى :

- نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى - الفرج بعد الشدة - عن دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥

- تأملات فى الإسلام .. فى عدة طبعات - عن دار النشر العالمية ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣

- انعكاسات السوسيولوچية الوضعية وأصول الماركسية فى العالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس سنة ١٩٧٤

- أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى . عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس ١٩٧٣

- الحياة اليومية فى مصر إبّان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية ميزونيف سنة ١٩٧٥

* * *

● فى الإنتاج باللغة العربية :

- دراسات أنثروبولوچية اجتماعية « السحر وما حوله » دار النجاح - بيروت سنة ١٩٧٣ .

- الشباب وحرية الاختيار ..مكتبة المعارف - الرباط ١٩٧٤

- أوچيست كونت عملاق السوسيولوچيا وموقفه من الإسلام (منشورات مركز البحث العلمى) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع سنة ١٩٦٨

- وضعية الدراسات السوسيولوچية فى المشرق العربى (منشورات مركز البحث العلمى الجامعى) بالرباط سنة ١٩٧١

- الإسلام بين دعاته وأدعيائه - الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦

- الماركسية والدين - الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر (الإنتاج العالمى) سنة ١٩٧٩

- فى البغاء الوحشى - القاهرة - مكتبة وهبة . والرباط - المكتبة الجامعية سنة ١٩٧٩

- تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع .. فى مجلد موسوعى - القاهرة - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠

- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. فى مجلد - القاهرة - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠

- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢

- فى الاجتماع العربى الإسلامى .. نحو نظرية حوارية إسلامية - فى ثلاثة مجلدات - المجلد الأول : لماذا حوارية ولماذا إسلامية ؟ ، المجلد الثانى : بين الليبرالية بنظمها الرأسمالية والمترسملة ، والاشتراكية بنظمها الماركسية والمتمركسة ، المجلد الثالث : لأمتنا فى واقعها المعاصر - دار النشر العالمية جتنير - باريس سنة ١٩٩٠ .

- خميس البكرى - د . رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول مشاكل العصر - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٦

- خميس البكرى - د. رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٨

- سيد أبو دومة - د. رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى .. ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٩

- سيد أبو دومة - د . رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس - مكتبة وهبة سنة ١٩٩١

إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة .

* * *

● ومن أحدث مؤلفات الدكتور رشدى فكّار . كما أشرنا سلفاً :

- موسوعة ضخمة فى علوم الإنسان تتكوّن من أربعة أجزاء بالفرنسية والإنجليزية والعربية حاولَ فيها أن يعيد النظر فى مضامين هذه العلوم على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة - تعتبر منعرجاً هاماً فى التقنين المعرفى « الابتسمولوچى » لمفاهيم علوم الإنسان الأساسية ونظرياتها الرئيسية ..

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

ملحقات

(١٠٩ - ١٤٧)

* * *

إسلاميات
(سلسلة العالم العربى الإسلامى)
للدكتور رشدى فكّار [1]

● عن دور النشر العالمية :

– الفرج بعد الشدة عند مفكرى الإسلام ، لاهاى بخهوف ، باريس ، أدريان ميزونيف مجموعة كارنو (١٩٥٥) .

– تأملات حول الإسلام : أسس العقيدة والجانب الاجتماعى ، باريس . ميزونيف ولاروز (١٩٧٢) وفى عدة طبعات أخرى .

– أصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم العربى ، باريس ، جتنير ، (١٩٧٢) وفى عدة طبعات .

– انعكسات السوسيولوچيا الوضعية فى العالم العربى ، باريس ، جتنير ، (١٩٧٤) وفى عدة طبعات .

– الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، باريس ، ميزونيف ولاروز (١٩٧٥) .

– فى الاجتماع العربى الإسلامى .. نحو نظرية حوارية إسلامية – فى ثلاثة مجلدات – المجلد الأول : لماذا حوارية ولماذا إسلامية ؟ ، المجلد الثانى : بين الليبرالية بنظمها الرأسمالية والمترسملة ، والاشتراكية بنظمها الماركسية والمتمركسة ، المجلد الثالث : لأمتنا فى واقعها المعاصر – دار النشر العالمية جتنير – باريس (١٩٩٠) .

---

(١) لمزيد من التفصيل عن الإنتاج الكامل للدكتور رشدى فكّار بالفرنسية والعربية والإنجليزية، يراجع : كتالوج جامعة چنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لأهم المؤلفات والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكّار مع نبذة عن سيرته المودعة بمؤسسة « نوبل » باستكهولم – السويد ، وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس حرف (ف) .

● عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :

- الفكر التقدمى فى أوروبا وأثره فى الشرق (١٩٥٩) .

● عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية) :

- السحر وما حوله ، مع ملحق عن إنسان القرآن ، دراسة أنثروبولوچية اجتماعية (١٩٧٣) .

● عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع بالقاهرة (بالعربية) :

- تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع - فى مجلد (١٩٨٠) .

- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى (١٩٨١) .

- لمحات عن منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام فى هذا العصر - الطبعة الأولى (١٩٨٢) .

- خميس البكرى : د. رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى فى حوار متواصل حول مشاكل العصر (١٩٨٦) .

- خميس البكرى : د. رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار متواصل حول قضايا تراث المسلمين (١٩٨٨) .

- سيد أبو دومة : د. رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى .. ونهاية عمالقة فى حضارة الغرب (١٩٨٩) .

- سيد أبو دومة : د . رشدى فكّار المفكر الإسلامى العالمى .. فى حوار حول الحاضر بالماضى عبر الأندلس (١٩٩١) .

● عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :

- أمصريون فقط ؟ حوار مطوّل حول القضايا الأيديولوچية المعاصرة ، فى كتاب عن الدكتور رشدى فكّار وضعه الكاتب المصرى المعروف على الدالى (١٩٧٦) .

رقم الإيداع : ١٩٩١/٢٢٧٧

I. SB. N 977 - 225 - 007 - 1

- Khamis el-Bakry , Dr. Rouchdi Fakkar en Dialogue Avecles Problemes de l'héritage culturel des musulmans . (1988) .

- Sayed Abu Doma , Dr. Rouchdi Fakkar Penseur Islamique Mondialement connu et la Fin des Géants dans La Civilisation Occiden tale . (1989) .

- Sayed Abu Doma , Dr. Rouchdi Fakkar , Penseur Islamique Mondialement Connu en Dialogue Autour Du Présent Dans Le Passé à Travers Al - Andalus . (1991) .

- Editions, Máison du peuple, Le Caire (en arabe):

- Long dialogue sur les problèmes idéologiques , contemporains à travers la pensée de Dr. Rouchdi Fakkar , ouvrage sur lui , élaboré par l'écrivain égyptien , bien connu Ali Dali . (1976) .

* * *

- " DE LA SOCIOLOGIE ARABO - MUSULMANE " VERS UNE THÉORIE DIALOGUISTE ISLAMIQUE , 3 Volumes . Volume I , Pourquoi Dialoguiste et Pourquoi Islamique . Volume II , Entre Libéralisme avec ses régimes Capitalistes ou capitalisants et Socialisme avec ses régimes marxistes ou marxisants . Volume III , Pour notre Nation dans sa réalité contemporaine , Paris , Geuthner , 1990 .

* * *

- **Edition AL-Hilal , Le Caire (en français) :**

- La pensée progressiste en Europe et son influence en Orient . (1959) .

- **Edition Dar Al najah , Beyrouth (en arabe) :**

- La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d'Anthropologie sociale . (1973) .

- **Edition Wahbah , Le Caire (en arabe) :**

- Reflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société . I vol . (1980)
- Vues musulmanes sur l'Homme et la société aprés 14 siecles , (1981) .
- Methodologie et dialogue . (1982) .
- Khamis el-Bakry , Dr . Rouchdi Fakkar en Dialogue Avec les problèmes de Notre Temps . (1986) .

ISLAMIATE

(Serie du Monde arabo - musulman)

de Dr. R . FAKKAR [1]

- Editions Internationales :

- La Délivrance après l'Angoisse , La Haye , Nijhoff , Paris, Adrien Maisonneuve , Collec . Garnot , 1955 .

-Réflexions sur l'Islam , fondement de croyance et aspect social , Paris , Maisonneuve et Larose , 1972 et plusieus éditions .

- Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe , Paris , Geuthner , 1972 et Plusieurs éditions .

- Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe , Paris , Geuthner , 1974 et plusieurs éditions .

- Aspects de la vie Quotidienne en Egypté , Paris , Maisonneuve et Larose , 1975 .

---

(1) Pour les oeuvres completes de Dr . R . Fakkar : ouvrages principaux et autres travaux , en français , en anglais , et en arabe voire , Catalogue de la Bibliothèque de l'Université de Genève , Lettre F ., La Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkar publiées jusqu'a 1981 et déposée a la fondation Nobel , Stockholm et Catalogue de la Bibliotheque Nationale de Paris , Lettre F .

Première édition

1411 H . - 1991

رقم الإيداع : ٢٢٧٧/ ١٩٩١
I. SB. N 977 - 225 - 007 - 1

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

Dr. ROUCHDI FAKKAR
PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU
MEMBRE DU CONSEIL SUPREME DE CULTURE EN EGYPTÉ

EN DIALOGUE AUTOUR DU PRÉSENT DANS LE PASSE À TRAVERS AL - ANDALUS

Introduit et présnté
par
SAID ABOU DOMA

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE
14 Rue, GAMHORIYAH
LE CAIRE
1991

CE LIVRE

Ce livre qui porte comme titre : Dialogue autour du présent dans le passé à travers AL ANDALOUSIE est le quatrième volume d'un dialogue continu avec le professeur Docteur ROUCHDI FAKKAR , penseur islamique , mondialement , Connu .Composé d'un index et de onze entretiens , dont sept consacrés aux différentes époques de AL ANDALOUSIE depuis le début de la conquète (92 H . 711 J . C) jusqu à la chute de Grenade (1492) en passant par les époques de WOLATS , d'EMIRATES au KHILAFAH et la dispersion en TAWAIFS .

Les quatres autres entretiens contiennent une valorisation sous la forme d'un bilan de la réalisation de AL ANDALOUSIE dans les divers domaines , ainsi que les causes de sa dégradation et ses pertes .

Al ANDALOUSIE de grand leaders , de mofassirs , de Mohadiths , de Faqihs , des Historiens , de Géographes , de poètes , de philosophes , des Artistes , à côté des Intrigands des Compilateurs , des Agitateurs professionnels , même des Charlatans etc ..... est un mélange de contraste qui correspond a une entité historique incomparable qui a laissé des traces inéffaçables , non seulement sur le plan de la civilisation de l'Islam , mais aussi sur le plan de la civilisation occidentale et ses origines .

Introduit et presenté par l'écrivain islamique SAID-ABOUDOMA , déja , bien connu de lecteurs arabes comme l'un de meilleurs rédacteurs de journal " AL AHRAM " du Caire et auteur également d'un ouvrage sur notre grand penseur FAKKAR .

Dialogue autour du présent dans le passé à travers AL ANDALOUSIE est un ouvrage bien conçu , rédigé dans un style simple et directe , s'appuiyant sur des textes authentiques qui s'échelonent sur huit siécles environs et présentant un portrait vivant de ANDALOUSIE dans ses grandeurs comme dans ses décadences , trouve , sans doute , une place du choix au sein de la bibliothèque arabe Contemporaine .

EDITION , WAHBAH LIBRAIRIE

Dr . ROUCHDI FAKKAR

PENSEUR ISLAMIQUE MONDIALEMENT CONNU

MEMBRE DU CONSEIL SUPREME DE CULTURE EN EGYPTE

EN DIALOGUE AUTOUR DU PRÉSENT DANS LE PASSÉ A TRAVERS AL - ANDALUS

EDITION , WAHBAH LIBRAIRIE

14 Rue , GAMHORIYAH

LE CAIRE

1991

Introduit et présnté

par

SAID ABOU DOMA

